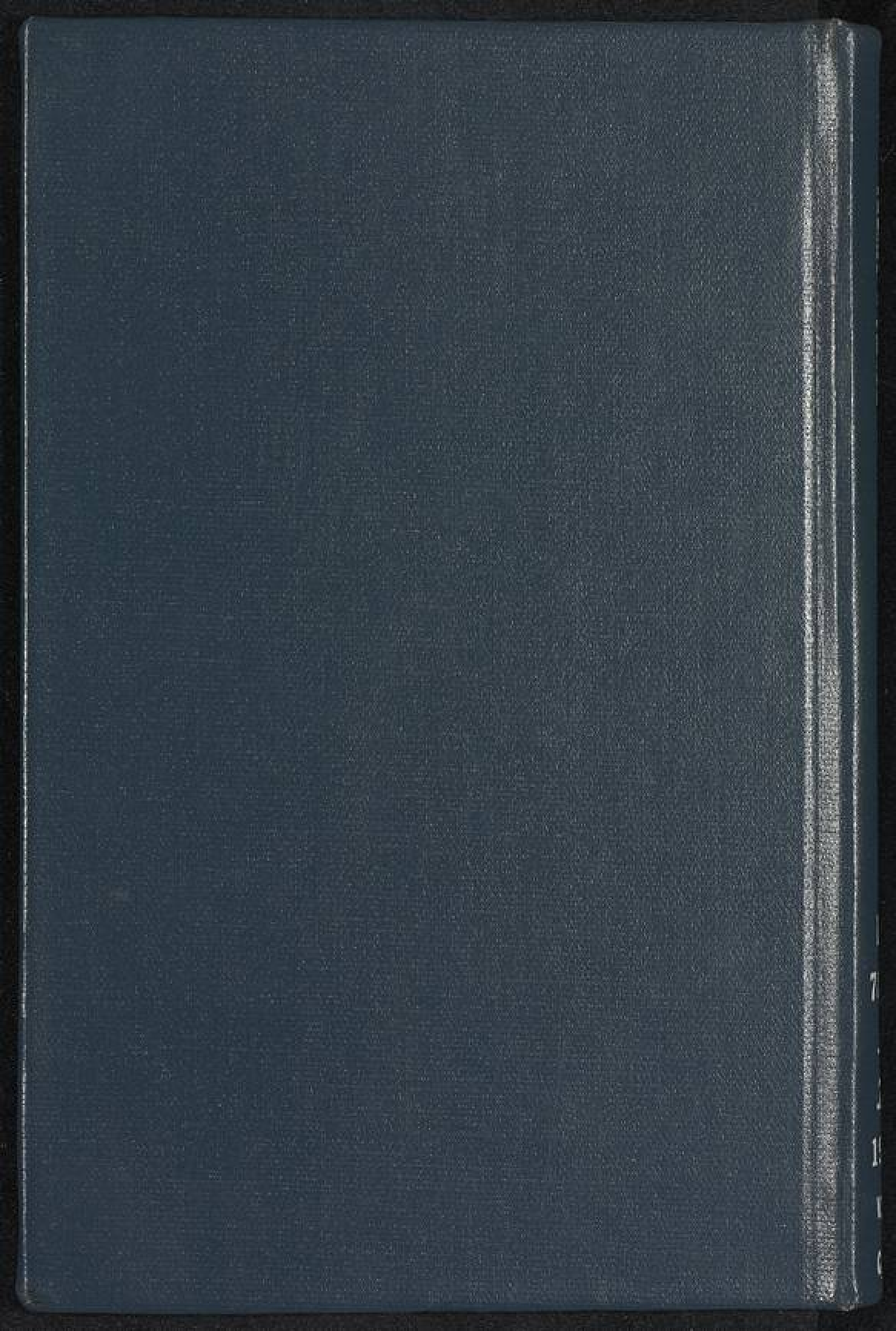
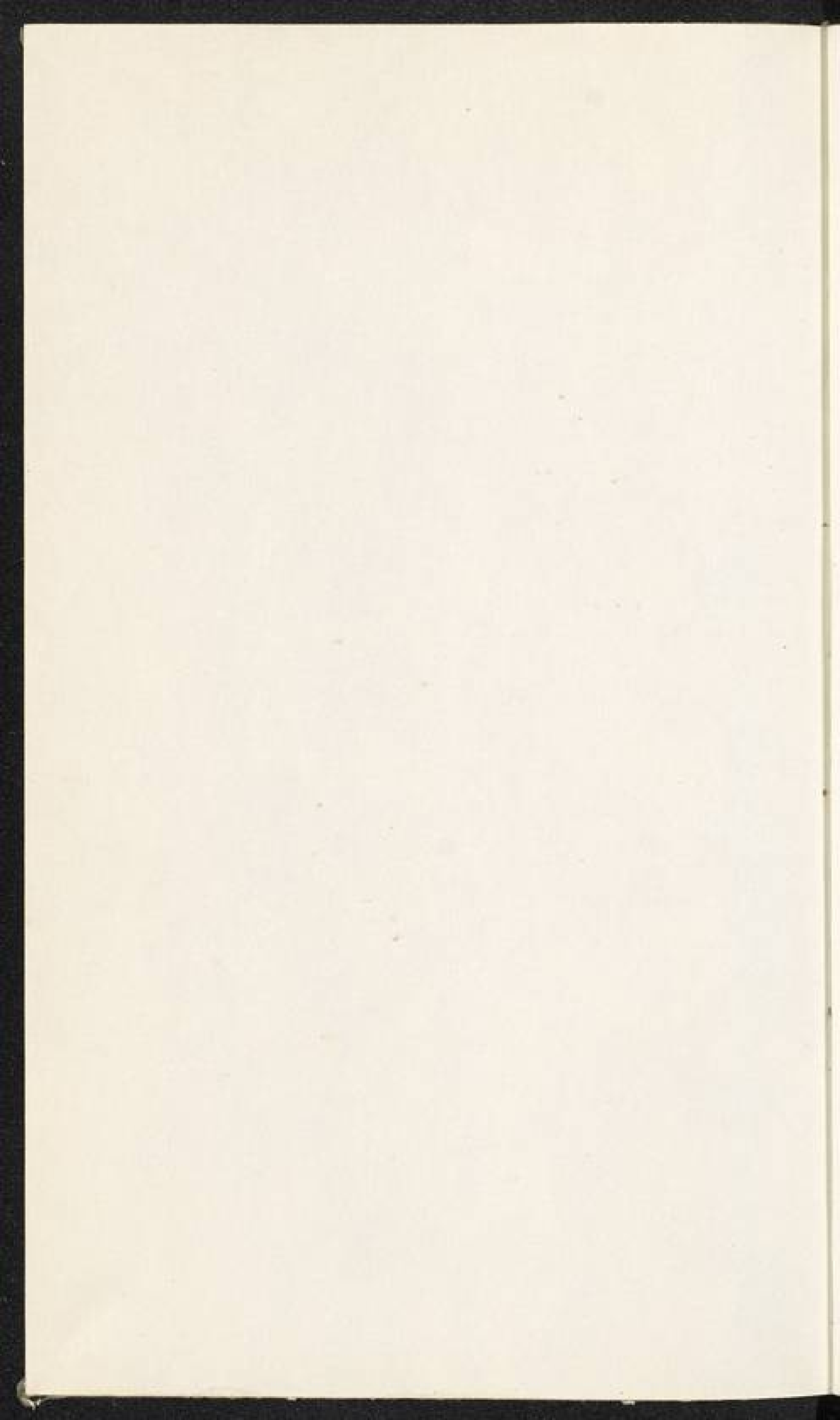
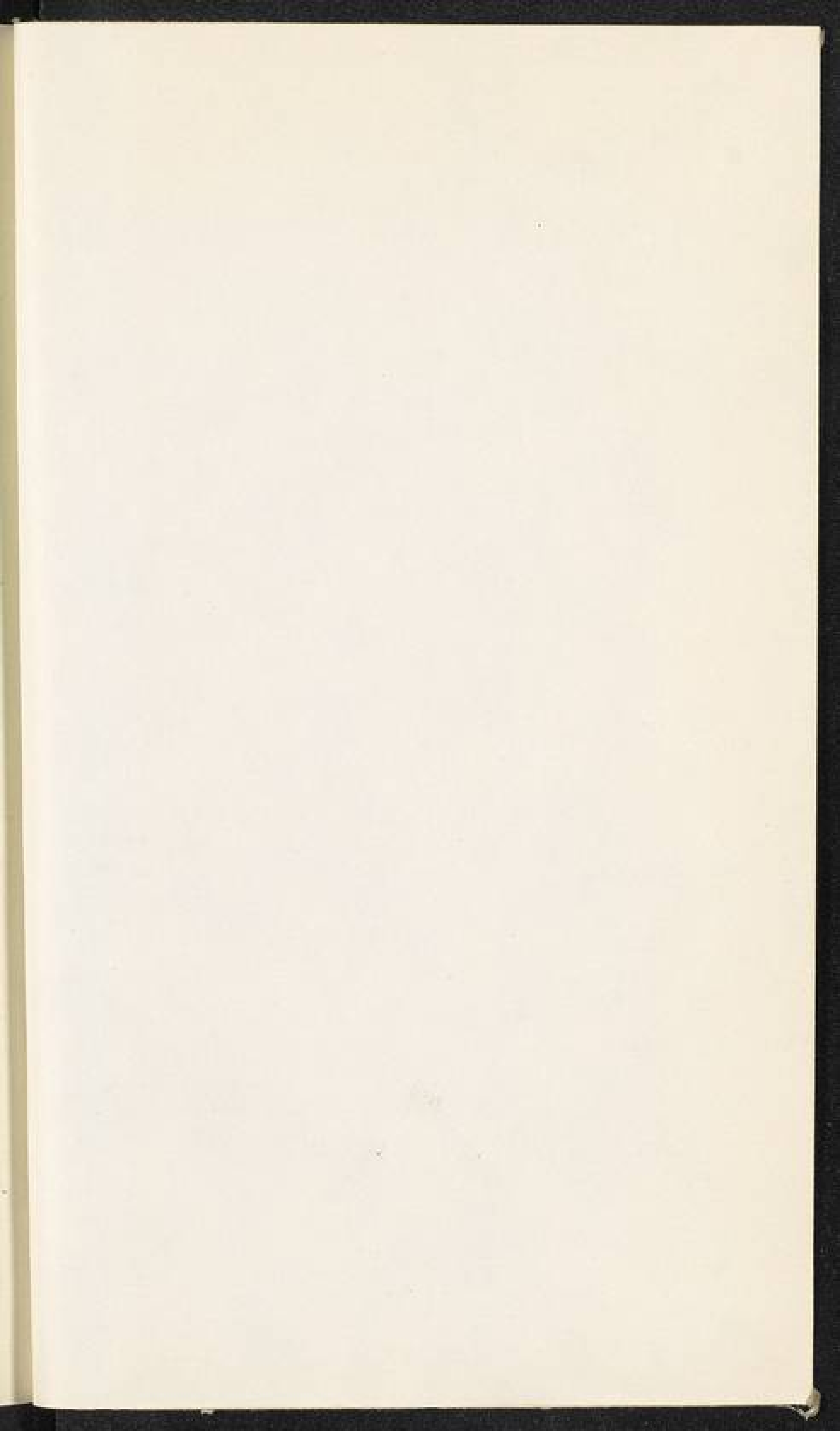






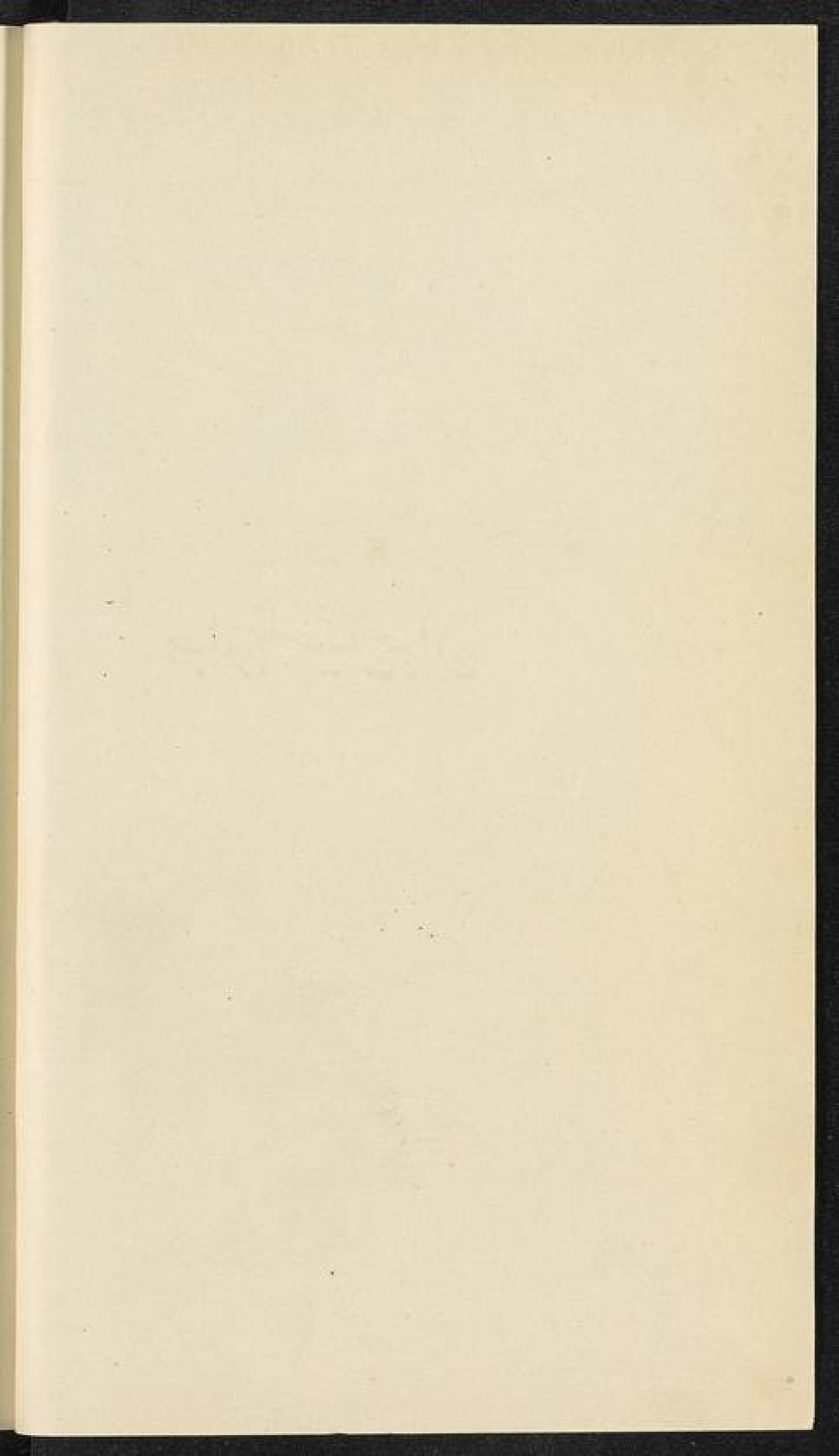




المجموعة الكاملة لمؤلفات

جبران خليل جبران

الجزء الأول



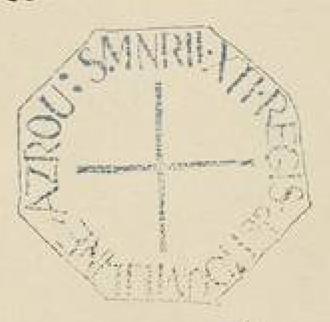
المجموعة الكاملة لمؤلفات

جبران خليل جبران

قدم لها وأشرف على تنسيقها

ميخائيل نعيمه

الجزء الاول :



مكتبة صادر
بيروت


BOBST
SERIALS
JUL 21 1978

المجموعة الكاملة لمؤلفات

جبران خليل جبران

يعتزّ العالم العربيّ – ولبنان على الأخص – بأنه أنجب كاتباً وفنّاناً تتغنّى بآياته الروحيّة والفنّيّة ألوف الألوف في كلّ صقع من أصقاع الأرض . فجبران خليل جبران شاهدٌ لنا وللغير بأن الشرق ، وإن أنهكته صروف الدهر الى حين ، ما نام عن رسالته ؛ وأنه ما برح ذلك الخزّان العجيب الذي كلّما جاعت البشرية وعطشت الى أكثر من الخبز والماء عادت اليه تفتّش عن غذاء وعن ريّ . والارث الذي تركه لنا جبران لا يُثمّن بمال . وإنه لمن المؤسف والمخجل ان نراه مهاناً في دياره .

لقد أوصى جبران بريع مؤلفاته العربية والانكليزية لبلدته بشرّي . ولكنّ ذلك لم يردع المستثمرين في الأقطار العربية عن « غزو » تلك المؤلفات . اذ راحوا ينشرونها مبعثرة ، مشوّهة ، دونما استئذان وبغير ما تمحيص أو ترتيب ، وفي أشكال زريّة يمجّها الذوق . وأقصى مبتغاهم دريهمات يربحونها على عجل . وأمّا أنّ الكثير منهم قد دسّوا في مؤلفات جبران أشياء ليست له ؛ وأمّا أنهم يقذفون بتلك المؤلفات الى السوق طافحة بالأغلاط المطبعية فيسيئون الى جبران والى القارىء

أكبر الاساءة ؛ وأمّا أنهم يسرقون حقوقاً ليست لهم – فما في ذلك كلّه ما يزعجهم أو ما يحملهم على التفكير فالتكفير .

لذلك رأت « لجنة جبران » في بشري التي لها وحدها الحق في مؤلفات جبران أن تحصر حق نشرها فينا ، وأن تَكِل الينا أمر طبعها وتصحيحها وتنسيقها في مجموعة من المجلدات قطعها واحد وشكلها واحد وورقها واحد كيما يتاح لعشاق جبران اقتناؤها كاملة وخالية من النقص والغش ، وفي حلّة تليق بها .

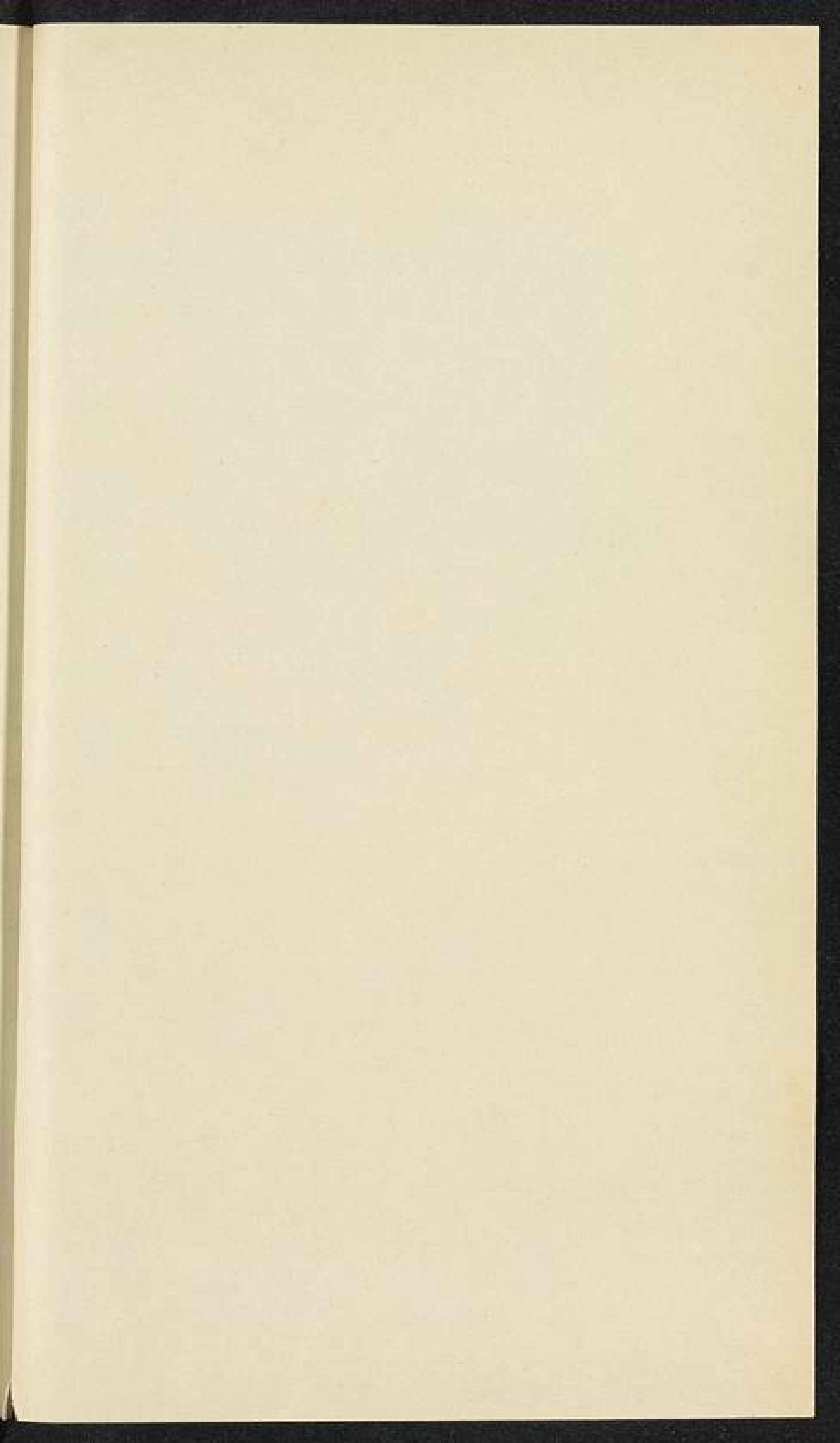
وقد رغبت اللجنة الى صديق جبران ورفيقه – ميخائيل نعيمه – أن يُشرف على تنسيق مؤلفاته العربية وترجمة مؤلفاته الانكليزية جاعلة قبوله بذلك شرطاً أوّليّاً في تعاقدها معنا . فما خيّب فألها وفألنا . بل تطوع للعمل شاكراً للّجنة نزولها عند رأيه الذي أبداه من زمان في كتابه « جبران خليل جبران » بشأن مؤلفات صديقه وحفظها من الفساد . وحسبك منه هذه المقدمة التي وضعها لمؤلفات جبران العربية والتي سيضع ما يماثلها لمؤلفاته الانكليزية حالما يفرغ المترجمون من ترجمتها .

بقي أن ننبّه القارىء الى أمرَيْن : أوّلهما أننا ، مبالغةً في الأمانة لجبران ولتاريخ الأدب العربي ، ما شئنا ان نتعرّض لأسلوب جبران أو للغته بأقلّ تصحيح أو تغيير . وليس خفيّاً أن لكل كاتب ، وبالأخص في بدء نشأته ، هفوات لغوية وبيانية مردّها في الغالب الى قلّة الخبرة والمران . فقد آثرنا أن نبقي على مثل هذه الهفوات إلاّ ما كان منها هفوات مطبعية ظاهرة . والأمر الثاني هو أن القارىء لن

د في هذه المجموعة كتاباً عنوانه « البدائع والطرائف » . ذلك لأن
كتاب ، إلاّ القليل منه ، ليس أكثر من مجموعة لمقالات ومقاطع
ردت في مؤلفات أخرى لجبران . ومن ثم فالعنوان ليس من اختيار
بران بل من اختيار الناشر . فهو ، من هذا القبيل ، ليس « مؤلّفاً »
ن مؤلفات جبران مثلما هي « الأجنحة المتكسرة » و « المواكب »
« العواصف » وسواها .

وها نحن نقدّم اليوم الى العالم العربي جبران في آثاره العربية على
ن نقدمه في ترجمات مؤلفاته الانكليزية قريباً ان شاء الله .

مكتبة صادر



جبران في آثاره العربية

يطوي العبقري في خلال عمر واحد أعمار اجيال سبقته ، واجيال رافقته ، واجيال تأتي بعده . فيموت ليحيا . ويحيا غيره ليموت .

ويحيا العبقري في قلوب الاجيال لأنه يعطي آلامها الخرساء ألسنة من نار ، ويمدّ آمالها المقعَدة بأجنحة من نور . فللّحم والدم في كل زمان ومكان مغاور سحيقة تتزاوج في ظلماتها الملذّات فتَنْسل اوجاعاً . وللروح اجواء فسيحة يرودها الفكر والخيال فيضرمان الشوق الى الانعتاق من الوجع . والعبقريّ مَن استطاع ان يسبر الأغوار ويجوب الأعالي وان يعود من تلك وهذه بصورة الانسان الأمثل وهدفه الأسنى ، ألا وهو الحياة التي لا تأخذها سِنة الموت ، ولا تكبّلها قيود اللحم والدم ، ولا تحصرها حدود الزمان والمكان . وجبران كان ذلك العبقري .

في آخر كتاب «دمعة وابتسامة» مقال عنوانه «صوت الشاعر» يتكلم فيه جبران بلسان الشاعر فيقول في جملة ما يقول :

« جئت لأقول كلمة ، وسأقولها . واذا ارجعني الموت قبل ان الفظها يقولها الغد . فالغد لا يترك سرّاً مكنوناً في كتاب اللانهاية . »

وهو يختم المقال بالعبارة التالية :

« والذي اقوله الآن بلسانٍ واحدٍ يقوله الآتي بألسنة عديدة . »

كان ذلك في عام ١٩١٤ . وعاش جبران من بعدها حتى ربيع ١٩٣١ ، فساح سياحات بعيدة في دنيا التأمّل والتبحّر والخيال وتحدّث عن سياحاته بريشته البليغة وقلمه الحسّاس فرسم الكثير وألّف الكثير . ولكنه ارتحل عن هذه الفانية وفي ريشته خطوط والوان لم تنسجم في رسوم ، وبين شفّتي قلبه انغام وافكار لم تنتظم في مقاطع . واغلب الظن انه لو سُئل قبيل ان بلغت روحه التراقي « هل قلت كلمتك يا جبران ؟ » لأجاب : « لفظت منها مقاطع . ان الكلمة الكاملة فما قلتها بعد . » ذلك لانه كان يريدها كلمة شاملة كالحقيقة الازلية التي كان ينشدها بقلبه ، شاسعة كالمدى اللامتناهي الذي كان يحسه بروحه ، رائعة كالجمال الساحر الذي كان يلمحه بخياله . وتلك ، لعمري ، هي حرقة العبقرية في كل زمان ومكان . فالفنون التي ابتدعها الانسان حتى اليوم للتعبير عن هواجس النفس لا تزال اضيق من ان تتسع لكل ومضة خيال ، ونبضة شوق ، ورفّة حنين ولحظة من تلك النشوة العلوية التي يحسّها مَن لمح سناء الحق ولو لمحة عابرة . ونحن اذ نلجأ اليها انما نحتال على أنفسنا فنخدّرها بجمال الرمز عن جمال المرموز اليه ، ونعيضها من الصورة الكاملة ملامحَ من صورة ناقصة ، ومن النغم الامثل نبرات حلوة من انغام متقطعة .

لئن فات جبران ، كما فات غيره من الشعراء والمفكرين والمصلحين ان يقول الكلمة « الكاملة » فلم يفته ان يقول الكلمة التي وضعتها الحياة على لسانه وبين شفتيه وفسحت له من العمر المدى الكافي لقولها

ولقد قالها عالية ، صافية ، جريئة ، بعيدة القرار . وهذه « الكلمة » إن تسألني اين تجدها في مؤلفات جبران اجبك بأنك لن تجدها في هذا الكتاب او في ذلك ، ولا في هذه المقطوعة او هاتيك . بل عليك ، اذا شئت ان تعرفها ، بمطالعة كل ما كتبه جبران من « الموسيقى » حتى « التائه » . فحياته واعماله ، مثل حياة اي انسان واعماله ، وحدة لا تتجزأ . وهي كالحلقة يتّصل اولها بآخرها . ومن ثم فالارث الذي تركه لنا جبران إرث غنيّ . فجدير بنا ان نستمتع به كاملاً ، لا بهذا البعض منه دون ذلك .

لقد صدق جبران اذ قال : « والذي اقوله الآن بلسان واحد يقوله الآتي بألسنة عديدة . » فها هم قرّاؤه اليوم اضعاف قرائه يوم ان كتب ذلك المقال منذ خمسة وثلاثين من الاعوام . وهم في ازدياد مطّرد عاماً بعد عام . وهم تحت كل كوكب ومن شتى الاجناس واللّغات . فمن حقّه علينا ، بل من حق انفسنا علينا ، ان نصون الارث الذي خلّفه لنا من عبث العابثين ومن جشع المستثمرين .

ثمانية واربعون عاماً اولها في بشرّي – لبنان – وآخرها في نيويورك من الولايات المتحدة الاميركية : من ١٨٨٣ الى ١٩٣١ – تلك هي الفسحة التي اتاحتها الاقدار لجبران ليقول فيها كلمته . وجبران الذي كان يؤمن اوثق الايمان بالتقمّص ما كان يحسب ولادته في شمالي لبنان مصادفةً عمياء . بل كان يعتقدها نتيجة لازمة لحياة سابقة . ففي تلك البقعة الغنية بفاتنها الطبيعية وذكرياتها الدينية ثروة من الجمال الذي لم يكن بدّ لعين جبران من ان تكتحل به ولروحه من

ان تستحمّ في بهائه . وقد اغترف جبران من تلك الثروة في صباه قبل ان يهجر لبنان الى بوسطن سنة ١٨٩٤ ، ثم في شبابه يوم عاد ليدرس في مدرسة الحكمة البيروتية بين ١٨٩٦ و ١٩٠١ ؛ واغترف ما يكفيه مؤونة العمر . ثم راح ينثر بقلمه وبريشته ما اغترفه من ذلك الجمال ؛ وينثره بلباقة الفنّان الأمين لفنّه وسخاء الشاعر المثقل بالشعور . فأنت تشمّ طيوب لبنان، وتستشعر سحر اعاليه واغواره، وتحسّ جماله وجلاله في كل ما تقرأه لمؤلف « النبي » .

من بواكير قلم جبران مقال في الموسيقى اصدره عام ١٩٠٥ في نيويورك في شكل كتيّب فكان الحلقة الاولى في سلسلة مؤلفاته التي اختتمها بكتابه الانكليزي « التائه » المنشور بعد وفاته . وانت اذ تطالع « الموسيقى » يستوقفك فيها اول ما يستوقفك نمط في الكتابة يتميّز بسهولة التعبير ، وحلاوة التلوين ، ولطافة الوقع ، وصدق النيّة ، وسلامة الذوق ، وعمق الاحساس ، والنزعة الى الابداع في الوصف والتشبيه . فهو يتنكّب المألوف من الجناس والمجاز ويحاول تحميل الكلمات من المعاني فوق ما تعوّدت حمله على ألسنة الكتّاب والشعراء مثلما يحاول تجريدها من التفاهة والفضول . فيقول لك – مثلاً – في الموسيقى انها « جسم من الحشاشة له روح من النفس ، وعقل من القلب . » او يقول : « والالحان في فضائي اشباح الذات الحقيقية او خيالات الشعائر الحية . » فيشبّه الالحان بالاشباح ، ويجعل للذات اشباحاً ، ويفصل بين الذات الحقة والذات الموهومة ، وبين المشاعر الحية والمشاعر الميتة ، ثم يجعل للمشاعر خيالات . ومن بعد ان

يمرّ مرّاً سريعاً بشتى الحالات التي توافقها الموسيقى ، ويأتي على مكانتها عند مختلف الشعوب، ويصف تأثير النهوند والصبا والرصد من الالحان العربية ، يختم المقال بما يشبه النشيد في تمجيد الموسيقى والموسيقيين من غربيين وشرقيين وينتهي عند هذا القرار :

« كبّر ايها الكون الأولى بثوا في سمائك انفسهم، وملأوا الهواء ارواحاً لطيفة، وعلّموا الانسان ان يرى بسمعه ويسمع بقلبه. آمين.»

وتلقي الكتيّب من يدك فلا تشعر انك اكتسبت شيئاً كنت تجهله من علم الموسيقى او فلسفتها . ولكنك تشعر انك شربت جرعة من خمرة بكر لو اتيح لها ان تتعتق لكانت اشهى مذاقاً وابعد فعلاً. وتشعر كذلك ان هذا الفتى الذي يكلمك غنيّ القلب ، عزيز النفس ، يكره التقليد ويحاول شق طريق جديد. ولكنّ عدّته لمّا تكتمل بعد.

***

ويمضي عام وبعض العام فيطلع جبران على العالم العربي بكتيّب اكبر حجماً وابعد مدى من «الموسيقى» وقد اسماه «عرائس المروج» وضمّنه قصصاً ثلاثاً: «رماد الاجيال والنار الخالدة» و «مرتا البانيّة» و « يوحنا المجنون » . اما الأولى فحكاية عاشقين عاشا في سنة ١١٦ قبل الميلاد وكان احدهما كاهناً في هياكل بعلبك يوم كانت في ذروة مجدها وجمالها . فما لبث الموت ان اختطف من الكاهن معشوقته وتركه « تائهاً في البرية البعيدة هائماً مع اسراب الغزلان . »

« ولكن الاجيال التي تمرّ وتسحق اعمال الانسان لا تفني احلامه، ولا تضعف عواطفه » على حدّ قول جبران . « فالاحلام والعواطف

تبقى ببقاء الروح الكلي الخالد. وقد تتوارى حيناً وتهجع آونة متشبهة بالشمس عند مجيء الليل وبالقمر عند مجيء الصباح . »

لذلك يعود العاشقان الى الأرض في ربيع سنة ١٨٩٠ للميلاد ، ويعودان الى بعلبك عينها وقد امست هيا كلها طلولاً . ولكنهما يعودان في زيّ فتى يرعى الاغنام وفتاة قروية عارية القدمين تحمل جرّتها على كتفها لتملأها من الجدول ، فتقول الفتاة لفتاها :

« قد اعادت عشتروت روحينا الى هذه الحياة كيلا نحترم ملذّات الحبّ ومجد الشبيبة يا حبيبي ! »

ويتعانق الحبيبان ويسكران بخمرة القبل وينام « كلّ منهما ملتفاً بذراعي الآخر الى ان مال الظلّ وايقظتهما حرارة الشمس . »

انه لمن التسامح الكلي ان ندعو مثل هذه التخيُّلات قصّة . فغاية جبران منها ما كانت الاّ التدليل على عقيدة تناسخ الأرواح التي اتصلت اليه إما عن طريق المطالعة وإما من افواه بعض معارفه . والعقيدة أقدم من ان نحدد لها بداية . ولكنها ، كما عنّ لجبران تصويرها في هذه « القصة » ، أتاحت لقلمه فرصة نادرة يفلت فيها من قيود العرف والتقليد ويمضي يتغنى بالحب وسحره وجبروته وجماله ، ويناجي الآلهة ، ويتغزّل بمحاسن الطبيعة ، ويتغلغل في المفاوز القائمة بين ما ندعوه روحاً وبين ما ندعوه مادّة ، ويروي عطشه الى الانغام العذبة ، والالوان الرقراقة والتشابيه المبتكرة .

في الموسيقى نشعر ان الذي يخاطبك فتى في صوته وعود كثيرة

وفي يديه ثمار لم تنضج بعد . اما في « رماد الأجيال » فتشعر ان ذلك الفتى قد برّ ببعض وعوده وان بعض الثمار التي في يديه اصبح صالحاً للأكل . وحسبك منه طائفة من التعابير الجديدة والتشابيه المبتكرة امثال قوله : « في تلك الساعة المملوءة بسحر الهدوء ، الموحّدة بين ارواح النيام واحلام اللانهاية . » او قوله : « ووشحت تمثال المعبودة بنقاب لطيف يشبه برقع الاماني المحيط بالقلب البشري . » او قوله : « ومات قلبي في داخلي والتهبت دموعي في عينيّ . » ثم حسبك منه وهو ما يزال دون الخامسة والعشرين من عمره يحدثك حديث المتصوفين عن « المجاعة الروحية » وعن « الذات المقتبسة والذات المعنوية الخفيّة المفعمة بالاحلام ، المترفعة عن شرائع الانسان وتعاليمه » وعن « ذلك الحبّ الذي نسمعه متكلماً عندما تخرس ألسنة الحياة ونراه منتصباً كعمود النور عندما تحجب الظلمة كل الأشياء . »

كان فنُّ القصة في الأوج عند الفرنجة وجنيناً عندنا ايام انبرى له جبران . ولكنّ الحياة ما اعدّته لذلك الفنّ فلم يبدع فيه ولم يحلّق ، وأعدته لفنون اخرى فأبدع فيها وحلّق . فقد كانت تسيطر عليه طبيعتان متفوقتان : طبيعة الفنان الوجداني المرهف الحسّ والشعور ، وطبيعة المرشد والمصلح والواعظ . فالاوّل لا ينفك ينسج عالمه من نفسه نظير ما تنسج دودة القز فيلجتها من خيوط في احشائها . فاذا راح يعالج عالـَماً غير عالمه اعوزته المقدرة على حبك الحوادث وتصوير الاشخاص والحالات حبكاً وتصويراً يتناسبان مع الواقع المحسوس حتى وان كانت الغاية التي يهدف اليها فوق الحسّ وابعد من الواقع .

والثاني دأبه التفتيش عن مواطن الضعف والوجع في الناس، حتى اذا
وقع عليها انطلق يندّد ويبكّت ويؤنّب وقد ينتهي بأن يصف ما
يعتقده الدواء الأوحد والأنجع . وجبران في قصصه يخلق حالات
واشخاصاً تنقصهم ابداً دقة الحبك ، والتصوير الواقعي . ولا غرض له
من خلقهم الاّ ان يجعل منهم مطايا لقلمه ليفتنّ ما شاء له الفنّ في
وصف الطبيعة وشتى المشاعر البشرية ، وعلى الأخص تلك التي يغلب
فيها التوجع والتفجع والتأسّي ، وإلاّ ليلقي المواعظ الجميلة في قساوة
الناس وقذارتهم وخنوعهم وفي جمال الحب والحق والحرية وما اليها .

هكذا تراه في « مرتا البانيّة » يصور لك فتاة قروية فقيرة الحال،
طاهرة القلب والجسد ، يغويها رجل من المدينة فتحمل منه وتلد غلاماً
ثم ينبذها وطفلها فترميها الحاجة في احضان الدعارة . ويهتدي اليها
المؤلف وهي على فراش الموت فيدور بينهما حديث طويل . واليك
فقرات منه :

يقول جبران معزّياً :

« ان ادران الجسد لا تلامس النفس النقية ، والثلوج المتراكمة لا
تميت البذور الحية . وما هذه الحياة سوى بيدر أحزان تُدرس عليه
أغمار النفوس قبل ان تعطي غلّتها . ولكن ويل للسنابل المتروكة
خارج البيدر . . . النفس يا مرتا حلقة ذهبية مفروطة من سلسلة
الالوهية . . . اي يا مرتا ، انت زهرة مسحوقة تحت اقدام الحيوان
المختبىء في الهياكل البشرية . . . تعزّي يا مرتا بكونك زهرة
مسحوقة ولست قدماً ساحقة » الخ .

فتجيب مرتا المحتضرة :

« نعم . انا مظلومة . انا شهيدة الحيوان المختبىء في الانسان . انا زهرة مسحوقة تحت الأقدام . . . ايها العدل الخفيّ، الكامن وراء هذه الصور المخيفة ، انت ، انت السامع عويل نفسي المودّعة ونداء قلبي المتهامن . منك وحدك اطلب واليك اتضرّع ، فارحمني وارعَ بيمناك ولدي ، وتسلّم بيسراك روحي . »

ان في ما يقوله المؤلف لمرتا وفي ما تقوله مرتا للمؤلف لكثيراً من حلاوة التعبير ، وطلاوة التصوير ، وسموّ التفكير . ولكنك تخرج منه وفي مخيلتك صورة لمرتا رسمتها انت ولم يرسمها لك المؤلف . وفي وجدانك مشاعر ايقظتها تخيّلاتك ولم يوقظها الكاتب بتشابك الحوادث التي خلقها ولا بدخوله الى قلب تلك الحوادث ، ولا بلباقته في تسيير الحوار بحيث يكشف لك الستائر عمّا في ضمائر المتحاورين وفي قلوبهم.

كذلك هي حالك مع جبران في قصته « يوحنا المجنون » . فهو من بعد ان يوقظ فيك الشفقة على بطل القصة والتقزز من فظاظة الرهبان الذين حبسوا عليه عجوله لانها ارتعت القليل من زرع الدير ، يعود فيجعل من ذلك الفتى القرويّ الساذج خطيباً ولا ديموسثين أو شيشرون . فاسمعه يخطب في الجماهير المحتشدة في حفلة تكريس كنيسة جديدة مناجياً يسوع الناصري :

« انظر يا يسوع الناصري الجالس في قلب دائرة النور الأعلى . . . انظر ايها الراعي الصالح ، فقد نهشت مخالب الوحوش ضلوع الحمل الضعيف الذي حملته على منكبيك . . . ان صراخ البائسين المتصاعد

من جوانب هذه الظلمة لا يسمعه الجالسون باسمك على العروش ، ونواح المحزونين لا تعيه آذان المتكلمين بتعاليمك فوق المنابر . . . تعالَ ثانية يا يسوع الحي واطرد باعة الدين من هياكلك . فقد جعلوها مغاور تتلوى فيها افاعي روغهم واحتيالهم . » الخ .

***

كان من الطبيعي لجبران المفطور على الصدق والرفق واللين ، المؤمن بكرامة الانسان وألوهية عنصره ، ان يصطدم في بدء تفتّحه الفنيّ والروحي اصطداماً عنيفاً مؤلماً بخشونة الواقع ورياء الحياة البشرية المكبّلة بالتقاليد والشرائع . وكان من الطبيعي لذلك الفتى الطامح الى الانطلاق ، الشاعر بوفرة المواهب المتغلّفة في كيانه ، ان يجرّد كل ما لديه من سلاح وعتاد فيخوض المعركة واثقاً من انه سيصرع التنين في النهاية . فما كان يعرف ان ذلك التنين لن يُصرع حتى تُصرع الاجساد والارواح التي تغذيه بلحومها واحلامها – ايْ حتى تُصرع البشرية المذعورة من الجوع ومن نار جهنّم . فلبنان في ذلك الزمان – مثله في هذا الزمان – كانت تسوده اقطاعيتان : سياسية ودينية . فلا عجب ان اتخذ جبران من تينك الاقطاعيتين اهمّ المواضيع للقصص التي صنّفها قبل ان اكتملت عدّته الفنية والفكرية. ومواضيعه تكاد تنحصر في اثنين : جور التقاليد البشرية في ما حلّلته وحرّمته من العلائق بين المرأة والرجل . وجور الحكام المدنيين والدينيين في علاقتهم مع الجماهير التي ندعوها الشعب .

لعلّ احب الناس الى قلب جبران هو ابن الفطرة وابن الطبيعة أكان راعي أبقار، ام كان حرّاثاً ام عاملاً لا سلاح في يده غير المعول.

ولعلّ ابغض الناس اليه هم الذين يتظامون ابناء الفطرة والطبيعة ، فيهضمون حقوقهم ويمتهنون كرامة الانسان فيهم ، ويقدّمون اليهم السمّ في الدسم . فهو ما صوّر في كل ما صوّر راعياً قبيحاً ، او فلاّحاً خسيساً ، او عاملاً شريراً . ولا صوّر حاكماً عادلاً ، او كاهناً تقياً ، او راهباً في قلبه شيء من الايمان والشفقة . ولا صوّر زوجين متجانسين متحابين هانئين . وذلك ما يمسح كل قصصه بتلك المسحة من التصنّع او قلّة النضج والخبرة العالمية ، التي تجعلها بعيدة عن صميم الحياة كما يحياها الناس في كل يوم .

في عام ١٩٠٨ صدر لجبران في نيويورك كتاب «الارواح المتمردة». وقد نشرته ، كما نشرت سالفه ، جريدة « المهاجر » لصاحبها امين الغريّب ، وفي صدره التقدمة التالية :

« الى الروح التي عانقت روحي . الى القلب الذي سكب اسراره في قلبي . الى اليد التي اوقدت شعلة عواطفي ارفع هذا الكتاب . »

بين « عرائس المروج » وبين « الارواح المتمردة » فسحة جدّ قصيرة من حيث الزمان . ولكن بينهما ، وإن تشابهت المواضيع والمرامي ، بوناً شاسعاً من حيث المعالجة والاداء . فالديباجة اكثر اشراقاً تتلمع في ثناياها جواهر من التشابيه والاستعارات المبتكرة ، واللغة امتن سبكاً وارحب صدراً ، والحجة اقوى حبكاً وابعد اثراً ، والفكر اصفى ينبوعاً وأسرع جرياً ، والجرس ألطف وقعاً واشجى لحناً . لقد كان جبران الشاعر وجبران الرسّام وجبران المفكّر في سباق مع الزمان .

وكتاب « الارواح المتمردة » كما يدلّ عنوانه – يحدّث عن ارواح تمردت على التقاليد والشرائع القاسية التي تحدّ من حرية الفكر والقلب والتي تسمح لحفنة من الآدميين ان تتحكم في ارزاق الناس وعواطفهم واعناقهم باسم القانون وباسم الدين . وجبران يفتتح الكتاب بحكاية « السيدة وردة » ، فيصوّرها امرأة بعيدة الفكر ، صادقة القلب ، جميلة الوجه ، نبيلة الروح ، وقد شاء لها اهلها يوم كانت لا تفقه بعد معنى الزواج ان تكون زوجاً لرجل وجيه غنيّ يفوقها سنّاً بكثير . فما لبثت ان كرهته اذ تفتّح الحب في قلبها عندما التقت الشاب الذي اثار كوامن نفسها مثلما اثارت كوامن نفسه . فهجرت زوجها والتحقت بحبيبها غير مبالية بلواذع النقد ، وبالقطيعة الاجتماعية، وبشماتة الناس الذين « لا يمكنهم ان يدركوا كنه أوجاع المرأة عندما تقف نفسها بين رجل تحبه بإرادة السماء ، ورجل تلتصق به بشريعة الأرض . » وهي راضية بأن تكون منفية من الهيئة الاجتماعية «لأن البشر لا ينفون إلاّ مَن تمردت روحه الكبيرة على الظلم والجور.»

قد تصلح حكاية « السيدة وردة » لأن تكون نواة قوية لأطروحة في مظالم التقاليد الزوجية . أمّا ان ندعوها قصة ، واما ان نفتش فيها عن باب الخلاص من تلك المظالم ، فمن قبيل تحميل المفردات فوق ما تستطيع حمله. فالقصة من اولها الى آخرها شكوى امرأة مظلومة. ولكنها شكوى بليغة ومؤثرة بما أودعها فنُّ جبران وحماسته واندفاعه من جمال وقوّة واخلاص .

كذلك قل في « صراخ القبور » فهي حكاية ثلاثة حكم عليهم

الامير بالقتل من غير ان يسألهم سؤالاً ومن غير ان يسمع شهادة شاهد في قضاياهم . اولهم شاب اتُهم بقتل ضابط . ولكنه قتل دفاعاً عن عرضه وشرفه . وثانيهم فتاة اتهمها زوجها بالخيانة . ولكنها في الواقع ما خانته ، بل لم تكن تحبه لانها ارتبطت به قسر ارادتها . وكانت تحب سواه . وقد فوجئت في خلوة مع حبيبها فاتُهمت بالخيانة وحكم عليها بالرجم . وثالثهم شيخ اتهموه بسرقة بعض الاواني الذهبية من كنيسة الدير . ولكنه في الواقع ما سرق غير زنبيل من الدقيق لانه كان يتضوّر واولاده جوعاً من بعد ان طرده الدير من خدمته . إلاّ ان جبران ما رتّب الحوادث والاشخاص ذلك الترتيب القلق ليجاري الواقع بل ليخلق لقلمه جوّاً يستطيع ان يسرح فيه على هواه ، فيصف ما طاب له الوصف ويندّد ما لذّ له التنديد . كان يقول ، مثلاً :

« الشريعة . وما هي الشريعة ؟ مَن رآها نازلة مع نور الشمس من اعماق السماء ؟ واي بشريّ رأى قلب الله فعلم مشيئته في البشر ؟ وفي اي جيل من الاجيال سار الملائكة بين الناس قائلين : احرموا الضعفاء نور الحياة وافنوا الساقطين بحدّ السيف ودوسوا الخطاة بأقدام من حديد ؟ » ومعنى ذلك ان على الناس ان لا يتقيدوا بشرع غير شرع الغريزة .

وفي « مضجع العروس » التي يقول المؤلف انها « حادثة جرت في شمالي لبنان » يعود جبران الى عين الوتر الذي نقر عليه في جميع حكاياته السابقة : وتر الزواج الكرهي وجور الحكام والرهبان .

فهناك فتـاة وفتى يتعشق واحدهما الآخر . ولكن الفتاة تُزَفّ الى رجل لا تربطها به اقل عاطفة وذلك من بعد ان وشى لهـا الوشاة ان حبيبها هام بغيرها . وفي ليلة زفافها ، والناس في هرج ومرج ، تبصر حبيبها بين الجماهير فترسل اليـه من يدعوه لمقابلتهـا خلسة في حديقة البيت . ويجتمع الحبيبان فيعلن الفتى ، ضنًّا بكرامة حبيبته وسمعتها ، انه مال عنهـا الى سواها . ولكنهـا لا تصدّقه . واذ يصرُّ على قوله تستلُّ خنجراً وتطعنه . وعندئذٍ ، وهو بين يدي الموت ، يبوح لهـا من جديد بحبّـه ويلفظ انحابه . فتدعو الناس بأعلى صوتها الى « عرسها الحقيقي». وفوق جثة العريس تلقي خطبة رائعة في جمال الحب وقساوة التقاليد التي تحاول حصره وخنقه . فتقول للنـاس : « انتم لا تفهمون كلامي لأن اللجة لا تعي اغاني الكواكب . » ثم تخاطب الرجل الذي زُفّت اليه برغم انفها فتقول له :

«وانت ايها الرجل الغبي الذي استخدم الحيلة والمال والجبانة ليصيّـرني له زوجة — انت رمز هذه الأمة التعيسة التي تبحث عن النور في الظلمة وتترقب خروج الماء من الصخرة وظهور الورد من القطرب . »

ثم هي تغمد الخنجر في صدرها ولا تنقطع عن الكلام حتى ينقطع قلبها عن النبض . وتنتهي القصة بحملة عنيفة على الكاهن ، الذي رفض الصلاة على المنتحرَين مهدداً باللعنة كل من يجسر على لمسهمـا . ولكن فتاة « متمردة » هبّت للكاهن تعنّفه وتتحداه : « انا ابقى ههنا ايهـا الكافر الأعمى ، وانا احرسهما حتى يجيء الفجر ، وانا احفر لهما قبراً تحت هذه الأغصان المتدلية . »

اما « خليل الكافر » فيكاد يكون « بروفا » ثانية عن « يوحنا المجنون » مع بعض التبديل في الظروف والاسماء والاشخاص . فهو كذلك في خصام مع الرهابين . وهو يلقي محاضرة طويلة في مظالم الحكام والاديار تليق بأقوى الثوار شكيمة ، واكثرهم حرارة ، وأشدّهم حماسة . واين يلقيها ؟ بين يدي الحاكم الظالم المدعوّ للحكم عليه وامام الكاهن الذي جاء يشكوه الى الحاكم ! وهو يختم محاضرته المؤثرة بمناجاة شعرية الى الحرية :

« من منبع النيل الى مصب الفرات . . . من اطراف الجزيرة الى جبهة لبنان . . . ومن شاطىء الخليج الى أذيال الصحراء ترتفع نحوك الاعين مغمورة بذوبان الأفئدة . فالتفتي ايتها الحرية وانظرينا . . . اسمعينا ايتها الحرية . ارحمينا يا ابنة اثينا . انقذينا يا اخت رومة . خلصينا يا رفيقة موسى . اسعفينا يا حبيبة اشعيا . علمينا يا عروسة يوحنا . قوّي قلوبنا لنحيا او شدّدي سواعد اعدائنا علينا فنفنى وننقرض ونرتاح . . . » الخ .

***

احبّ جبران موطنه الصغير حبّاً يقارب الهيام. ففي جبال لبنان التي لا نظير لها بين الجبال تفتحت عبقريته . ومن ألوان أغساقها الحالمة وأسحارها الساحرة استمدت ألوان الهامها . فلا عجب ان يتغنى جبران اول ما يتغنى بمفاتن لبنان ، وان يحسّ اوجاعه في كل نبضة من نبضات قلبه الحساس، وان ينتفض وجدانه السليم انتفاضة الألم العميق لكل مشهد من مشاهد الذل والظلم والرياء في هذه البقعة التي احبها

الى اقصى حدود المحبة وكان يودّها طاهرة من كل شيء الا من الكرامة والعدل والجمال والمحبة .

ولذلك كانت كلّ بواكيره من وحي لبنان . فمن «الموسيقى» الى «عرائس المروج» الى «الارواح المتمردة» الى «الاجنحة المتكسرة» يمضي جبران يعرض عليك صوراً لبنانية ، ووجوهاً لبنانية ، واصواتاً لبنانية . ثم ينصرف عن موطنه الاصغر الى موطنه الاكبر – الى العالم – ولكنه يعود بك بين الحين والحين الى لبنان . فتسمعه يصرخ بعد اعوام «لكم لبنانكم ولي لبناني» او يخاطبك بلسان يوسف الفخري في «العاصفة» او يناجي اخاه الاكبر ومعلمه الاعظم يسوع الناصري بصوت «شاعر من لبنان» .

في «الاجنحة المتكسرة» التي صدرت في نيويورك من بعد «الارواح المتمردة» بأربع سنوات يروي جبران رواية حبّه الأول يوم كان ما يزال طالباً في بيروت، ويرويها بأسلوب شعريّ، وجداني، مشبع بروح التقديس للحب وكل ما يبعثه في النفس من غبطة سماوية وآلام لا تطاق . وجبران اذا ما تغنّى بآمال القلب البشري وآلامه اسمعك من الالحان اشجاها واراك من الالوان ابهاها . فكيف به يتغنى بحبه الاول وبجمال الفتاة التي ايقظته في قلبه ؟

لقد حاول جبران في «الاجنحة المتكسرة» ان يكتب اكثر من قصة – حاول ان يكتب «رواية» ، الاّ انه ما استطاع ان يخرج في محاولته هذه عن نطاق محاولاته السابقة . فهنا كذلك قلبان متحابّان تحول دون اتحادهما التقاليد الاجتماعية وسلطة رجل من رجال الدين

ولكن في ظروف تترك القارىء في حيرة لا في نقمة على التقاليد ورجال الدين . فقد كان في مستطاع الحبيبين بقليل من عناد المحبين وايمانهم بقدسية الحب ان يتغلبا على العقبات التافهة التي قامت في سبيل اتحادهما . ولكنهما آثرا الرضوخ « للأمر الواقع » على العناد ، وآثرا الشكوى والتفجع والنواح على الوقوف بجانب حقهما في الحياة .

سلمى كرامه فتاة في مستهل الشباب « وليس بين النساء من يماثلها رقة وجمالاً » . وهي وحيدة والدها الايم الذي يحبها حتى العبادة والذي تفرد بأخلاقه بين الرجال اذ « جعلته الثروة فاضلاً والفضيلة مثرياً » . وهو صديق قديم لوالد جبران ، وصداقته للوالد جلبت الولد الى بيته حيث عرف سلمى فتمكن الحب بين قلبه وقلبها من اللحظة الأولى . وباح كل من الحبيبين بوجده لرفيقه . الا ان المطران طلب سلمى لابن اخيه . فما كان من الوالد الا ان اجاب بالايجاب من غير ان يستشير ابنته بكلمة . ولا كان من الابنة الا ان اجابت والدها بـ « نعم » من غير ان تأخذ رأي حبيبها في الأمر .

وكان زواج ، وكان شقاء ، وكانت مأساة ملؤها التفجع والتوجع وتبادل الشكوى الشعرية والفلسفية بين الحبيبين اللذين راحا يجتمعان خلسة في هيكل مهجور لعشتروت . ثم قضى الوالد المستسلم استسلاماً اعمى لمشيئة المطران . والعجيب انه ، وهو على فراش الموت ، ما تورع عن ان يوصي ابنته :

« لا تدعوا كاهناً الى جانب فراشي لأن تعازيمه لا تكفر عن

ذنوبي ان كنت خاطئاً ولا تسرع بي الى الجنة ان كنت باراً . »

وخشيت سلمى على حبيبها من ان يدري الناس بما بينها وبينه فيسلقوه بألسنتهم . ولذلك اعتزمت ان تضحي « بالمحبة المحدودة » في سبيل « المحبة غير المحدودة » فتقلع عن زياراتها السرية للهيكل المهجور .

وحملت سلمى بعد عقم ووضعت غلاماً عند الفجر ما لبث ان قضى نحبه عند شروق الشمس وما لبثت امه ان التحقت به .

ان في هذه القصة – مثلما في كل قصص جبران – شحوباً مردّه الى طغيان الحديث فيها على الحركة ، والخيال على الواقع . وهذا الشحوب هو في آن معاً مصدر الضعف والقوة فيها . ففي الحديث بريق من الفنّ والفلسفة ينسيك ما فيه من تصنّع ويعوّض عن قلّة الحركة الى حدّ بعيد . وفي الخيال نواتىء عالية من الجمال تكفّر عن استهتاره بالواقع . ومن ثم فجبران ما دان يوماً بقوة الواقع وحقيقته . ودان كل حياته بحقيقة الخيال وسلطانه .

من بعد « الاجنحة المتكسرة » هجر جبران القصة فما عاد اليها الا نادراً . وانصرف الى المقطوعة من نوع « الشعر المنثور » والى المثل والموعظة . وهذه حلّق فيها بعيداً . فقد كانت الأقرب الى ذوقه ومزاجه وفطرته الفنيّة من كل ما عداها من ضروب الأدب .

***

بين ١٩٠٣ و ١٩٠٨ اخذ جبران ينشر في جريدة « المهاجر » مقالات من الشعر المنثور تحت عنوان « دمعة وابتسامة » وهذه

المقالات هي التي جمعت عام ١٩١٤ ونشرت في كتاب بعين العنوان. وكان الفضل في نشرها لنسيب عريضه .

يضمُّ الكتاب بين دفّتيه نحواً من ٦٠ مقطوعة ينثر فيها جبران نتفاً فيّاضة من قلبه، وشرارات وهّاجة من فكره، والواناً موّاجة من خياله. وينثرها بقلمٍ ناعم، صادق، سخيّ يحاول في الكثير من نبراته محاكاة مزامير داود ونشيد سليمان وسفر ايوب ومراثي ارميا وتخيّلات اشعيا وعظات الناصري . ولا عجب فقد كان للتوراة في نصّيها العربي والانكليزي ابعد الاثر على الاسلوب الذي اختاره جبران لنَفسه فتفرّد به بين كتّاب العرب وكتّاب الانكليز، ولم يسبقه اليه عند الفرنجة غير نيتشه. وانت اذ تطالع «دمعة وابتسامة» تكاد تطالع فيه تاريخ قلب جبران وفكره وتاريخ حياته حتى عام ١٩٠٨ . فالمواجس والعواطف التي اثارتها فيه سنواتٌ صرفها في بيروت، وسنوات في باريس زار في خلالها اهمّ العواصم الاوروبية؛ ومطالعاته الدائمة في الآداب الغربية والشرقية؛ والرزايا التي نزلت به اذ اختطف السلّ اخاه من امّه، ثم شقيقته الصغرى من امّه وابيه، ثم امّه؛ واذ احترقت رسومه باحتراق البناية التي كانت معروضة فيها، — كل ذلك وما يثيره من تأملات في الحياة وشؤونها تبصر له آثاراً بارزة في الكتاب. وابرزها واجملها على الاطلاق ما جاء في مقاله الشجيّ البديع «يوم مولدي»، فهو القمّة في الكتاب وما عداه تلال .

ومن ثم فجبران اذ يقدّم اليك في كتابه هذا اكواباً طافحة

بمرارة الكآبة والوحشة وأخرى مترعة بخمور الحبّ والأمل يقدّم
اليك كذلك بذوراً من ذلك الايمان المبصر الذي ما برح ينير سبيله
ويوجه خطاه الى ان بلغ به واحة الاستقرار الروحي — تلك الواحة
التي كان ينشدها كل حياته والتي ادركها ووصف لك معالمها ومفاتنها
في كتابه « النبي » ، ففي الكثير من مقطوعات « دمعة وابتسامة »
تلتمع امامك أقباس من الحقيقة التي صاغ منها جبران فيما بعد مواعظ
نبيّه . وهي حقيقة المحبة التي تشدُّ الاكوان بعضها الى بعض، وتجعل
للحياة معنى شاملاً يتسامى فوق كل المقادير والمقاييس البشرية ، وتقيم
للانسان وزناً يضيق به الزمان والمكان . فما أكثر ما يجيء جبران
على ذكر المحبة . وما أكثر ما يمجد الانسان . وان هو تبرّم بما في
حياة الناس من خساسة وقباحة وجهل وظلم فما كان ذلك يعميه عن
حكمة الحياة الشاملة وعدلها وعن الوهية الانسان . فهو يقول في
« القوة العمياء » وهي مقطوعة اوحاها اليه زلزال سان فرانسيسكو:

« إنّ من وراء الكائنات حكمة سرمدية تبتدع من كوارث
ونوازل نراها محاسن نتائج لا نراها . » ثم يختتم المقطوعة بهذه الكلمات
البعيدة الغور والقرار :

« على انني وجدت بين هذه النكبات المخيفة والرزايا الهائلة الوهية
الانسان واقفة كالجبّار تسخر بحماقة الارض وغضب العناصر ،
ومثل عمود نور منتصبة بين خرائب بابل ونينوى وتدمر وبمباي وسان
فرانسيسكو ترتّل انشودة الخلود قائلة: لتأخذ الأرض مالها . فلا نهاية لي. »

***

وننتقل بك الى قصيدة « المواكب » التي اصدرها جبران عام ١٩١٩ على نفقته الخاصة في حلّة انيقة وزيّنها بطائفة من الرسوم البديعة . فهي تمثل ناحية جديدة من بيان جبران المتعدد النواحي ، وهي المرة الأولى والاخيرة التي اختار جبران فيها ان يتقيد بالوزن والقافية لخلق عمل فنّي له شأنه . فقد سبق له ان نظم القليل من الشعر الموزون في حالات عاطفية طارئة . امّا في هذه القصيدة فيلجأ جبران الى فكره قبل قلبه وينبري يسوق اليك خواطر فلسفية في اهمّ شؤون الحياة البشرية كالخير والشر والدين والحق والعدل وغيرها.

في القصيدة تيّاران يجريان في اتجاهين متعاكسين . وليس من صلة بينهما الاّ التي يقيمها خيال الشاعر في وجدان القارىء . والقصيدة في تيّارها الأول من البحر البسيط ، وفي الثاني من مجزوء الرمل . والتياران يبدوان كما لو كانا حواراً بين شخصين . ولكنهما ليسا كذلك . بل جلّ ما في الأمر أنّ الأوّل يمثّل الحياة بظاهرها القبيح وباطنها الجميل . والثاني يمثلها وحدةً روحية لا باطن لها ولا ظاهر . الأول يتبرّم بما في الحياة البشرية من رياء وضعف وذلّ وقلق ونضال دائم ما بين الخير والشرّ. والثاني يمجّد الحياة في « الغاب » — حياة الفطرة والسليقة — حيث لا خير ولا شر بل استسلام كامل الى المشيئة العاقلة المدبّرة التي تتسامى فوق الشر والخير . ولعلّ ذلك ما حدا بكاتب المقدمة — نسيب عريضه — ان يتخيّل الصوت الأول صوت شيخ والثاني صوت شاب . امّا في الواقع فالصوتان ليسا سوى صدى النزاع الداخلي في نفس جبران ما بين ايمانه بفطرة الانسان

الالهية وبين ما كان يبصره في حياة الناس من بشاعة ووجع وتشويش. يفتتح الصوت الأول القصيدة بأبيات في الخير والشر ثم ينتقل بك الى الحياة فالدين فالعدل فالحق فالعلم فالحرية فاللطف فالظرف فالحبّ فالجنون فالسعادة فالروح والجسد فالموت . وهذه كلها يجول فيها جولات طويلة او قصيرة تتشابه في رزانة النبرة وفي السعي وراء الجديد والجليل في المعنى، وتتفاوت في حظوظها من الوضوح والغموض ومن انسجام المعاني والمباني. ففي الكثير منها تحسُّ شيئاً من الأسف على فكرة واسعة يفرغها الشاعر في قالب ضيّق ، وعلى صورة بديعة تشوّهها قافية دميمة . وتحسُّ فوق ذلك ان جبران يجهد نفسه كثيراً ليروّض اللغة والوزن والقافية ويحاول ان يخفي اجهاده . ولكن العياء لا يلبث أن يبدو عليه . الا انه ، حيثما حالفه التوفيق ، جاءَ بالنفائس وبالخمرة البكر . مثال ذلك قوله في الحياة :

« فالأرض خمّارة والدهر صاحبها
وليس يرضى بها غير الأولى سكروا »

وقوله في الحقّ :

« والحقُّ للعزم والأرواح ان قويت
سادت وان ضعفت حلّت بها الغيَر

. . . وفي الزرازير جبن وهي طائرة
وفي البزاة شموخ وهي تحتضر »

وقوله في الحرية :

« والحرّ في الأرض يبني من منازعه
سجناً له وهو لا يدري فيؤتَسر »

وقوله في الحبّ :

« والحبُّ إن قادت الاجسام موكبه
الى فراش من اللذات ينتحر
والحبُّ في الروح لا في الجسم نعرفه
كالخمر للوحي لا للسكر تنعصر »

وقوله في السعادة :

« وما السعادة في الدنيا سوى شبح
يُرجى فإن صار جسماً ملّه البشر »

امّا الصوت الثاني فتسمعه في نهاية كل جولة من جولات الصوت الأوّل . فإن تبرّم الأول بحزن او بعبودية او بجهل ، وإن تحدّث عن الحق والعدل والسعادة والموت والحياة وما اليها ، انبرى الثاني يقول ان « ليس في الغابات » شيء من ذلك . بل كل ما فيها ألفة وصفاء وهناء لا يشوبها شيء من التناقض القائم في أفكار الناس وقلوبهم من حيث علاقتهم بعضهم ببعض وبالكائنات من حواليهم . وهو جدّ ولوع بالنفخ في الناي الذي يتخذ من انغامه رمزاً للخلود . لذلك لا ينفكُّ يطلبه في آخر كل نشيد من أناشيده . فيقول — مثلاً — في نشيده عن الخمر والسكر :

« ليس في الغابات سكر   من مدام أو خيال . . .

اعطني الناي وغنّ   فالغنا خير الشراب

وانين الناي يبقى   بعد ان تفنى المضاب »

وينتهي الصوت الثاني بنشيد جميل يخاطب فيه الصوت الأول فيقول في جملة ما يقول :

« هل تحمّمتَ بعطر   وتنشفت بنور

وشربتَ الفجر خمراً   في كؤوس من اثير ؟

. . . هل فرشت العشب ليلاً   وتلحّفت الفضا

زاهداً في ما سيأتي   ناسياً ما قد مضى

وسكون الليل بحرٌ   موجه في مسمعك

وبصدر الليل قلبٌ   خافق في مضجعك ؟

اعطني النايَ وغنّ   وانسَ داءً ودواءْ

انما الناس سطور   كُتبت لكن بماءْ »

وإذَنْ هو الزهد في الدنيا — زهد العارف القادر لا زهد الجاهل الضعيف — كان يتوق اليه جبران فما يستطيع بلوغه . ولذلك على من تطوافه البعيد في الحياة وشؤونها بما يشبه الخيبة واليأس . فهو ينتهي بالقصيدة الى القرار التالي :

« العيش في الغاب والأيام لو نُظمت
في قبضتي لغدت في الغاب تنتثر

لكن هو الدهر في نفسي له أرب
فكلما رُمت غاباً راح يعتذر
وللتقادير سبل لا تغيّرها
والناس في عجزهم عن قصدهم قصروا »

وانك لتعجب لجبران الذي كان يؤلّه الانسان ويقول ان لا نهاية له ، كما رأيت في مؤلفاته السابقة وبخاصة في « دمعة وابتسامة » ، كيف يجري قلمه في يده فيخطُّ البيت الذي مرَّ بك :

« انما الناس سطور كُتبت لكن بماء »

وكيف ينتهي بك الى ذلك القرار من التشاؤم والاستسلام للأقدار وهو النافخ في بوق التمرد والعصيان ؟

ولكنّ اقوى الناس شكيمة ، وابعدهم هدفاً ، وأسماهم فكراً ، واصلبهم ايماناً ، تصدمهم حالات ماديّة وروحية صدمات عنيفة يميد لها كيانهم إلاّ انه لا ينهار . وجبران وان كتم عن الناس شكواه ، كان يلاقي الكثير من الضنك الماديّ والمعنويّ في عالم لاهٍ عن اللباب بالقشور ، وعن النور بالظلّ . واتفق ان اهتدى في تلك الاثناء الى فردريك نيتشه ، سيّد المتمردين والمتهكمين وحامل لواء الثورة على القِيَم الرثّة التي يدين بها الناس فوق كل دين . فانجرف بتيار نيتشه وما برحت معتقداته السابقة تشدُّه الى الوراء . فكانت « المواكب » نتيجة لتلك الحالة القلقة التي احسّها جبران ما بين قوّتين تتجاذبانه : قوّة الايمان بحكمة الحياة وعدلها وجمالها في كل ما تأتيه ، وقوّة

النقمة التي أثارها فيه نيتشه من جديد على ضعف الناس وخنوعهم
وتواكلهم وكل ما في حياتهم الباطنية والخارجية من قذارة وبشاعة
وانتصر نيتشه في النهاية . ولكن الى حين .

***

ثار جبران في بدء حياته الأدبية على الظلم الذي تجسّد له اول م
تجسّد في جور التقاليد والحكام وغطرسة رجال الدين في لبنان
وانتهت ثورته تلك برواية « الاجنحة المتكسرة » . وعقبتها فتر
قصيرة من التصوف والاستسلام ما لبث ان أفسدها عليه نيتشه بثورت
الجامحة الماصرة . فقد كان كتاب « هكذا تكلم زرادشت » في نظ
جبران « من اعظم ما عرفته كل العصور » .

وثار جبران مع نيتشه لا على الحكام والرهابين وحدهم ، بل على
جميع الناس وتقاليدهم ومقاييسهم وموازينهم ، وعلى الاسس الواهي
التي اقاموا عليها صرح حياتهم . فلا اديانهم ولا سياساتهم ولا فلسفاته
حررتهم من الخوف والذل والعبودية والمسكنة . بل انها على العكس
من ذلك ، مكنت في نفوسهم مخاوف ورذائل لا حصر لها ، اذ قضت
على الارادة الخلاّقة فيهم التي هي وحدها الكفيلة بأن تبلغ ب
الانسان الأمثل ، او الانسان المتفوّق ، او السوبرمان .

وانت ترى آثار هذه الثورة الجديدة ، وقد قاربت نهايتها ، في
يقوله الصوت الاول في « المواكب » . ولكنك تسمعها صارخة
صاخبة ، عنيفة في مقالات كتبها جبران قبل « المواكب » ثم جمع
وغيرها من المقالات واصدرها في كتاب اسماه « العواصف » ونشرها

ادارة « الهلال » في مصر عـام ١٩٢٠ . وابرز تلك المقالات واشدّها عنفاً « حفّار القبور » تساندها ، ولا تجاريها في العنف ، مقالات اخرى امثالها : « العبودية » و « يا بني امّي » و « نحن وانتم » و « أبناء الآلهة واحفاد القرود » و « الأضراس المسوّسة » و « العاصفة » .

في « حفار القبور » لا يجـد جبران له شغـلاً احب الى قلبـه من حفر القبور وإلحـاد الأموات . ومَن هم الأموات الذين يلحدهم ؟ هم جميع الناس الذين « يرتعشون امـام عاصفة الحياة فتظنهم احيـاء وهم أموات منذ الولادة . ولكنهم لم يجدوا مَن يدفنهم فظلّوا منطرحين فوق الثرى ورائحـة النتن تنبعث منهم » . ومَن الذي علـّم جـبران حفر القبور ودفن الموتى ؟ هو « الاله المجنون » المولود في كل مكان وزمان الذي اذ يسأله المؤلف عن شغله يجيبه : « في الصباح اجدّف على الشمس ، وعنـد الظهيرة ألعن البشر ، وفي المساء اسخر بالطبيعة ، وفي الليل اركع امام نفسي وأعبدها . » — حقاً انه لاله غريب جدّاً ذلك الذي التقـاه جبران « في وادي ظلّ الحيـاة المرصوف بالعظام والجماجم » . وانها لمهنة شاقة جدًّا تلك التي تعلـّمها جبران منه !

وانـك لتعجب لجبران الذي مـا كان يجـلُّ احداً من معلـّمي الانسانية وانبيائها اجـلاله ليسوع المسيح كيف استطـاع ان يرافق ، ولو الى حين ، رجلاً مثل نيتشه حاول ان ينال من مجد المسيح وسموّ رسالته بتصويره ايّاه رجـلاً ضعيفاً متمسكناً راح يموّه على الضعفـاء والمساكين فيرفـع ضعفهم ومسكنتهم الى مرتبة الفضيلـة ويلوّح لهم بسعادة دعاهـا « الملكوت السماوي » ويجعل من الضعف والمسكنـة

مفتاحاً لتلك السعادة اذ يقول : « طوبى للمساكين بالروح فإنّ لهم ملكوت السموات . » ولكن جبران الذي جارى نيتشه في نقمته على الناس وضعفهم واستكانتهم الى الذلّ والعبودية لم يجاره في نظرته الى يسوع . بل وفّق ما بين اعجابه بنيتشه وبين محبته ليسوع بأن جعل من يسوع ذلك السوبرمان الذي كان يبشّر به نيتشه . فهو يقول في « يسوع المصلوب » :

« ما عاش يسوع مسكيناً خائفاً . ولم يمت متوجّعاً . بل عاش ثائراً ، وصُلب متمرّداً ، ومات جبّاراً . »

وهذه النغمة عينها يرددها فيا بعد في كتابه الانكليزي « يسوع ابن الانسان » .

في «العواصف» مقالات تعود بك الى جبران «دمعة وابتسامة» – الى ذلك الشاعر الوجداني الذي ما كان يلذّه شيء مثلما يلذّه ان ينثر قلبه على الورق بكل ما فيه من حبّ وكآبة ووحشة وغربة وألم وشوق وحنين . مثال ذلك مقطوعته البديعة في « الشاعر » حيث يقول :

« انا غريب في هذا العالم .

« انا غريب وقد جبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أجد مسقط رأسي ولا لقيت من يعرفني . »

وكذلك مقاله الجميل «بين ليل وصباح» الذي مطلعه « اسكت يا قلبي فالفضاء لا يسمعك » والذي يختتمه بقوله :

« قم يا قلبي وارفع صوتك مترنماً . فمن لا يشارك الصبح بأغانيه كان من ابناء الظلام . »

وكذلك مقاله المؤثر « مات اهلي » الذي كتبه يوم كانت المجاعة تحصد الناس حصداً في لبنان ابان الحرب العالمية الأولى، والذي يبلغ فيه منتهى الرقة والعذوبة والحنان، اذ يتمنى لو كان سنبلة من القمح نابتة في تربة لبنان يقتات بها طفل جائع، او ثمرة يانعة في بساتين لبنان تجنيها امرأة جائعة، او طائراً في فضاء لبنان يصطاده صياد جائع.

« مات اهلي على الصليب .
« . . . ماتوا لأنهم لم يكونوا مجرمين .
« ماتوا لأنهم لم يظلموا الظالمين .
« ماتوا لأنهم كانوا مسالمين » الخ .

امّا « العاصفة » التي يعود فيها جبران الى التبرم بالناس وتقاليدهم، والى تمجيد التمرد والاشادة بجمال الاعتزال ، ففي آخرها ما يدلك على ان جبران الثائر قد اخذ يشعر بأنّ الثورة وحدها قد تنتهي بأن تخذل ذاتها بذاتها . لاسيما اذا كان الغرض منها قلب النظام الذي منه يبتدىء واليه ينتهي كل نظام . فذلك فوق طاقة الناس . ولذلك يعترف جبران أمام نفسه : « قد تكون المدنية الحاضرة عرضاً زائلاً. ولكن الناموس الأبدي قد جعل الأعراض سلّماً تنتهي درجاته بالجوهر المطلق . » وإذن على مَن او على مَ تثور ما دام في الكون « ناموس أبدي » وما دام كل ما في الكون – وانت منه – خاضعاً لذلك النظام ؟

كانت « العواصف » آخر كتاب عربي أصدره جبران . امّا « البدائع والطرائف » التي نشرتها « مكتبة العرب » في مصر عام ١٩٢٣ فلم تكن غير مجموعة اختارها صاحب المطبعة من كتابات جبران ولم يكن له رأي في اختيارها او في تسميتها . وجلّها مأخوذ من « دمعة وابتسامة » ومن « العواصف » وغيرهما من مؤلفات جبران العربية والانكليزية مع القليل من المقالات التي لم يسبق نشرها في كتاب . وأهمّها « وعظتني نفسي » و « لكم لبنانكم ولي لبناني » و « مستقبل اللغة العربية » و « إرم ذات العماد » .

ففي « وعظتني نفسي » يعود جبران عن ثورته الزرادشتية فلا يجد نفسه « أرفع من الصعاليك ولا ادنى من الجبابرة » بل يدرك انه وجميع الناس من عنصر واحد . فذنوبهم ذنوبه . وصلاحهم صلاحه . وضعفهم ضعفه. وقوّته قوّتهم . وانه وان حمل النور ، ليس بالنور ، وان كان « عوداً مشدود الأوتار » فما هو الذي يضرب على الأوتار بل غيره .

وفي « إرم ذات العماد » يحاول جبران ان يفرغ في قالب قصصي خلاصة ما توصّل اليه حتى ذلك الحين من التأمل في الانسان ومصدره وحياته ومآبه ، وفي الزمان والمكان ، وفي الروح والمادة ، وفي الموت والحياة بعد الموت . فيخلص الى نتيجة واحدة هي أن « كل ما في الوجود كائن في باطنك ، وكل ما في باطنك موجود في الوجود . وليس هناك حدّ فاصل بين أقرب الأشياء وأقصاها ، او بين أعلاها وأخفضها ، او بين أصغرها وأعظمها . » امّا معرفة هذه الأمور كلها

فلا تتأتى الا عن طريق التشوّق اليها . والتشوّق ميسور للجميع . ففي مستطاع «كل انسان ان يتشوّق ثم يتشوّق ثم يتشوّق حتى ينزع الشوقُ نقابَ الظواهر عن بصره فيشاهد اذ ذاك ذاته . ومن يرَ ذاته يرَ جوهر الحياة المجرّد. فكل ذات هي جوهر الحياة المجرّد» — وذلك ما قاله سقراط « اعرف نفسك » وما قاله المتصوفة المسلمون وغير المسلمين من بعده، وما قالته «الفيدا» قبل سقراط والمتصوفين، وما ينتهي اليه في الغالب كل الذين يأبى عليهم خيالهم وفكرهم ان يقبلوا الأشياء على ظواهرها كما تتناولها الحواس وان ينكروا القدرة التي تتبطن عنها الظواهر ، والتي تبدّل الظواهر ولا تبدّلها الظواهر . وهي القوّة الكليّة الشاملة السرمدية . أجل . لقد قيل ما يشبه ذلك من زمان . ولكن قلّ من قاله بأسلوب شعري مشعّ كأسلوب جبران .

عندما قلت ان « العواصف » كان آخر كتاب أصدره جبران ما عنيت انه انقطع من بعده انقطاعاً تامّاً عن الكتابة بالعربية . وعنيت أنه من بعد ان شقّ طريقه الى العالم الانكليزي انصرف عن العالم العربي الى حدّ بعيد . فما أصدر كتاباً عربياً جديداً . ولكنه ظلّ يكتب مقالات منقطعة أهمّها ما كان ينشره في الأعداد الممتازة التي كانت تصدرها جريدة « السائح » في مطلع كل عام . وكان آخر ما كتبه بالعربية مقالاً أعدّه للسائح الممتاز في مطلع سنة ١٩٣١ ، وهو حوار يدور بين ملك وراعٍ فيخرج الراعي منه ظافراً . ولكن ذلك العدد لم يصدر ، ولم يُكتب لجبران ان يقرأ مقاله مطبوعاً .

فقد أدركته المنيّة مساء العاشر من نيسان سنة ١٩٣١ .

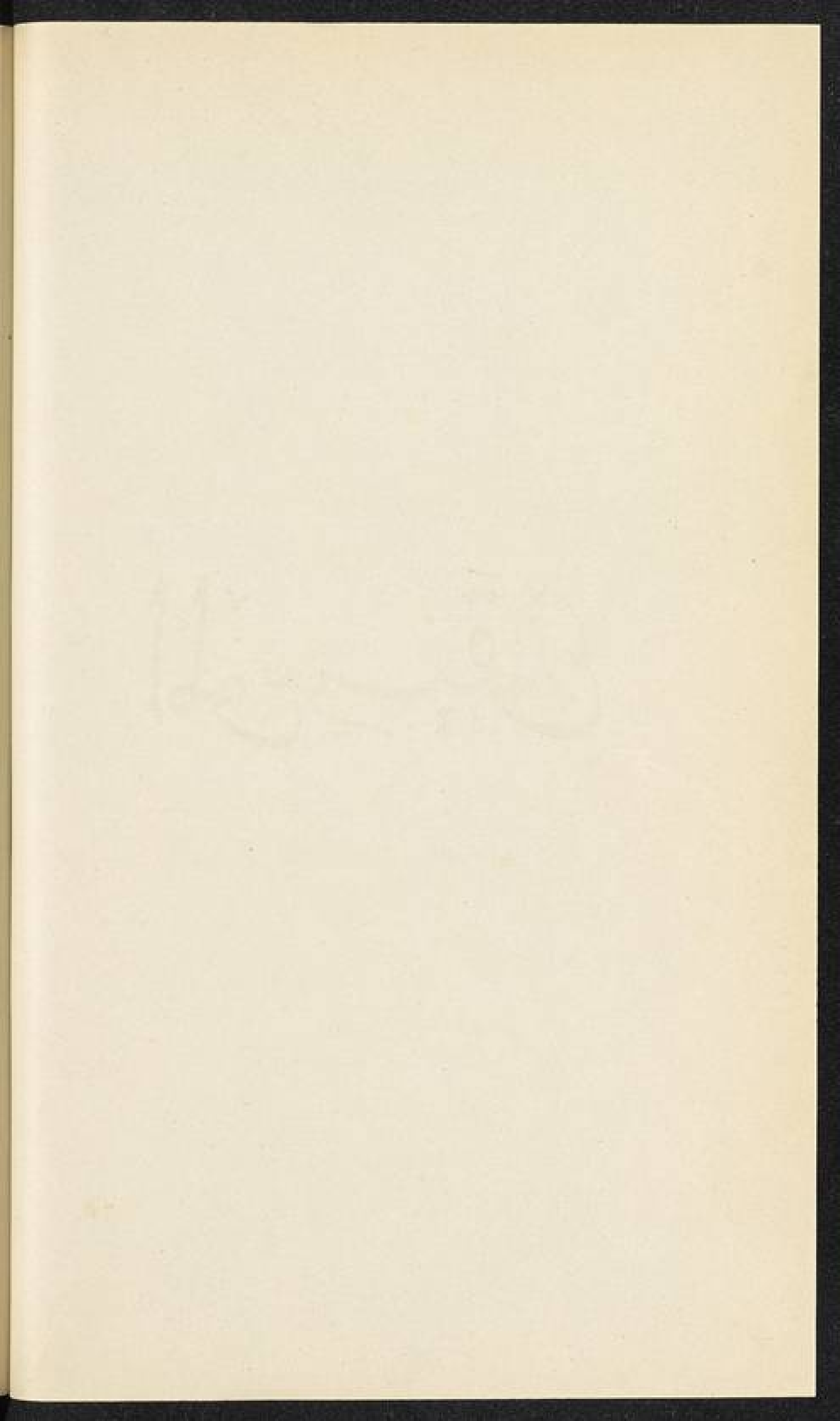
هكذا جاء مثال « ملك البلاد وراعي الغنم » خاتمة صامتة لثورة عنيفة ، جامحة ، مباركة هزّت الأدب العربيّ هزّاً ، وقد حمل لواءها قلبٌ محبٌ فسيح ، وفكر انساني جبّار ، وخيال نفّاذ وثّاب ، وروح مرقّع أجمل التوقيع لخير ما في الكيان البشري من أشواق حرّاقة وحنين ابدي الى الانعتاق من القيود والحدود للحظوة بحريّة المعرفة التي لا توصف ولا تُحدّ .

ميخائيل نعيمه

بسكنتا – لبنان

في ١٠ أيلول سنة ١٩٤٩

الموسيقى



جلست بقرب من احبتها نفسي اسمع حديثها . أصغيت ولم أنبس ببنت شفة ، فشعرت ان في صوتها قوة اهتزّ لها قلبي اهتزازات كهربائية فصلت ذاتي عن ذاتي ، فطارت نفسي سابحة في فضاء لا حدّ له ولا مدى ، ترى الكون حلماً والجسد سجناً ضيّقاً .

سحر عجيب مازج صوت حبيبتي وفعل بمشاعري ما فعل وانا لاهٍ عن كلامها بما اغناني عن الكلام .

هي الموسيقى ايها الناس ، سمعتها اذ تنهدت حبيبتي بُعيد بعض الكلمات وابتسمت في بعضها . سمعتها لمّا حكت تارة بألفاظ متقطعة وآونة بجمل متواصلة واخرى بكلمات أبقت نصفها بين شفتيها .

تأثيرات قلب حبيبتي ، رأيتها بعين سمعي فأشغلتني عن جوهر حديثها بجواهر عواطفها المتجسمة بموسيقى هي صوت النفس .

بلى ، فالموسيقى هي لغة النفوس ،والالحان نسيمات لطيفة تهزّ اوتار العواطف . هي انامل رقيقة تطرق باب المشاعر وتنبّه الذاكرة فتنشر هذه ما طوته الليالي من حوادث اثرت فيها بماضٍ عبر .

هي نغمات رقيقة تستحضر ، على صفحات المخيّلة ، ذكرى ساعات

الاسى والحزن اذا كانت محزنة ، او ذكرى اويقات الصفاء والأفراح اذا كانت مفرحة .

هي مجموع اصوات محزنة تسمعها فتستوقفك وتملأ اضلعك لوعة وتمثّل لك الشقاء كالاشباح .

هي تأليف أنغام مفرحة ، تعيها فتأخذ بمجامع قلبك فيرقص بين أضلعك فرحاً وتيهاً .

هي رنّة وتر تدخل سامعتك محمولة بتموّجات الاثير ، فقد تخرج من عينيك دمعة محرقة اثارتها لوعة نأي حبيب او آلام كلوم خرقها ناب الدهر . وربما خرجت من بين شفتيك ابتسامة كانت والحق عنوان السعادة والرخاء .

هي جسم من الحشاشة ، له روح من النفس وعقل من القلب .

***

وجد الانسان فأوحيت اليه الموسيقى من العلاء لغة ، ليست كاللغات ، تحكي ما يكنّه القلب للقلب ، فهي حديث القلوب . وهي كالحب عمّ تأثيرها الناس ، فترنّم بها البرابرة في الصحراء ، وهزت اعطاف الملوك في الصروح . مزجتها الثكلى مع نوحها ، فكانت ندباً يفتت قلب الجماد . وبثّها الجذلان مع افراحه ، فكانت انشاداً يطرب مغلوب الأرزاء ، فقد حاكت الشمس ، اذ أحيت بأشعتها جميع زهور الحقل .

الموسيقى كالمصباح ، تطرد ظلمة النفس ، وتنير القلب ، فتظهر اعماقه . والألحان في قضائي اشباح الذات الحقيقية او خيالات المشاعر الحية . والنفس كالمرآة المنتصبة تجاه حوادث الوجود وفواعله تنعكس

عليها رسوم تلك الأشباح وصور تلك الخيالات .

النفس زهرة ليّنة في مهب ريح التقادير ، نسمات الصباح تهزها وقطرات الندى تلوي عنقها . كذا تغريدة عصفور تنبّه الانسان من غفلته ، فيصغي ، ويشعر ، ويمجد معه الحكمة مبدعة نغمة الطائر العذبة وشعوره الرقيق ، وتهيج تلك التغريدة قوى فكرته ، فيسأل ذاته ، وما يحفُّ بـه ، عمّا اسرّه لحن ذلك الطائر الحقير فحرّك اوتار عواطفه وأوحى اليه معاني ما حوتها كتب الأولى تقدموه . يسأل مستفهماً عمّا اذا كان العصفور يناجي زهور الحقل ام يحاكي اغصان الاشجار ام يقلّد خرير مجاري المياه ام ينادم الطبيعة بأسرها ، ولكنه لا يستطيع الى الحصول على الجواب سبيلاً .

الانسان لا يدري ما يقوله العصفور فوق اطراف الأغصان ، ولا الجداول على الحصباء ، ولا الأمواج اذ تأتي الشاطىء ببطء وهدوء . ولا يفقه ما يحكيه المطر اذ يتساقط منهملاً على اوراق الاشجار ، او عندما يطرق بأنامله اللطيفة بلور نافذته ، ولا يفهم ما يقوله النسيم لزهور الحقل ، ولكنه يشعر ان قلبه يفقه ويفهم مفاد جميع هذه الأصوات فيهتزّ لها ، تارة بعوامل الطرب ، ويتنهد طوراً بفواعل الأسى والكآبة . اصوات تناجيه بلغة خفيّة ، وضعتها الحكمة قبل كيانه ، فتحدّثت نفسه والطبيعة مرات كثيرة وهو واقف معقود اللسان حائراً ، وربما ناب عن لفظه الدمع والدمع افصح مترجم .

تِ معي ، يا صاحِ ، الى مسرح الذكرى لنرى منزلة الموسيقى عند

***

امم طوتها الأيام ، وتعـالَ نتأمل تأثيرها في كل دور من ادوار ابن آدم .

عبدها الكلدانيون والمصريون كإله عظيم يُسجد له ويمجد . واعتقد الفرس والهنود بكونها روح الله بين البشر . وقال شاعر فارسي مـا معناه : « ان الموسيقى كانت حورية في سمـاء الآلهة تعشقت آدميـاً وهبطت نحوه من العلو فغضب الآلهة اذ علموا وبعثوا وراءها ريحـاً شديدة نثرتها في الجو وبعثرتها في زوايا الدنيا ، ولم تمت نفسها قط بل هي حيّة تقطن آذان البشر . »

وقال حكيم هندي : « ان عذوبة الالحـان توطد آمـالي بوجود ابدية جميلة . »

والموسيقى عنـد اليونان والرومان كانت الهاً مقتدراً ، بنوا له هياكل عظيمة مـا برحت تحدثنـا بعظمتهم ، ومذابح فخيمة ، قدموا عليها أجمل قرابينهم وأعطر بخورهم . الهاً دعوه ابولون فمثلوه وجميع الكمالات تجعله منتصباً ، كالغصن على مجاري الميـاه ، يحمل القيثارة في يسراه ، ويمينه على الأوتار ، رأسه مرفوع يمثل العظمة ، وعينـاه ناظرتان الى البعيد كأنه يرى أعماق الأشياء .

وقالوا ان رنّات اوتار ابولون صدى صوت الطبيعة . رنّات شجية ينقلها عن تغريد الطيور وخرير المياه وتنهدات النسيم وحفيف اغصان الاشجار .

وجاء في اساطيرهم ان رنّات اوتار اورفيوس الموسيقي حرّكت

قلب الحيوان فاتبعته الضواري ، والنبات ، فمدّت نحوه الأزاهر أعناقها ومالت اليه الأغصان ، والجماد ، فتحرك وتفتت .

وقالوا فقد اورفيوس زوجته فبكاها ورثاها نادباً حتى ملأت نغمة لوعته البريّة ، فبكت الطبيعة لبكائه حتى حنّت قلوب الآلهة ففتحت له ابواب الأبدية كي يلتقي بحبيبته في عالم الأرواح .

وقالوا قتلت بنات الأحراج اورفيوس ورمين برأسه وقيثارته الى البحر فطافا على الماء حتى بلغا جزيرة دعاها اليونان جزيرة الأغاني .

وقالوا ان الأمواج التي حملت رأس اورفيوس وقيثارته مابرحت مذ ذاك الحين تصوغ من أصواتها ندباً مؤثراً وأنغاماً محزنة ، تملأ الأثير فيسمعها الملاحون .

هذا كلام بعد ان قضى عز تلك الأمة ومضى ، دعوناه خرافات مصدرها الوهم وأحلاماً ابتدعتها التصورات ، غير انه قول دلّ على ان تأثير الموسيقى في صدور اليونان كان عميقاً وعظيماً فقالوا ما قالوا عن صحة اعتقاد ، فما ضرنا لو دعونا تلك الأقوال مبالغة شعرية مصدرها رقة العواطف ومحبة الجمال وهذا في عرف الشعراء الشعر ؟

نقلت الينا آثار الاشوريين رسوماً تمثّل مواكب الملوك سائرة وآلات الطرب تتقدمها ، وحدثنا مؤرخوهم عن الموسيقى فقالوا انها عنوان المجد في الحفلات ورمز السعادة في الأعياد . أجل . فالسعادة بدونها تحكي فتاة قطع لسانها . فالموسيقى لسان جميع امم الأرض ، سبّحت معبوداتها بالاناشيد ومجّدتها بالألحان ، وكانت التراتيل — وهي الآن — فرض كالصلاة يقدمونها في المعابد وكمحرقات يقفونها

على القوة المعبودة . محرقات مقدسة مبدأُها عواطف النفس . صلوات يهذبها القلب وما اكمله اهتزازات المشاعر . انفاس حرّة ما زلفتها الالفاظ بل تظرّفت بها انفاس اثارتها ندامة الملك داود فملأت اناشيده أرض فلسطين وابتدعت اشجانه انغاماً شجية مؤثرة منبعها انفعالات التوبة وحزن النفس ، وكوسيط قامت مزاميره ، بينه وبين الله ، تطلب له مغفرة زلاّته ، وكأنّ رنّات قيثارته قد انبثقت من قلبه المنسحق وسرت مع قطرات دمه الى أصابعه ، فكانت أعمال تلك الأصابع عظيمة عند الله والناس . وهو القائـل : « هللوا للرب ، سبّحوا الربّ بصوت البوق ، سبّحوه بالمزامير والقيثارة ، سبّحوه بالطبل والدفوف ، سبحوه بالأوتار والارغن ، سبحوه بصوت الصنوج ، سبحوه بصنوج التهليل وكل نسمة فلتسبّح الرب . » وجاء في الأسفار ان ملائكة من السماء تأتي ، في آخر الدهر ، نافخة الأبواق في جميع اقطار العالم فتستفيق من صوتها الارواح وتلبس اجسامها وتنشر امام الديّان . لقد عظّم كاتب هذا السفر الموسيقى اذ انزلها منزلة رسول من الله الى ارواح البشر ، وما قول الكاتب الاّ صورة مشاعره وعلى نوع كلام ينطبق على اعتقادات معاصريه .

وجاء ، في بدء مأساة ابن البشر ، ان التلامذة سبّحوا قبيل ذهابهم الى بستان الزيتون حيث قبض على معلمهم . وكأنني الآن أسمع نغم تلك التسبيحة صادراً من اعماق نفوس حزينة رأت ما سيحلّ برسول السلام فتنفست عن نغمة مؤثرة نابت عن كلمة الوداع .

***

تسير الموسيقى ، امام العساكر ، الى الحرب فتجدد عزيمة حميتهم وتقويهم على الكفاح ، وكالجاذبية تجمع شتاتهم وتؤلف منهم صفوفاً لا تتفرّق . ما سارت الشعراء ، امام الكتائب ، الى ساحات القتال ، موطن المنيّة ، لا ولا الخطباء ، ما رافقتهم الاقلام والكتب ، بل مشت امامهم الموسيقى كقائد عظيم ، يبثّ بأجسامهم الواهنة ، قوّة تفوق الوصف ، وحميّة تنبّه في قلوبهم حب الانتصار فيغالبون الجوع والعطش وتعب المسير ، ويدافعون بكل ما في اجسادهم من القوّة ، ووراءها يسيرون بفرح وطرب ويتبعون الموت الى أرض العدو المبغوضة . كذا يستخدم ابن آدم اقدس ما في الكون لتعميم شرور الكون .

الموسيقى رفيقة الراعي في وحدته ، وهو ان جلس على صخرة في وسط قطيعه نفخ بشبّابته الحاناً تعرفها نعاجه فترعى الاعشاب آمنة . والشبّابة عند الراعي كصديق عزيز لا تفارق وسطه ، ونديم محبوب ، تستبدل سكينة الأودية الرهيبة برياض مأهولة ، وتقتل بأنغامها الشجيّة وحشتها ، وتملأ الهواء أنساً وحلاوة .

الموسيقى تقود اظعان المسافرين وتخفّف تأثير التعب وتقصّر مديد الطرقات . فالعيس لا تسير في البيداء الاّ اذا سمعت صوت الحادي . والقافلة لا تقوم بثقيل الاحمال الاّ اذا كانت الاجراس معلّقة برقابها . ولا بدع ، فالعقلاء في ايامنا هذه يربّون الضواري بالالحان ويدجنونها بأصوات عذبة .

***

الموسيقى ترافق ارواحنا وتجتاز معنا مراحل الحياة ، تشاطرنا الارزاء والافراح وتساهمنا السرّاء والضرّاء . وتقوم كالشاهد في ايام مسرّتنا وكقريب شفوق في ايام شقائنا .

يأتي المولود من عالم الغيب الى دنيانا ، فتقابله القابلة والاقارب بأغاني الفرح ، متأهلين بأناشيد الابتهاج والحبور . يحييهم ، عندما يرى النور ، بالبكاء والعويل فيجيبونه بالتهاليل والهتاف كأنهم يسابقون بالموسيقى الزمان على افهامه الحكمة الالهية .

واذا ما بكى الرضيع اقتربت منه والدته وغنّت بصوتها الموسيقي المملوء رقة وحنوّاً فيكفّ عن البكاء ويرتاح لألحان امه المتجسمة من الشفقة وينام . وفي ألحان الوالدة ونغمتها قوّة توعز الى الكرى ليغمض اجفان طفلها . وتشارك تلك الالحان السكينة بهدوئها فتزيدها حلاوة وتمحو رهبتها وتملأها سحراً من انفاس الأم الحنون حتى يتغلب الرضيع على الارق وينام وتطير نفسه الى عالم الارواح . ولا ينام الطفل لو تكلمت الوالدة بلسان شيشرون او قرأت ابن الفارض .

ينتقي الرجل شريكة حياته وتتحد نفساهما برباط الزواج ، متممين وصية كتبتها الحكمة منذ البدء على قلبيهما ، فيجتمع الاقارب والخلاّن ويفرحون بالاناشيد والاهازيج ويقيمون الموسيقى شاهداً عندما يربط القران عرس المحبة ، فكأنني بها ، يوم التعريس ، صوت رهيب ممازجه الحلاوة ، صوت يمجّد الله في مخلوقاته ، صوت ينبّه الحياة النائمة لتسير وتنتشر وتملأ وجه الارض .

وعندما يأتي الموت ، ويمثّل آخر مشهد من رواية الحياة ، نسمع

الموسيقى المحزنة وتراها تملأ الجو بأشباح الاسى، في تلك الساعة الموجعة اذ تودّع النفس ساحل هذا العالم الجميل وتسبح في بحر الابدية ، تاركة هيكلها الهيولي بين ايدي الملحّنين والندّابين ، فيتأوّهون بنغمات الحزن والاسف ويلحفون تلك المادة الثرى ويشيّعونها بألحان مفادها الضيم واناشيد معناها الكمد واللوعة . نغمات يحيونها ما بقي التراب فوق التراب وان بليت يبقى صداها في خلايا الجوارح ما دام القلب يذكر من مضى .

***

جالست من ميّزه الله بعذوبة الصوت وحباه ادراك فلسفة التنغيم والايقاع فرأيت السامعين حوله مصغين ، صاغرين ، ماسكين انفاسهم، محكومين بفواعل السكينة ، شاخصين اليه كالشعراء المستسلمين لقوّة فعّالة ، توحي اليهم اسراراً غريبة ، حتى اذا ما انتهى الملحّن من انشاده تنهدوا ذاك التنهُّد الطويل – آه ! ! – آه ! ! صادرة من افئدة هيّجت فيها الالحان عواطف مكنونة فلذّ لها التأوّه . آه تتنفسها قلوب حرّى انعشتها الذكرى . آه كلمة صغيرة لكنها حديث طويل . آه ! ! ما قالها سامع كلام الملحّن لا ولا ناظر وجهه ، بل تنهدها من أعار اذناً لنشيد نسج من مقاطع انفاس متقطّعة . انفاس حيّة مثّلت له فصلاً من رواية حياته الماضية او فشت سرّاً اكنّته اضلعه .

وكم تأمّلت وجه سامع حسّاس فرأيت ملامحه تنقبض تارة

وتنبسط طوراً وتنقلب مع تقلبات النغم . واهتديت بخَلقه الى خُلقه واستحكيت باطنه بواسطة ظاهره .

والموسيقى كالشعر والتصوير، تمثّل حالات الانسان المختلفة وترسم اشباح اطوار القلب وتوضّح خيالات اميال النفس وتصوغ ما يجول في الخاطر وتصف اجمل مشتهيات الجسد .

النهاوند

(النهاوند) يمثّل تفريق المحبين ووداع الوطن ويصف آخر نظرة من راحل عزيز . يمثل شكوى آلام مبرحة بين ضلوع قوامها لظى الشوق . النهاوند صوت من اعماق النفس الحزينة . نغم متجسّم من مهجور يسأل عطفاً على رمقه قبل ان يضنيه البعاد . زفرات يائس انشأتها المرارة وتنهدات قانط بثتها لوعة من أتلفه الصبر والتجلّد . النهاوند يمثل الخريف وتساقط اوراق الاشجار المصفرّة بسكينة وهدوء، وتلاعب الريح بها وتفريق شملها . النهاوند صلاة والدة نأى ابنها الى ارض بعيدة فباتت بعده تغالب النوى فيهاجمها بعوامل اليأس وتصده بفواعل الصبر والامل . وفي النهاوند معنى بل معانٍ واسرار يفهمها القلب وتفقهها النفس. اسرار يحاول بثّها اللسان وكشفها القلم فيجفّ هذا وتنقطع اوصال ذاك .

الاصفهان

واصغيت (للاصفهان) فشاهدت ، بعين سمعي ، آخر فصل من حكاية عاشق دنف ، مات حبيبه فتقطّعت عرى آماله وتواصلت زفراته فهو ينوح بآخر ما في جسده من الحياة ، ويرثي ببقايا ما في حياته من الرمق. الاصفهان آخر نفس من منازع واقف، في مركب الموت، بين شاطىء الحياة وبحر الابدية. الاصفهان رثاء الذات بغصّات متقطعة متواصلة وتنهدات عميقة . نغمة صداها سكينة تمازجها مرارة الموت والاسى وحلاوة الدمع والوفاء .

وإن كان النهاوند حنين من يحيا ببعض الامل ، فالاصفهان انين من انفصمت عرى آماله .

الصبا

نسمع (الصبا) فتستفيق منّا قلوب حجبتها لحف الغم وتستيقظ وترقص بين الضلوع . فالصبا نغمة فرح تنسي المرء اتراحه فيطلب الراح ويشربها بلذّة غريبة ويستزيد منها كأنه يعلم ان خمرة المسرّة

تسابقها فتحكم بالعاقلة. الصبا حديث محب" مغتبط صارع الدهر وأرغم انف البين واسعدته الليالي بخلوة فحظي بلقـاء محبوبة جميلة في حقـل بعيد ، فأولاه اللقاء فرحاً وابتهاجاً . الصبـا كنسمات الصبا تمر" فتهتز" لها ازاهر الحقل تيهاً وابتهاجاً .

الرصد

و (للرَّصد) ، في سكينة الليل ، وقـع في المشاعر يحاكي تأثير كلمات رسالة جاءت من عزيز غالٍ ، انقطعت اخباره في بلاد بعيدة ، فجاء الكتاب يحيي عاطفة الامل ويعد النفس باللقاء . و كأنـّي بمغنـّي الرصد يخبر بقرب الفجر واندحار الظلام ، وقد قيل : « ان جهز ليلك فارصد . »

وفي العتابا البعلبكية عتـاب رقيق يراوح بين اللوم والتعنيف ، ولحنها مزيج من النهاوند المؤثر والصبا المفرح وفعلها في النفس فعلهما.

***

والآن وقد كتبت هذه الصفحات ، اراني كطفل ينسخ كلمة من نشيد طويـل ، غنـّته الملائكة عندما جبـل الله الانسان الاول ، او كأمـّي" يستظهر جملة من كتـاب وضعته الحكمة على صفحات المشاعر

قبيل ابتداء الدهر .

فيا ايتها الموسيقى ، يا اوتربي المقدسة[1]، لقد رقصت اخواتك الفنون فيا غبر من الاجيال زمناً ، ووضعن في معاقل النسيان آخر ، وانت تهزئين بهن ولم تتنازلي عن مسرح النفس يوماً واحداً ، فكأنك صدى القبلة الاولى التي وضعها آدم على شفتي حواء. صدى له صدى له صدى، تتناقل وتتناسخ وتكتنف الكل وتحيا بالكل، يلذ لعمالها عملهم ويفرح الغير الموهوب من مكارمها بسمعه .

يا ابنة النفس والمحبة . يا اناء مرارة الغرام وحلاوته . يا خيالات القلب البشري . يا ثمرة الحزن وزهرة الفرح . يا رائحة متصاعدة من طاقة زهور المشاعر المضمومة. يا لسان المحبين ومذيعة اسرار العاشقين. يا صائغة الدموع من العواطف المكنونة . يا موحية الشعر ومنظمة عقود الاوزان . يا موحّدة الافكار مع نتف الكلام ومؤلفة المشاعر من مؤثرات الجمال . يا خمرة القلوب الرافعة شاربها الى اعالي عالم الخيالات . يا مشجعة الجنود ومطهّرة نفوس العابدين . يا ايتها التموجات الاثيرية الحاملة اشباح النفس ويا بحر الرقّة واللطف ، الى امواجكِ نسلّم انفسنا وفي اعماقك نستودع قلوبنا ، فاحمليها الى ما وراء المادة وأرينا ما تكنّه عوالم الغيب .

تكاثري يا عواطف النفوس وتعاظمي يا مشاعر القلوب وارفعي ايادي ذوي الايادي لبناء الهياكل لهذه الآلهة العظيمة ، وانزل يا ملاك

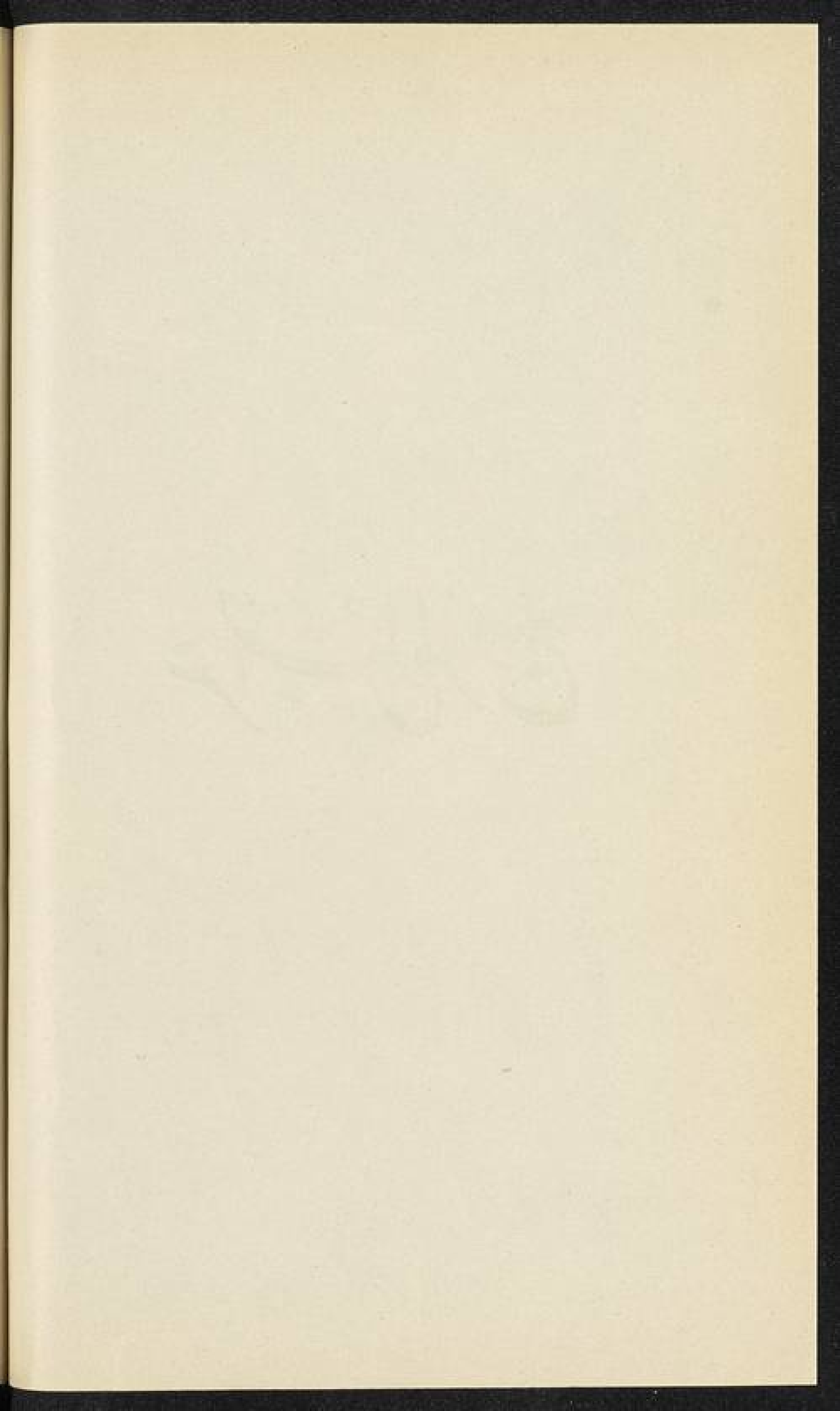
---

[1] اوتربي : عروس آلهة الموسيقى عند قدماء اليونان .

الوحي على قلوب الشعراء واسكب في خلايا قريحتهم مديحاً وتسبيحاً لهذه العظيمة المقدسة . واكبري يا مخيّلة الرسامين والنقّاشين وابتدعي لها صوراً وأشباحاً .

كرّموا يا سكان الأرض كهنتها وكاهناتها وعيّدوا لذكر خدّامها وشيدوا لهم التماثيل . صلّي ايتها الامم وسلمي على اورفيوس وداود والموصلي ، وعظّمي ذكر بيتهوفن وفغنر وموزار . وغنّي يا سوريا باسم شاكر الحلبي ، ويا مصر باسم عبده الحمولي . كبّر ايها الكون الألى بثّوا في سمائك انفسهم وملأوا الهواء ارواحاً لطيفة وعلّموا الانسان ان يرى بسمعه ويسمع بقلبه . آمين .

عرائس المروج



رماد الاجيال والنار الخالدة

١

توطئة

(في خريف ١١٦ قبل الميلاد)

سكن الليل ورقدت الحياة في مدينة الشمس[١] وأُطفئت السرج في المنازل المنتثرة حول الهياكل العظيمة القائمة بين اشجار الزيتون والغار، وطلع القمر فانسكبت اشعته على بياض الاعمدة الرخامية المنتصبة كالجبابرة تخفر في هدوء الليل مذابح الآلهة ، وتنظر تيهاً واعجاباً نحو بروج لبنان الجالسة في الوعر على جبهات الروابي البعيدة .

في تلك الساعة المملوءة بسحر الهدوء ، الموحدة بين ارواح النيام واحلام اللانهاية ، جاء ناثان ابن الكاهن ودخل هيكل عشتروت[٢] حاملاً

---

١ هي بعلبك اي مدينة بعل اله الشمس وقد دعاها الاقدمون مدينة الشمس (هليوبوليس) لانها بنيت لعبادة هذا الاله، وقد اتفق المؤرخون على انها كانت اجمل مدينة في سوريا . اما الخرائب الباقية الى يومنا هذا فأكثرها من بناء الرومانيين بعد فتحهم سوريا

٢ هي ربة عظيمة عند قدماء الفينيقيين عبدوها في صور وصيدا وجبيل وبعلبك، وبعض صفاتها قولهم : « موقدة شعلة الحياة وحارسة الشبيبة » وقد اخذ اليونان عبادتها من الفينيقيين ودعوها افروديت ربة الحب والجمال، والرومان يدعونها فينس .

مشعلاً، وبيد مرتجفة انار المدارج واوقد المباخر فتصاعدت روائح المرّ واللبان ، ووشحت تمثال المعبودة بنقاب لطيف يشابه برقع الأماني المحيط بالقلب البشري ، ثم ركع امام المذبح المصفّح برقوق العاج والذهب ورفع يديه ونظر نحو العلاء ومن عينيه الدموع تستدرّ الدموع، وبصوت تخفضه الغصّات الاليمة وتقطعه اللوعة القاسية صرخ قائلاً : رحماكِ يا عشتروت العظيمة — رحماك يا ربّة الحبّ والجمال، ترأفي بي وازيلي يد الموت عن حبيبتي التي اختارتها نفسي بمشيئتك . . . لقد نبت اعاصير الاطباء ومساحيقهم ، وباطلاً ضاعت تعازيم الكهّان والعرّافين ، ولم يبقَ لي غير اسمك المقدّس عوناً ومساعداً، فاستجيبي تضرعاتي ، وانظري انسحاق قلبي وتوجّع عواطفي ،وأبقي شطر نفسي حيّاً بجانبي ، لنفرح بأسرار محبتك ونسعد بجمال الشبيبة المعلنة خفايا مجدكِ . من هذه الاعماق اصرخ اليكِ يا عشتروت المقدسة . من وراء ظلمة هذا الليل استجير بحنانك . فاسمعيني انا عبدك ناثان ابن الكاهن حيرام الذي وقف عمره على خدمة مذبحك — قد احببت صبيّة من بين الصبايا واتخذتها رفيقة فحسدتنا عرائس الجان ونفثنَ في جسدها اللطيف لهاث علّة غريبة ، ثم بعثنَ رسول المنايا ليقودها الى مغاورهنّ السحريّة ، وها هو الآن رابض بقرب مضجعها، يزمجر كالنمر الجائع ، مخيّماً عليها بأجنحته السوداء ، مادّاً مقابضه الخشنة ليغتالها من بين ضلوعي[1]. من اجل ذلك جئت اليك متذلّلاً، فارحميني وابقيها زهرة لم

---

[1] كانت العرب في الجاهلية تقول ان الجنية اذا تعشقت فتى من الانس منعته من الزواج، وان فعل سحرت عروسته او اماتتها ، وهذه الاعتقادات الشعرية ما برحت حية في بعض قرى لبنان .

تفرح بعد بجمال صيف الحياة ، وطائراً لم يكمل تغريدة مسرّته لمجيء فجر الشبيبة. انقذيها من بين اظفار الموت فنبتهج بأغاني مدائحك، مقدّمين المحروقات لمجد اسمك، ناحرين الضحايا على مذبحك، مالئين بالخمر القديم والزيت المطيّب آنية خزائنك ، فارشين بالورود والياسمين رواق هيكلك، محرقين البخور والعود الذكي الرائحة امام تمثالك . خلّصينا يا ربّة المعجزات ودعي المحبة تغلب الموت، فأنت ربّة الموت والمحبة.

وسكت دقيقة كانت فيها لوعته تسيل دموعاً وتتصاعد تنهداً . ثم عاد فقال : « اواه! لقد تضعضعت احلامي يا عشتروت المقدسة وذابت حشاشتي ومات قلبي في داخلي والتهبت دموعي في عيني ، فأحييني بالرأفة وأبقي لي حبيبتي . » ودخل اذ ذاك عبد من عبيده واقترب منه ببطء وهمس في اذنه هذه الكلمات : « لقد فتحت عينيها يا سيدي ونظرت حول مضجعها فلم ترَك ثم نادتك بلجاجة فجئت لأدعوك اليها . »

فقام ناثان ومشى مسرعاً والعبد يتبعه. ولما بلغ صرحه دخل حجرة العليلة وانحنى فوق سريرها آخذاً يدها النحيلة بين يديه مقبّلاً شفتيها مراراً كأنه يريد ان ينفخ في جسدها السقيم حياة جديدة من حياته ، فحوّلت نحوه وجهها الغارق بين المساند الحريريّة وفتحت اجفانها قليلاً ، وظهر على شفتيها خيال ابتسامة هي بقيّة الحياة في جسدها اللطيف ، هي آخر اشعة من نفسها المودّعة — هي صدى نداء القلب المتسارع نحو الوقوف . ثم قالت ومقاطع صوتها تشابه انفاس طفل الفقيرة الجائع : « قد نادتني الآلهة يا عريس نفسي، وجاء الموت ليفصلني عنك ، فلا تجزع لأن مشيئة الآلهة مقدسة ومطالب الموت عادلة . انا

ذاهبة الآن وكأسا الحبّ والشبيبة ما برحتا طافحتين في ايدينا، ومسالك الحياة الجميلة ما زالت منبسطة امامنا . انا راحلة يا حبيبي الى مسارح الأرواح وسوف اعود الى هذا العالم لأن عشتروت العظيمة ترجع الى هذه الحياة ارواح المحبين الذين ذهبوا الى الابدية قبل ان يتمتعوا بملذّات الحب وغبطة الشبيبة[1] . سوف نلتقي يا ناثان ونشرب معاً ندى الصباح من كؤوس النرجس ونفرح مع عصافير الحقل بأشعة الشمس . الى اللقاء يا حبيبي . »

وانخفض صوتها وبقيت شفتاها ترتجفان مثل زهرة اقاح ذابلة امام نسمات الفجر ، فضمّها حبيبها وبلل عنقها بالعبرات ، ولمّا قرّب شفتيه من ثغرها وجده بارداً كالثلج ، فصرخ صراخاً هائلاً ومزّق ثوبه وارتمى على جثّتها الهامدة وروحه المتوجعة تراوح بين لجج الحياة وهاوية الموت .

في هدوء ذلك الليل ارتجفت اجفان الراقدين وجزعت نساء الحي وذعرت ارواح الاطفال اذ تبطّنت ملابس الدجى بنواح موجع وبكاء مرّ وعويل أليم متصاعد من جوانب قصر كاهن عشتروت .

ولما جاء الصباح طلب القوم ناثان ليعزّوه ويؤاسوه في مصيبته فلم يجدوه .

---

[1] قال نبي الاسلام (ص) : « وكنتم امواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون . » وقال بوذا الهندي : « كنا بالامس في هذه الحياة وقد جئنا الآن وسوف نعود حتى نصير كاملين مثل الآلهة . »

وبعد ايام جاءت قافلة من المشرق اخبر زعيمها بأنه رأى ناثان تائهاً في البرية البعيدة هائماً مع اسراب الغزلان .

***

مرّت الاجيال ساحقة بأقدامها الخفيّة اعمال الاجيال ، وبعدت الآلهة عن البلاد وحلّ مكانها آلهة غضوب يلذّ لها الهدم ويبهجها التخريب ، فدُكّت هياكل مدينة الشمس الفخمة وتقوّضت قصورها الجميلة ويبست حدائقها النضرة ، وأجدبت حقولها الخصيبة ، ولم يبقَ في تلك البقعة غير طلل بال يعيد للذاكرة اشباح الامس فيؤلمها، ويرجع للنفس صدى تهاليل المجد القديم فيحزنها .

ولكن الاجيال التي تمرّ وتسحق اعمال الانسان لا تفني احلامه ، ولا تضعف عواطفه .

فالاحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكليّ الخالد، وقد تتوارى حيناً وتهجع آونة متشبّهة بالشمس عند مجيء الليل وبالقمر عند مجيء الصباح .

٢

في ربيع سنة ١٨٩٠ لمجيء يسوع الناصري

توارى النهار واضمحلّ النور ولمّت الشمس وشاحها عن سهول بعلبك فعاد علي الحسيني[١] امام قطيعه نحو خرائب الهيكل، وهناك جلس بين الاعمدة الساقطة كأنها أضلع جندي متروك مزّقتها الهيجاء وجرّدتها العناصر ، فربضت اغنامه حوله مستأمنة بأنغام شبّابته .

انتصف الليل ، وألقت السماء بذور الغد في أعماق ظلمته ، فتعبت اجفان علي من اشباح اليقظة وكلّت عاقلته من مرور مواكب الخيالات السائرة بسكينة مخيفة بين الجدران المهدومة ، فاتكأ على زنده ، واقترب النعاس ولامس حواسه بأطراف ثنايا نقابه مثلما يلامس الضباب اللطيف وجه البحيرة الهادئة ، فنسي ذاته المقتبسة والتقى بذاته المعنويّة الخفية المفعمة بالاحلام المترفّعة عن شرائع الانسان وتعاليمه ، واتسعت دوائر الرؤيا امام عينيه ، وانبسطت له خفايا الاسرار ، فانفردت نفسه عن موكب الزمن المتسارع نحو اللاشيء ووقفت وحدها امام الافكار المتناسقة والخواطر المتسابقة ، ولأول مرّة في حياته عرف او كاد يعرف اسباب المجاعة الروحية الملاحقة شبيبته . تلك المجاعة التي توحّد بين حلاوة الحياة ومرارتها . ذلك الظمأ الجامع بين تأوّه الحنين وسكينة الاستكفاء . ذلك الشوق

---

١ الحسينيون قبيلة من العرب تسكن الخيام في سهول بعلبك في ايامنا هذه .

الذي لا تزيله امجاد العالم ولا تثنيه مجاري العمر . لاول مرة في حياته شعر علي الحسيني بعاطفة غريبة ايقظتها خرائب الهيكل . عاطفة رقيقة هي الذكرى بمنزلة البخور من المجامر . عاطفة سحرية قد انعكفت على حواسه انعكاف انامل الموسيقي على صفوف الاوتار. عاطفة جديدة قد انبثقت من اللاشيء او من كل شيء، ونمت وتدرّجت حتى عانقت كلّيته المعنوية وملأت نفسه بشغف مدنف بلطفه وتوجع مستعذب بمرارته مستطيب بقساوته . عاطفة تولّدت من خلايا دقيقة واحدة مفعمة بالنعاس، ومن دقيقة واحدة تتولد رسوم الاجيال مثلما تتناسل الامم من نطفة واحدة .

نظر علي نحو الهيكل المهدوم وقد تبدّل النعاس بيقظة روحية فظهرت بقايا المذبح المخدّشة واتضحت اماكن الاعمدة المرتمية واسس الجدران المتداعية فجمدت عيناه وخفق قلبه، ومثل ضرير عاد النور الى عينيه فجأة فصار يرى ويفكر ويتأمّل — يفكر ويتأمل — ومن تموجات التفكّر ودوائر التأمل تولدت في نفسه اشباح الذكرى فتذكر — تذكر تلك الاعمدة منتصبة بفخر وعظمة . تذكر المسارج والمباخر الفضيّة محيطة بتمثال معبودة مهابة. تذكر الكهّان الوقورين يقدمون الضحايا امام مذبح مصفّح بالعاج والذهب . تذكر الصبايا الضاربات الدفوف والفتيان المترغين بمدائح ربّة الحبّ والجمال . تذكر ورأى هذه الصور متضحة لبصيرته المتكهربة وشعر بتأثيرات غوامضها تحرّك سواكن اعماقه . ولكن الذكرى لا تعيد غير اشباح الاجسام التي نراها فيما غبر من اعمارنا ولا يرجع الى مسامعنا الاّ صدى

الاصوات التي وعتها آذاننا . فأيّة علاقة بين هذه التذكارات السحرية وماضي حياة فتى ولد بين المضارب وصرف ربيع عمره يرعى قطيعاً من الغنم في البرية ؟

قام علي ومشى بين الحجارة المتقوّضة وتذكاراته البعيدة تزيح اغشية النسيان عن مخيّلته مثلما تزيل الصبيّة نسيج العنكبوت عن بلّور مرآتها . حتى اذا ما بلغ صدر الهيكل وقف كأنّ في الارض جاذباً يتمسك بقدميه ، فنظر واذا به امام تمثال مهشّم ملقى على الحضيض ، فركع بجانبه على غير هدى وعواطفه تتدفّق في احشائه مثلما يتسارع نزيف الدماء من جوانب الكلوم البليغة ، ونبضات قلبه تتكاثر وتتهامل مثل امواج البحر المتصاعدة المنخفضة . فخشع بصره وتأوّه بمرارة وبكى بكاءً اليماً لأنه شعر بوحدة جارحة وبعاد متلف فاصل بين روحه وروحٍ جميلة كانت بقربه قبل مجيئه الى هذه الحياة .

شعر بأن جوهر نفسه لم يكن غير شطر من شعلة متّقدة فصلها الله عن ذاته قبيل انقضاء الدهر .

شعر بحفيف أجنحة لطيفة ترفرف بين اضلعه الملتهبة وحول لفائف دماغه المنحلّة .

شعر بالحبّ القوي العظيم يشمل قلبه ويمتلك انفاسه ، ذلك الحب الذي يبيح مكنونات النفس للنفس ويفصل بتفاعيله بين العقل وعالم المقاييس والكمية ، ذلك الحب الذي نسمعه متكلّماً عندما تخرس ألسنة الحياة ونراه منتصباً كعمود النور عندما تحجب الظلمة كل الاشياء . ذلك الحب ، ذلك الاله قد هبط في تلك الساعة الهادئة على نفس علي

الحسيني وايقظ فيها عواطف حلوة ومرة مثلما تستنبت الشمس الزهور بجانب الاشواك .

ولكن ما هذا الحب ، ومن اين اتى ، وماذا يريد من فتى رابض مع قطيعه بين تلك الهياكل الرميمة ؟ ما هذه الخمرة السائلة في كبد لم تحرّكه قط لواحظ الصبايا ؟ وما هذه الاغنيّة السماوية المتموّجة في مسامع بدوي لم يطربه بعد شدو النساء ؟

ما هذا الحب ومن اين أتى ، وماذا يريد من علي المشغول عن العالم بأغنامه وشبّابته ؟ هل هي نواة ألقتها محاسن بدوية بين أعشار قلبه على غير معرفة من حواسه ، ام هو شعاع كان محتجباً بالضباب وقد ظهر الآن لينير خلايا نفسه ؟ هل هو حلم سعى في سكينة الليل ليسخر بعواطفه ، ام هي حقيقة كانت منذ الازل وستبقى الى آخر الدهر ؟

اغمض عليّ اجفانه المغلفة بالدموع ومدّ يديه كالمتسوّل المستعطف وارتعشت روحه في داخله ومن ارتعاشاتها المتواصلة انبثقت الزفرات المتقطّعة المؤلفة بين تذلّل الشكوى وحرقة الشوق ، وبصوت لا يميّزه عن التنهد غير رنات الالفاظ الضعيفة هتف قائلاً :

« من انتِ ايتها القريبة من قلبي ، البعيدة عن ناظري ، الفاصلة بيني وبيني ، الموثقة حاضري بأزمنة بعيدة منسيّة ، أطيف حوريّة جاءت من عالم الخلود لتبيّن لي بطل الحياة وضعف البشر ام روح مليكة الجان تصاعدت من شقوق الأرض لتسترق مني عاقلتي وتجعلني سخريّة بين فتيان عشيرتي ؟ من انتِ وما هذا الفتون المميت المحيي

القابض على قلبي ؟ وما هذه المشاعر المالئة جوانحي نوراً وناراً ؟ ومن انا وما هذه الذات الجديدة التي ادعوها (انا) وهي غريبة عني ؟ هل تجرّعْت ماء الحياة مع دقائق الاثير فصرت ملاكاً ارى واسمع خفايا الاسرار ، ام هي خمر وساوس سكرْت بها فتعاميت عن حقائق المعقولات ؟ »

وسكت دقيقة وقد نمت عواطفه وتسامت روحه فقال : « يا من تبينها النفس وتدنيها ويحجبها الليل ويقصيها — ايتها الروح الجميلة الحائمة في فضاء احلامي ، قد ايقظتِ في باطني عواطف كانت نائمة مثل بذور الزهور المختبئة تحت اطباق الثلج ، ومرَرتِ كالنسيم الحامل انفاس الحقول ولامست حواسي فاهتزّت واضطربت كأوراق الاشجار! دعيني اراكِ ان كنتِ لابسة من المادة ثوباً. او مري النوم ان يغمض اجفاني فأراكِ بالمنام ان كنتِ معتوقة من التراب. دعيني ألمسك . اسمعيني صوتك . مزّقي هذا النقاب الحاجب كلّيتي واهدمي هذا البناء الساتر ألوهيّتي وهبيني جناحاً فأطير وراءك الى مسارح الملأ الأعلى ان كنت من سكّانها او لامسي عيني بالسحر فأتبعك الى مكامن الجان ان كنت من عرائسها . ضعي يدك الخفيّة على قلبي وامتلكيني ان كنتُ حرياً باتّباعك . »

كان علي يهمس في آذان الدجى كلماته المتناسخة عن صدى نغمة متمايلة في اعماق صدره وبين ناظره ومحيطه تنسل اشباح الليل كأنها ابخرة متولّدة من مدامعه السخينة ، وعلى جدران الهياكل تتمثّل له صور سحريّة بألوان قوس قزح .

كذا مرّت ساعة وهو فرح بدموعه، مغتبط بلوعته، سامع نبضات قلبه، ناظر الى ما وراء الاشياء كأنه يرى رسوم هذه الحياة تضمحلّ ببطء ويحلّ مكانها حلم غريب بمحاسنه هائل بهواجسه، ومثل نبي يتأمل بنجوم السماء مترقّباً هبوط الوحي صار ينتظر مآتي الدقائق وتنهيداته المسرعة توقف انفاسه الهادئة، ونفسه تتركه وتسبح حوله ثم تعود اليه كأنها تبحث بين تلك الخرائب عن ضائع عزيز.

***

لاح الفجر وارتجفت السكينة لمرور نسماته وسال النور البنفسجي بين دقائق الاثير، وابتسم الفضاء ابتسامة نائم لاح له في الحلم طيف حبيبته، فظهرت العصافير من شقوق جدران الخرائب، وصارت تتنقل بين تلك الاعمدة وتترنّم وتتناجى متنبئة بمآتي النهار، فانتصب علي واضعاً يده على جبهته الملتهبة ونظر حوله بطرف جامد، ومثل آدم عندما فتحت عينيه نفخة الله صار ينظر مستغرباً كل ما يراه. ثم اقترب من نعاجه وناداها فقامت وانتفضت ومشت وراءه بهدوء نحو المروج الخضراء. سار علي امام قطيعه وعيناه الكبيرتان محدّقتان بالفضاء الصافي وعواطفه المنصرفة عن المحسوسات تبيّن له غوامض الوجود ومستتراته وتريه ما غبر من الاجيال وما بقي منها بلمحة واحدة، وبلمحة واحدة تنسيه كل ذلك وتعيد اليه الشوق والحنين، فيجد ذاته منحجباً عن روح روحه انحجاب العين عن النور، فيتنهّد ومع كل تنهيدة تنسلخ شعلة من فؤاده المتقد.

بلغ الجدول المذيع بخريره سرائر الحقول فجلس على ضفته تحت اغصان الصفصاف المتدلية الى المياه كأنها تروم امتصاص عذوبتها ، وانثنت نعاجه ترتعي الاعشاب وندى الصباح يتلمع على بياض صوفها، ولم تمرّ دقيقة حتى شعر بتسارع نبضات قلبه وتضاعف اهتزازات روحه ، ومثل راقد أجفلته أشعة الشمس تحرّك وتلفّت حوله فرأى صبيّة قد ظهرت من بين الاشجار تحمل جرّة على كتفها وتتقدم على مهل نحو الغدير وقد بلّل الندى قدميها العاريتين .

ولمّا بلغت حافة الجدول وانحنت لتملأ جرّتها التفتت نحو الحافة المقابلة فالتقت عيناها بعيني علي فشهقت ورمت بالجرّة ثم تراجعت قليلاً الى الوراء وشخصت به شخوص ضائع وجد من يعرفه . . . مرّت دقيقة كانت ثوانيها مثل مصابيح تهدي قلبيهما الى قلبيهما مبتدعة من السكينة انغاماً غريبة تعيد الى نفسيهما صدى تذكارات مبهمة وتبيّن الواحد منهما للآخر في غير ذلك المكان محاطاً بصور واشباح بعيدة عن ذلك الجدول وتلك الاشجار ، فكان كل منهما ينظر الى الآخر نظرة الاستعطاف ويتفرّس فيه مستلطفاً ملامحه مصغياً لتنهداته بكل ما في عواطفه من المسامع ، مناجياً ايّاه بكل ما في نفسه من الالسنة، حتى اذا ما تمّ التفاهم وتكامل التعارف بين الروحين عبر علي الجدول مجذوباً بقوّة خفيّة واقترب من الصبيّة وعانقها وقبّل شفتيها وقبّل عنقها وقبّل عينيها فلم تبدِ حراكاً بين ذراعيه كأنّ لذّة العناق قد انتزعت منها ارادتها ،ورقّة الملامسة قد اخذت منها قواها، فاستسلمت استسلام انفاس الياسمين لتموجات الهواء ،

وألقت رأسها على صدره كمتعب وجد راحة . وتنهدت تنهيدة عميقة تشير الى حدوث انبساط في فؤاد منقبض وتعلن ثورات جوانح كانت راقدة فأفاقت ، ثم رفعت رأسها ونظرت الى عينيه نظرة من يستصغر الكلام المتعارف بين البشر بجانب السكينة – لغة الارواح – نظرة من لا يرضى بأن يكون الحبّ روحاً في اجساد من الالفاظ .

مشى الحبيبان بين اشجار الصفصاف ووحدانية كليهما لسان ناطق بتوحيدهما ، ومسمع منصت لوحي المحبة ، وعين مبصرة مجد السعادة ، تتبعهما الخراف مرتعية رؤوس الاعشاب والزهور ، وتقابلهما العصافير من كل ناحية مرتلة اغاني السحر !

ولما بلغا طرف الوادي ، وكانت الشمس قد طلعت وألقت على تلك الروابي رداءً مذهباً ، جلسا بقرب صخرة يحتمي البنفسج بظلها . وبعد هنيهة نظرت الصبيّة في سواد عيني علي وقد تلاعب النسيم بشعرها كأنّ النسيم شفاه خفيّة تروم تقبيلها ، وشعرت بأنامل سحريّة تداعب لسانها وشفتيها رغم ارادتها ، فقالت وفي صوتها حلاوة جارحة :

– قد اعادت عشتروت روحينا الى هذه الحياة كيلا نحترم ملذات الحب ، ومجد الشبيبة يا حبيبي !

فأغمض علي أجفانه وقد استحضرت موسيقى كلماتها رسوم حلم طالما رآه في نومه ، وشعر بأجنحة غير منظورة قد حملته من ذلك المكان واوقفته في حجرة غريبة الشكل بجانب سرير ملقى عليه جثمان امرأة جميلة اخذ الموت بهاءها وحرارة شفتيها ، فصرخ ملتاعاً من هول

المشهد ثم فتح اجفانه فوجد تلك الصبيّة جالسة بجانبه وعلى شفتيها ابتسامة محبة وفي لحظها اشعة الحياة ، فأشرق وجهه وانتعشت روحه وتضعضعت خيالات رؤياه ونسي الماضي ومآتيه . . .

تعانق الحبيبان وشربا من خمرة القبل حتى سكرا ونام كل منهما ملتفّاً بذراعي الآخر الى ان مال الظل وايقظتهما حرارة الشمس .

مرتا البانية[1]

١

مات والدها وهي في المهد ، وماتت امها قبل بلوغها العاشرة ، فتُركت يتيمة في بيت جارٍ فقير يعيش مع رفيقته وصغاره من بذور الارض وثمارها في تلك المزرعة المنفردة بين اودية لبنان الجميلة .

مات والدها ولم يورثها غير اسمه وكوخ حقير قائم بين اشجار الجوز والحور ، وماتت امها ولم تترك لها سوى دموع الأسى وذلّ التيتّم ، فباتت غريبة في أرض مولدها ، وحيدة بين تلك الصخور العالية والاشجار المحتبكة ، وكانت تسير في كل صباح عارية القدمين رثّة الثوب وراء بقرة حلوب الى طرف الوادي حيث المرعى الخصيب، وتجلس بظلّ الأغصان مترنّمة مع العصافير ، باكية مع الجداول ، حاسدة البقرة على وفرة المآكل ، متأمّلة بنمو الزهور ورفرفة الفراش . وعندما تغيب الشمس ويضنيها الجوع ترجع نحو ذلك الكوخ وتجلس مع صبية وليّها ملتهمة خبز الذرة مع قليل من الثمار المجففة والبقول المغموسة بالخل والزيت ، ثم تفترش القش اليابس مسندة رأسها بساعديها وتنام متنهدة متمنية لو كانت الحياة كلها نوماً

---

١ نسبة الى بان وهي قرية جميلة في شمال لبنان .

عميقاً لا تقطعه الأحلام ولا تليه اليقظة . وعند مجيء الفجر ينتهرها وليثّها لقضاء حاجة فتهبّ من رقادها مرتعدة خائفة من سخطه وتعنيفه .

كذا مرّت الاعوام على مرتا المسكينة بين تلك الروابي والاودية البعيدة ، فكانت تنمو بنمو الأنصاب وتتولد في قلبها العواطف على غير معرفة منها مثلما يتولد العطر في اعماق الزهرة ، وتنتابها الأحلام والهواجس مثلما تتناوب القطعان مجاري المياه ، فصارت صبيّة ذات فكرة تشابه تربة جيدة عذراء لم تُلقِ بها المعرفة بذوراً ولا مشت عليها أقدام الاختبار ، وذات نفس كبيرة طاهرة منفيّة بحكم القدر الى تلك المزرعة حيث تنقلب الحياة مع فصول السنة كأنها ظلّ إله غير معروف جالس بين الارض والشمس .

نحن الذين صرفوا معظم العمر في المدن الآهلة نكاد لا نعرف شيئاً عن معيشة سكان القرى والمزارع المنزوية في لبنان، قد سرنا مع تيّار المدنيّة الحديثة حتى نسينا او تناسينا فلسفة تلك الحياة الجميلة البسيطة المملوءة طهراً ونقاوة ، تلك الحياة التي اذا ما تأملناها وجدناها مبتسمة في الربيع ، مثقلة في الصيف ، مستغلة في الخريف ، مرتاحة في الشتاء ، متشبّهة بأمنا الطبيعة في كل ادوارها . نحن اكثر من القرويين مالاً وهم اشرف منّا نفوساً . نحن نزرع كثيراً ولا نحصد شيئاً ، امّا هم فيحصدون ما يزرعون . نحن عبيد مطامعنا وهم ابناء قناعتهم . نحن نشرب كأس الحياة ممزوجة بمرارة اليأس والخوف والملل ، وهم يرتشفونها صافية .

بلغت مرتا السادسة عشرة وصارت نفسها مثل مرآة صقيلة تعكس

محاسن الحقول وقلبها شبيهاً بخلايا الوادي يرجع صدى كل الاصوات...
ففي يوم من ايام الخريف المملوءة بتأوه الطبيعة جلست بقرب العين المنعتقة من اسر الارض انعتاق الافكار من مخيلة الشاعر تتأمل باضطراب اوراق الاشجار المصفرّة وتلاعب الهواء بها مثلما يتلاعب الموت بأرواح البشر ، ثم تنظر نحو الزهور فتراها قد ذبلت ويبست قلوبها حتى تشققت واصبحت تستودع التراب بذورها مثلما تفعل النساء بالجواهر والحلى ايام الثورات والحروب .

وبينما هي تنظر الى الزهور والاشجار ، وتشعر معها بألم فراق الصيف، سمعت وقع حوافر على حصباء الوادي، فالتفتت واذا بفارس يتقدّم نحوها ببطء، ولما اقترب من العين وقد دلّت ملامحه وملابسه على ترف وكياسة ، ترجّل عن ظهر جواده وحيّاها بلطف ما تعوّدته من رجل قط ، ثم سألها قائلاً : « قد تهت عن الطريق المؤدية الى الساحل، فهل لك ان تهديني ايتها الفتاة ؟» فأجابت وقد وقفت منتصبة كالغصن على حافة العين : « لست ادري يا سيدي ولكني اذهب وأسأل وليّي فهو يعلم.» قالت هذه الكلمات بوجل ظاهر وقد اكسبها الحياء جمالاً ورقّة ، واذ همّت بالذهاب اوقفها الرجل وقد سرت في عروقه خمرة الشبيبة وتغيرت نظراته وقال: « لا ، لا تذهبي.» فوقفت في مكانها مستغربة شاعرة بوجود قوّة في صوته تمنعها عن الحراك . ولمّا اختلست من الحياء نظرة اليه رأته يتأمّل بها باهتمام لم تفقه له معنى ويبتسم لها بلطف سحري يكاد يبكيها لعذوبته ، وينظر بمودّة وميل الى قدميها العاريتين ومعصميها الجميلين وعنقها الاملس وشعرها

الكثيف الناعم ، ويتأمّل بافتتان وشغف كيف قد لوّحت الشمس بشرتها وقوّت الطبيعة ساعديها ، امّا هي فكانت مطرقة خجلاً لا تريد الانصراف ولا تقوى على الكلام لأسباب لا تدركها .

في ذلك المساء رجعت البقرة الحلوب وحدها الى الحظيرة ، امّا مرتا فلم ترجع ، ولمّا عاد وليّها من الحقل بحث عنها بين تلك الوهاد ولم يجدها ، فكان يناديها باسمها ولا تجيبه غير الكهوف وتأوهات الهواء بين الاشجار . فرجع مكتئباً الى كوخه واخبر زوجته فبكت بسكينة طول ذلك الليل وكانت تقول في سرّها : رأيتها مرّة في الحلم بين اظافير وحش كاسر يمزّق جسدها وهي تبتسم وتبكي !

هذا اجمال ما عرفته عن حياة مرتا في تلك المزرعة الجميلة ، وقد تخبرته من شيخ قروي عرفها مذ كانت طفلة حتى شبّت واختفت من تلك الاماكن غير تاركة خلفها سوى دموع قليلة في عيني امرأة وليّها ، وذكرى رقيقة مؤثرة تسيل مع نسيمات الصباح في ذلك الوادي ، ثم تضمحلّ كأنها لهاث طفل على بلّور النافذة .

٢

جاء خريف سنة ١٩٠٠ فعدت الى بيروت بعد ان صرفت العطلة المدرسية في شمال لبنان ، وقبل دخولي الى المدرسة قضيت اسبوعاً كاملاً اتجوّل مع اترابي في المدينة متمتعين بغبطة الحرية التي تعشقها الشبيبة وتحترمها في منازل الأهل وبين جدران المدرسة ، فكنّا اشبه بعصافير رأت ابواب الاقفاص مفتوحة امامها فصارت تشبع القلب من لذة التنقل وغبطة التغريد ، والشبيبة حلم جميل تسترق عذوبته معميات الكتب وتجعله يقظة قاسية ، فهل يجيء يوم يجمع فيه الحكماء بين احلام الشبيبة ولذة المعرفة مثلما يجمع العتاب بين القلوب المتنافرة ؟ هل يجيء يوم تصبح فيه الطبيعة معلمة ابن آدم ، والانسانية كتابه ، والحياة مدرسته ؟ هل يجيء ذلك اليوم ؟ لا ندري ، ولكننا نشعر بسيرنا الحثيث نحو الارتقاء الروحي ، وذلك الارتقاء هو ادراك جمال الكائنات بواسطة عواطف نفوسنا واستدرار السعادة بمحبتنا ذلك الجمال .

ففي عشية يوم وقد جلست على شرفة المنزل اتأمل العراك المستمرّ في ساحة المدينة ، واسمع جلبة باعة الشوارع ومناداة كل منهم عن طيب ما لديه من السلع والمآكل ، اقترب مني صبي ابن خمس يرتدي اطماراً بالية ويحمل على منكبيه طبقاً عليه طاقات الزهور ، وبصوت ضعيف يخفضه الذلّ الموروث والانكسار الأليم قال :

– أتشتري زهراً يا سيدي ؟

فنظرت الى وجهه الصغير المصفرّ ، وتأملت بعينيه المكحولتين بخيالات التعاسة والفاقة ، وفمه المفتوح قليلاً كأنه جرح عميق في صدر متوجع ، وذراعيه العاريتين النحيلتين ، وقامته الصغيرة المهزولة المنحنية على طبق الزهور كأنها غصن من الورد الأصفر الذابل بين الأعشاب النضرة ، تأملتُ بكل هذه الأشياء بلمحة مظهراً شفقتي بابتسامات هي أمرّ من الدموع ، تلك الابتسامات التي تنشقّ من اعماق قلوبنا وتظهر على شفاهنا ولو تركناها وشأنها لتصاعدت وانسكبت من مآقينا . ثم ابتعت بعض زهوره وبغيتي ابتياع محادثته لأنني شعرت بأن من وراء نظراته المحزنة قلباً صغيراً ينطوي على فصل من مأساة الفقراء الدائم تمثيلها على ملعب الأيام ، وقلّ من يهتم بمشاهدتها لأنها موجعة . ولمّا خاطبته بكلمات لطيفة استأمن واستأنس ونظر اليَّ مستغرباً لأنه مثل اترابه الفقراء لم يتعود غير خشن الكلام من أولئك الذين ينظرون غالباً الى صبية الأزقة كأشياء قذرة لا شأن لها ، وليس كنفوس صغيرة مكلومة بأسهم الدهر . وسألته اذ ذاك قائلاً :

– ما اسمك ؟

فأجاب وعيناه مطرقتان الى الأرض :

– اسمي فؤاد !

قلت : ابن من أنت واين اهلك ؟

قال : انا ابن مرتا البانيّة .

قلت : واين والدك ؟

فهزّ رأسه الصغير كمن يجهل معنى الوالد . فقلت :

– واين امك يا فؤاد ؟

قال : مريضة في البيت .

تجرّعتْ مسامعي هذه الكلمات القليلة من فم الصبي وامتصّتها عواطفي مبتدعة صوراً وأشباحاً غريبة محزنة لأني عرفت بلحظة ان مرتا المسكينة التي سمعت حكايتها من ذلك القرويّ هي الآن في بيروت مريضة . تلك الصبيّة التي كانت بالامس مستأمنة بين اشجار الأودية هي اليوم في المدينة تعاني مضض الفقر والاوجاع ، تلك اليتيمة التي صرفت شبيبتها على اكفّ الطبيعة ترعى البقر في الحقول الجميلة قد انحدرت مع جرف نهر المدينة الفاسدة وصارت فريسة بين اظفار التعاسة والشقاء .

كنت افكر واتخيّل هذه الاشياء والصبي ينظر اليّ كأنه رأى بعين نفسه الطاهرة انسحاق قلبي . ولمّا اراد الانصراف امسكت بيده قائلاً :

– سر بي الى امك لأني اريد ان اراها !

فسار امامي صامتاً متعجباً ، ومن حين الى آخر كان ينظر الى الوراء ليرى اذا كنت بالحقيقة متبعاً خطواته .

في تلك الازقة القذرة حيث يختمر الهواء بأنفاس الموت ، بين تلك

المنازل البالية حيث يرتكب الاشرار جرائمهم مختبئين بستائر الظلمة ، وفي تلك المنعطفات الملتوية الى اليمين والى الشمال التواء الافاعي السوداء كنت اسير بخوف وتهيّب وراء صبي له من حداثته ونقاوة قلبه شجاعة لا يشعر بها من كان خبيراً بمكايد أجلاف القوم في مدينة يدعوها الشرقيون عروس سوريا ودرة تاج السلاطين ، حتى اذا ما بلغنا اذيال الحي دخل الصبي بيتاً حقيراً لم تبقِ منه السنون غير جانب متداعٍ ، فدخلت خلفه وطرقات قلبي تتسارع كلما اقتربت حتى صرت في وسط غرفة رطبة الهواء ليس فيها من الاثاث غير سراج ضعيف يغالب الظلمة بسهام أشعته الصفراء ، وسرير حقير يدلّ على عوز مبرح وفقر مدقع منطرحة عليه امرأة نائمة قد حوّلت وجهها نحو الحائط كأنها تحتمي به من مظالم العالم او كأنها وجدت بين جدرانه قلباً أرقّ وألين من قلوب البشر . ولمّا اقترب الصبي منها منادياً : « يا اماه ! . . » التفتت اليه فرأته يومىء نحوي فتحركت اذ ذاك بين اللحف الرثة ، وبصوت موجع يلاحقه ألم النفس والتنهيدات المرة قالت :

— ماذا تريد ايها الرجل ؟ هل جئت لتبتاع حياتي الاخيرة وتجعلها دنسة بشهواتك ؟ اذهب عني فالأزقة مشحونة بالنساء اللواتي يبعنك اجسادهنّ ونفوسهنّ بأبخس الاثمان ، اما انا فلم يبقَ لي ما ابيعه غير فضلات انفاس متقطعة ، عمّا قريب يشتريها الموت براحة القبر !

فاقتربت من سريرها وقد آلمت كلماتها قلبي لأنها مختصر حكايتها التعسة ، وقلت متمنياً لو كانت عواطفي تسيل مع الكلام :

– لا تخافي مني يا مرتا، فأنا لم اجيء اليك كحيوان جائع بل كإنسان متوجع. انا لبناني عشت زمناً في تلك الاودية والقرى القريبة من غابة الارز . لا تخافي مني يا مرتا !

سمعت كلماتي وشعرت بأنها صادرة من اعماق نفس تتألم معها، فاهتزّت على مضجعها مثل القضبان العارية امام رياح الشتاء، ووضعت يديها على وجهها كأنها تريد ان تستر ذاتها من امام الذكرى الهائلة بحلاوتها، المرّة بجمالها . وبعد سكينة ممزوجة بالتأوّه ظهر وجهها من بين كتفيها المرتجفتين فرأيت عينين غائرتين محدقتين بشيء غير منظور منتصب في فضاء الغرفة ، وشفتين يابستين تحركهما ارتعاشات اليأس ، وعنقاً تتردّد فيه حشرجة النزع المصحوبة بأنين عميق متقطع ، وبصوت يبثه الالتماس والاستعطاف ويسترجعه الضعف والألم قالت :

– جئت محسناً مشفقاً فلتجزك السماء عنّي ان كان الاحسان على الخطاة برّاً والشفقة على المرذولين صلاحاً ، ولكنّي اطلب اليك ان تعود من حيث اتيت لأن وقوفك في هذا المكان يكسبك عاراً ومذمّة ، وحنانك عليّ يثمر لك عيباً ومهانة . ارجع قبل ان يراك احد في هذه الغرفة الدنسة المملوءة بأقذار الخنازير ، وسر مسرعاً ساتراً وجهك بأثوابك كيلا يعرفك عابرو الطريق . ان الشفقة التي تملأ نفسك لا تعيد اليّ طهارتي ، ولا تمحو عيوبي ، ولا تزيل يد الموت القويّة عن قلبي . انا منفيّة بحكم تعاستي وذنوبي الى هذه الاعماق المظلمة ، فلا تدع شفقتك تدنيك من العيوب . انا كالأبرص الساكن

بين القبور فلا تقترب مني ، لأن الجامعة تحسبك دنساً وتقصيك عنها اذا فعلت . ارجع الآن ولا تذكر اسمي في تلك الأودية المقدسة ، لأن النعجة الجرباء ينكرها راعيها خوفاً على قطيعه . واذا ذكرتني قل قد ماتت مرتا البانيّة ولا تقل غير ذلك .

ثم أخذت يدي ابنها الصغيرتين وقبلتها بلهفة وقالت متنهدة :

— سوف ينظر الناس الى ولدي بعين السخرية والاحتقار قائلين : هذا ثمرة الاثم ، هذا ابن مرتا الزانية، هذا ابن العار، هذا ابن الصدف. سوف يقولون عنه اكثر من ذلك ، لأنهم عميان لا يبصرون ، وجهلاء لا يدرون أن امه قد طهّرت طفولته بأوجاعها ودموعها ، وكفّرت عن حياته بتعاستها وشقائها . سوف أموت وأتركه يتيماً بين صبيان الأزقة وحيداً في هذه الحياة القاسية ، غير تاركة له سوى ذكرى هائلة تخجله ان كان جباناً خاملاً وتهيج دمه ان كان شجاعاً عادلاً ، فإن حفظته السماء وشبّ رجلاً قوياً ساعد السماء على الذي جنى عليه وعلى امه ، وان مات وتملّص من شبكة السنين وجدني مترقّبة قدومه هناك حيث النور والراحة !

فقلت وقلبي يوحي اليّ : «لستِ كالأبرص يا مرتا وان سكنتِ بين القبور ، ولستِ دنسة وان وضعتك الحياة بين ايدي الدنسين . ان ادران الجسد لا تلامس النفس النقية ، والثلوج المتراكمة لا تميت البذور الحيّة ، وما هذه الحياة سوى بيدر أحزان تدرس عليه أغمار النفوس قبل ان تعطي غلّتها ، ولكن ويل للسنابل المتروكة خارج البيدر ، لأن نمل الأرض يحملها وطيور السماء تلتقطها ، فلا تدخل

أهراء ربّ الحقل . انتِ مظلومة يا مرتا وظالمك هو ابن القصور ، ذو المال الكثير والنفس الصغيرة . انت مظلومة ومحتقَرة ، وخير للانسان ان يكون مظلوماً من ان يكون ظالماً ، وأخلق به ان يكون شهيد ضعف الغريزة الترابية من ان يكون قوياً ساحقاً بقابضه زهور الحياة ، مشوّهاً بميوله محاسن العواطف . النفس يا مرتا هي حلقة ذهبيّة مفروطة من سلسلة الالوهية ، فقد تصهر النار الحامية هذه الحلقة وتغيّر صورتها وتمحو جمال استدارتها ، لكنها لا تحيل ذهبها الى مادة اخرى ، بل تزيده لمعاناً . ولكن ويل للهشيم اذ تأتي النار وتلتهمه وتجعله رماداً ثم تهبّ الرياح وتذريه على وجه الصحراء... اي مرتا ، انتِ زهرة مسحوقة تحت أقدام الحيوان المختبىء في الهياكل البشرية . قد داستك تلك النعال بقساوة ، لكنها لم تخفِ عطرك المتصاعد مع نواح الأرامل وصراخ اليتامى وتنهيدات الفقراء نحو السماء مصدر العدل والرحمة . تعزّي يا مرتا بكونك زهرة مسحوقة ولستِ قدماً ساحقة !

كنت اتكلّم وهي مصغية وقد انارت التعزية وجهها المصفرّ مثلما تنير أشعة المغرب اللطيفة خلايا الغيوم . ثم أومأت اليّ ان اجلس على جانب السرير ، ففعلت مسائلاً ملامحها المتكلمة عن مخبّآت نفسها الحزينة . ملامح من عرف انه مائت . ملامح صبيّة في ربيع العمر قد شعرت بوقع اقدام الموت حول فراشها البالي . ملامح امرأة متروكة كانت بالأمس بين اودية لبنان الجميلة مملوءة حياة وقوّة ، فصارت اليوم مهزولة تترقّب الانعتاق من قيود الحياة . وبعد سكينة

مؤثرة جمعت فضلات قواها وقالت ودموعها تتكلم معها ونفسها تتصاعد مع انفاسها :

— نعم ، انا مظلومة ، انا شهيدة الحيوان المختبىء في الانسان ، انا زهرة مسحوقة تحت الأقدام . كنت جالسة على حافة ذلك الينبوع عندما مرّ راكباً . . . قد خاطبني بلطف ورقة وقال لي اني جميلة وانه قد احبني فلا يتركني ، وان البرية مملوءة وحشة والأودية هي مساكن الطيور وبنات آوى . . . ثم ألوى عليّ وضمني الى صدره وقبلني ، وكنت لم اذق حتى تلك الساعة طعم القبلة لأني كنت يتيمة متروكة . اردفني خلفه على ظهر الجواد وجاء بي الى بيت جميل منفرد. ثم أتى بالملابس الحريرية والعطور الزكية والمآكل اللذيذة والمشاوب الطيّبة . . . فعل كل ذلك مبتسماً ساتراً بشاعة ميوله وحيوانية مرامه بالكلام اللطيف والاشارات المستحبّة . . . وبعد ان أشبع شهواته من جسدي وأثقل بالذلّ نفسي غادرني تاركاً في احشائي شعلة حيّة ملتهبة تغذت من كبدي ونمت بسرعة ثم خرجت الى هذه الظلمة من بين دخان الأوجاع ومرارة العويل . . . وهكذا قسمت حياتي الى شطرين : شطر ضعيف متألم ، وشطر صغير يصرخ في هدوء الليل طالباً الرجوع الى الفضاء الوسيع . في ذلك البيت المنفرد تركني الظلوم ورضيعي نقاسي مضض الجوع والبرد والوحدة ، لا معين لنا غير البكاء والنحيب ، ولا سمير سوى الخوف والهواجس . . .

وعلم رفاقه بمكاني وعرفوا بعوزي وضعفي ، فجاء الواحد بعد الآخر وكلّ يبتغي ابتياع العرض بالمال ، واعطاء الخبز لقاء شرف

الجسد . . . آه كم قبضت على روحي بيدي لتقديمها للابدية ، ثم افلتّها لأنها لم تكن لي وحدي ، فشريكي بها كان ولدي الذي ابعدته السماء عنها الى هذه الحياة ، مثلما اقصتني عن الحياة وألقتني في اعماق هذه الهاوية . . . والآن هاهي الساعة قد دنت وعريسي الموت قد جاء بعد هجرانه ليقودني الى مضجعه الناعم !

وبعد سكينة عميقة تشابه مس الأرواح المتطايرة ، رفعت عينيها المحجوبتين بظل المنيّة وقالت بهدوء :

ـ ايها العدل الخفي، الكامن وراء هذه الصور المخيفة، انت، انت السامع عويل نفسي المودّعة ونداء قلبي المتهامل ، منك وحدك اطلب واليك اتضرع ، فارحمني وارعَ بيمناك ولدي ، وتسلّم بيسراك روحي !

وخارت قواها وضعفت تنهداتها ، ونظرت الى ابنها نظرة حزن وحنو ، ثم ميّلت عينيها ببطء ، وبصوت يكاد يكون سكينة قالت: « أبانا الذي في السموات . . . ليتقدّس اسمك . . . ليأتِ ملكوتك . . . لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الارض . أغفر لنا ذنوبنا . »

وانقطع صوتها ، وبقيت شفتاها متحركتين هنيهة وبوقوفهما همدت كل حركة في جسدها . ثم اختلجت وتأوّهت وابيضّ وجهها وفاضت روحها . وظلّت عيناها محدقتين بما لا يرى .

***

عندما جاء الفجر وُضعت جثة مرتا البانيَّة في تابوت خشبي، وحملت على كتفَي فقيرين ودُفنت في حقل مهجور بعيد عن المدينة . وقد رفض الكهّان الصلاة على بقاياها ولم يقبلوا ان ترتاح عظامها في الجبانة حيث الصليب يخفر القبور ، ولم يشيّعها الى تلك الحفرة البعيدة غير ابنها وفتى آخر كانت مصائب هذه الحياة قد علمته الشفقة .

يوحنا المجنون

١

في ايام الصيف كان يوحنا يسير كل صباح الى الحقل سائقاً ثيرانه وعجوله ، حاملاً محراثه على كتفيه ، مصغياً لتغاريد الشحارير وحفيف اوراق الأغصان ، وعند الظهيرة كان يقترب من الساقية المتراكضة بين منخفضات تلك المروج الخضراء ويأكل زاده تاركاً على الاعشاب ما بقي من الخبز للعصافير . وفي المساء عندما ينتزع المغرب دقائق النور من الفضاء ، كان يعود الى البيت الحقير المشرف على القرى والمزارع في شمال لبنان ، ويجلس بسكينة مع والديه الشيخين مصغياً لأحاديثهما المملوءة بأخبار الايام شاعراً بدنو النعاس والراحة معاً .

وفي أيام الشتاء كان يتكىء مستدفئاً بقرب النار ، سامعاً تأوّه الارياح وندب العناصر ، مفكّراً بكيفيّة تتابع الفصول ، ناظراً من الكوّة الصغيرة نحو الاودية المكتسية بالثلوج ، والاشجار العارية من الاوراق كأنها جماعة من الفقراء تُركوا خارجاً بين اظفار البرد القارس والرياح الشديدة .

وفي الليالي الطويلة كان يبقى ساهراً حتى ينام والده ثم يفتح الخزانة الخشبيّة ويأتي بكتاب العهد الجديد ، ويقرأ منه سرّاً على

نور مسرجة ضعيفة ، متلفتاً بتحذُّر بين الاونة والاخرى نحو والده النائم الذي منعه عن تلاوة ذلك الكتاب لأن الكهنة ينهون بسطاء القلب عن استطلاع خفايا تعاليم يسوع ويحرمونهم من « نعم الكنيسة » اذا فعلوا .

هكذا صرف يوحنا شبيبته بين الحقل المملوء بالمحاسن والعجائب وكتاب يسوع المفعم بالنور والروح . كان سكوتاً كثير التأملات يصغي لأحاديث والديه ولا يجيب بكلمة ، ويلتقي بأترابه الفتيان ويجالسهم صامتاً ناظراً الى البعيد حيث يلتقي الشفق بازرقاق السماء . واذا ما ذهب الى الكنيسة عاد مكتئباً ، لأن التعاليم التي يسمعها من على المنابر والمذابح هي غير التي يقرأها في الانجيل ، وحياة المؤمنين مع رؤسائهم ، هي غير الحياة الجميلة التي تكلم عنها يسوع الناصري .

***

جاء الربيع واضمحلت الثلوج في الحقول والمروج ، وأصبحت بقاياها في اعالي الجبال تذوب وتسير جداول في منعطفات الاودية ، وتجتمع انهراً غزيرة تتكلم بهديرها عن يقظة الطبيعة ، فأزهرت أشجار اللوز والتفاح ، وأورقت قضبان الحور والصفصاف ، وانبتت الروابي اعشابها وازاهرها ، فتعب يوحنا من الحياة بجانب المواقد ، وعرف بأن عجوله قد ملت ضيق المرابض ، واشتاقت الى المراعي الخضراء ، لأن مخازن التبن قد شحت ، وزنابل الشعير قد نفدت . فجاء وحلها من معالفها وسار امامها الى البرية ساتراً بعباءته

كتاب العهد الجديد كيلا يراه أحد ، حتى بلغ المرجة المنبسطة على كتف الوادي بقرب حقول الدير القائم كالبرج المائل بين تلك الهضاب[1]، فتفرّقت عجوله مرتعية الاعشاب ، وجلس مستنداً الى صخرة يتأمل تارة بجمال الوادي وطوراً بسطور كتابه المتكلمة عن ملكوت السموات .

كان ذلك النهار من اواخر ايام الصوم ، وسكان تلك القرى المنقطعون عن اللحوم ، اصبحوا يترقبون بفضلات الصبر مجيء عيد الفصح . اما يوحنا ، فمثل جميع المزارعين الفقراء لم يكن يفرّق بين ايام الصيام وغيرها ، فالعمر كله كان صوماً طويلاً عنده ، وقوته لم يتجاوز قط الخبز المعجون بعرق الجبين ، والثمار المبتاعة بدم القلب ، فالانقطاع عن اللحوم والمآكل الشهية كان طبيعياً . ومشتهيات الصوم لم تكن في جسده بل في عواطفه ، لأنها تعيد الى نفسه ذكرى مأساة « ابن البشر » ونهاية حياته على الارض .

كانت العصافير ترفرف متناجية حول يوحنا ، وأسراب الحمام تتطاير مسرعة ، والزهور تتمايل مع النسيم كأنها تتحمم بأشعة الشمس ، وهو يقرأ في كتابه بتمعن ثم يرفع رأسه ويرى قبب الكنائس في المدن والقرى المنثورة على جانبي الوادي ، ويسمع طنين أجراسها فيغمض عينيه وتسبح نفسه فوق أشلاء الاجيال الى اورشليم القديمة متتبعة أقدام يسوع في الشوارع سائلة العابرين عنه فيجيبونها قائلين :

---

[1] هو دير غني في شمال لبنان واسع الأراضي ، يدعى دير القاع النبي ، يقطنه عشرات من الرهبان المعروفين بالحلبيين .

— هنا شفى العميان واقام المقعدين. وهناك ضفروا له اكليلاً من الشوك ووضعوه على رأسه — في هذا الرواق وقف يكلّم الجموع بالامثال، وفي ذاك القصر كتّفوه على العمود وبصقوا على وجهه وجلدوه — في هذا الشارع غفر للزانية خطاياها ، وفي ذاك وقع على الارض تحت اثقال صليبه .

ومرّت الساعة ويوحنا يتألم مع الاله الانسان بالجسد ، ويتمجد معه بالروح ، حتى اذا ما انتصف النهار قام من مكانه ونظر حوله فلم يرَ عجوله ، فمشى ملتفتاً الى كل ناحية مستغرباً اختفاءها في تلك المروج السهلة . ولما بلغ الطريق المنحنية بين الحقول انحناء خطوط الكفّ رأى عن بعد رجلاً بملابس سوداء واقفاً بين البساتين ، فأسرع نحوه ، ولمّا اقترب منه وعرف انه احد رهبان الدير ، حيّاه بإحناء رأسه ثم سأله قائلاً : « هل رأيت عجولاً سائرة بين هذه البساتين يا ابتاه ؟ » فنظر اليه الراهب متكلّفاً اخفاء حنقه وأجاب بخبث : « نعم رأيتها فهي هناك ، تعالَ وانظرها . » فسار يوحنا وراء الراهب حتى بلغا الدير ، فإذا بالعجول ضمن حظيرة واسعة موثقة بالحبال يخفرها أحد الرهبان وفي يده نبوت يجلدها به كيفما تحركت ، واذ همّ يوحنا ليقودها أمسك الراهب بعباءته والتفت نحو رواق الدير وصرخ بأعلى صوته : « هوذا الراعي المجرم قد قبضت عليه . » فهرول القسس والرهبان من كل ناحية يتقدمهم الرئيس وهو رجل يمتاز عن رفاقه بنحافة اثوابه وانقباض سحنته ، واحاطوا بيوحنا كالجنود المتسابقة على الفريسة ، فنظر يوحنا الى الرئيس وقال بهدوء : « ماذا فعلت لأكون مجرماً ،

ولماذا قبضتم عليّ؟» فأجابه الرئيس وقد بانت القساوة على وجهه الغضوب، وبصوت خشن أشبه بصرير المناشير قال: «قد ارتعت عجولك زرع الدير وقضمت قضبان كرومه، فقبضنا عليك لأن الراعي هو المسؤول عما تخربه مواشيه.» فقال يوحنا مستعطفاً: «هي بهائم لا عقل لها يا ابتاه، وانا فقير لا املك غير قوى ساعدي وهذه العجول، فاتركني اقودها واسير واعداً اياك بأن لا أجيء الى هذه المروج مرة اخرى.» فقال الرئيس وقد تقدم قليلاً الى الأمام ورفع يده نحو السماء: «ان الله قد وضعنا ههنا ووكل الينا حماية اراضي مختاره اليشاع العظيم، فنحن نحافظ عليها ليلاً ونهاراً بكل قوانا لانها مقدسة، وهي كالنار تحرق كل من يقترب منها، فاذا امتنعت عن محاسبة الدير انقلبت الاعشاب في أجواف عجولك سموماً آكلة، ولكن ليس من سبيل الى الامتناع لأننا نبقي بهائمك في حظيرتنا حتى تفي آخر فلس عليك.»

وهمّ الرئيس بالذهاب فأوقفه يوحنا، وقال متذللاً متوسلاً: «استحلفك يا سيدي بهذه الايام المقدسة، التي تألم فيها يسوع وبكت لأحزانها مريم، ان تتركني اذهب بعجولي. لا تكن قاسي القلب عليّ، فانا فقير مسكين والدير غني عظيم، فهو يسامح تهاملي ويرحم شيخوخة والدي.» فالتفت اليه الرئيس وقال بهزء: «لا يسامحك الدير بمثقال ذرة ايها الجاهل، فقيراً كنت أم غنياً، فلا تستحلفني بالاشياء المقدسة لأننا اعرف منك بأسرارها وخفاياها، وان شئت ان تقود عجولك من هذه المرابض فافتدها بثلاثة دنانير لقاء ما التهمت من الزرع.» فقال يوحنا بصوت مختنق: «انني لا املك بارة واحدة يا ابتاه. فاشفق

عليّ وارحم فقري . » فأجاب الرئيس بعد ان مشّط لحيته الكثيفة بأصابعه : « اذهب وبع قسماً من حقلك وعد بثلاثة دنانير ، فخير لك ان تدخل السماء بلا حقل من ان تكتسب غضب اليشاع العظيم باحتجاجك امام مذبحه ، وتهبط في الآخرة الى الجحيم حيث النار المؤبدة . »

فسكت يوحنا دقيقة وقد ابرقت عيناه وانبسط محيّاه وتبدّلت لوائح الاسترحام بملامح القوّة والارادة ، فقال بصوت تمتزج فيه نغمة المعرفة بعزم الشبيبة : « هل يبيع الفقير حقله منبت خبزه ومورد حياته ليضيف ثمنه الى خزائن الدير المفعمة بالفضة والذهب ؟ أمِن العدل ان يزداد الفقير فقراً ويموت المسكين جوعاً كيما يغفر اليشاع العظيم ذنوب بهائم جائعة ؟ » فقال الرئيس هازاً رأسه استكباراً : هكذا يقول يسوع المسيح « من له يعطى ويزاد ، ومن ليس له يؤخذ منه . »

سمع يوحنا هذه الكلمات فاضطرب قلبه في صدره ، وكبرت نفسه ، وتعالت قامته عن ذي قبل ، كأنّ الارض قد نمت تحت قدميه ، فانتشل الانجيل من جيبه كما يستلّ الجندي سيفه للمدافعة ، وصرخ قائلاً : « هكذا تتلاعبون بتعاليم هذا الكتاب ايها المراؤون . هكذا تستخدمون أقدس ما في الحياة لتعميم شرور الحياة . فويل لكم اذ يأتي « ابن البشر » ثانية ويخرب اديرتكم ويلقي حجارتها في هذا الوادي ، محرقاً بالنار مذابحكم ورسومكم وتماثيلكم ! ويل لكم من دماء يسوع الزكية ودموع امه الطاهرة ، اذ تنقلب سيلاً عليكم وتجرفكم الى أعماق الهاوية ! ويل وألف ويل لكم ايها الخاضعون لأصنام مطامعكم ، الساترون بالاثواب السوداء اسوداد مكروهاتكم ، المحرّكون

بالصلاة شفاهكم وقلوبكم جامدة كالصخور ، الراكعون بتذلل امام المذابح ونفوسكم متمردة على الله . قد قدتموني بخباثة الى هذا المكان المملوء بآثامكم ، وكمجرم قبضتم عليّ من أجل قليل من الزرع تستنبته الشمس لي ولكم على السواء ، ولما استعطفتكم باسم يسوع واستحلفتكم بأيام حزنه وأوجاعه استهزأتم بي كأنني لم اتكلم بغير الحماقة والجهالة . خذوا وابحثوا في هذا الكتاب وأروني متى لم يكن يسوع غفوراً . واقرأوا هذه المأساة السماوية واخبروني اين تكلم بغير الرحمة والرأفة ، أفي موعظته على الجبل ، ام في تعاليمه في الهيكل امام مضطهدي تلك الزانية المسكينة ، ام على الجلجلة عندما بسط ذراعيه على الصليب ليضم الجنس البشري . انظروا يا قساة القلوب الى هذه المدن والقرى الفقيرة ، ففي منازلها يتلوّى المرضى على أسرّة الأوجاع ، وفي حبوسها تفنى ايام البائسين ، وامام ابوابها يتضرّع المتسوّلون ، وعلى طرقها ينام الغرباء ، وفي مقابرها تنوح الأرامل واليتامى ، وانتم ههنا تتمتعون براحة التواني والكسل ، وتتلذذون بثمار الحقول وخمور الكروم . فلم تزوروا مريضاً ، ولم تفتقدوا سجيناً ، ولم تطعموا جائعاً ، ولم تؤووا غريباً ، ولم تعزّوا حزيناً . وليتكم تكتفون بما لديكم وتقنعون بما اغتصبتم من جدودنا باحتيالكم ، فأنتم تمدّون ايديكم كما تمدّ الافاعي رؤوسها ، وتقبضون بشدة على ما وفرته الارملة من عمل يديها وما ابقاه الفلاح لأيام شيخوخته . »

وسكت يوحنا ريثما استرجع انفاسه ثم رفع رأسه بفخر وقال بهدوء: « انتم كثار ههنا وانا وحدي. افعلوا بي ما شئتم ، فالذئاب تفترس

النعجة في ظلمة الليل لكن آثار دمائها تبقى على حصباء الوادي حتى يجيء الفجر وتطلع الشمس . »

كان يوحنا يتكلّم وفي صوته قوّة علوية توقف في ابدان الرهبان الحركة وتثير في نفوسهم الغيظ والحدة ، ومثل غربان جائعة في اقفاص ضيقة كانوا يرجفون غضباً وأسنانهم تصرف بشدة مترقبين من رئيسهم اشارة ليمزّقوه تمزيقاً ويسحقوه سحقاً ، حتى اذا ما انتهى من كلامه وسكت سكوت العاصفة بعد تكسيرها الاغصان المتشامخة والانصاب اليابسة ، صرخ الرئيس بهم قائلاً :

« اقبضوا على هذا المجرم الشقي وانزعوا منه الكتاب وجرّوه الى حجرة مظلمة من الدير ، فمن يجدّف على مختاري الله لا يغفر له ههنا ولا في الأبدية . » فهجم الرهبان على يوحنا هجوم الكواسر على الفريسة وقادوه مكتوفاً الى حجرة ضيقة واقفلوا عليه بعد ان نهكوا جسده بخشونة أكفهم ورفس أرجلهم .

في تلك الغرفة المظلمة وقف يوحنا وقفة منتصر توفّق العدو لأسره ، ونظر من الكوّة الصغيرة المطلّة على الوادي المملوء بنور النهار ، فتهلل وجهه وشعر بلذّة روحية تعانق نفسه وطمأنينة مستعذبة تملك عواطفه ، فالحجرة الضيّقة لم تسجن غير جسده ، اما نفسه فكانت حرّة تتموّج مع النسيم بين الطلول والمروج ، وأيدي الرهبان التي آلمت اعضاءه لم تمس عواطفه المستأمنة بجوار يسوع الناصري . والمرء لا تعذبه الاضطهادات اذا كان عادلاً ، ولا تفنيه المظالم اذا كان بجانب

الحقّ ، فسقراط شرب السمّ مبتسماً ، وبولس رجم فارحاً . ولكن هو الضمير الخفي نخالفه فيوجعنا ، ونخونه فيقضي علينا .

وعلم والدا يوحنا بما جرى لوحيدهما ، فجاءت امه الى الدير مستعينة بعصاها ، وترامت على قدمي الرئيس تذرف الدموع وتقبّل يديه ليرحم ابنها ويغتفر جهله . فقال لها بعد ان رفع عينيه نحو السماء كمترفع عن العالميات : « نحن نغتفر طيش ابنك ونسامح جنونه ولكن للدير حقوقاً مقدّسة لا بدّ من استيفائها . نحن نسامح بتواضعنا زلاّت الناس ، امّا البشاع العظيم فلا يسامح ولا يغفر لمن يتلفون كرومه ويرتعون زرعه . » فنظرت اليه الوالدة والدمع ينسكب على وجنتيها المتجعدتين بأيدي الشيخوخة ، ثم نزعت قلادة فضيّة من عنقها ووضعتها في يده قائلة : « ليس لديّ غير هذه القلادة يا أبتاه ، فهي عطيّة والدتي يوم اقتراني ، فليقبلها الدير كفّارة عن ذنوب وحيدي . » فأخذ الرئيس القلادة ووضعها في جيبه ثم قال ووالدة يوحنا تقبّل يديه شكراً وامتناناً : « ويل لهذا الجيل ، فقد انعكست فيه آيات الكتاب وأصبح الابناء يأكلون الحصرم والآباء يضرسون . اذهبي ايتها المرأة الصالحة وصلّي من أجل ابنك المجنون لتشفيه السماء وتعيد اليه صوابه . »

وخرج يوحنا من أسره ومشى ببطء امام عجوله بجانب امه المنحنية على عصاها تحت اثقال السنين ، ولمّا بلغ الكوخ قاد العجول الى معالفها وجلس بسكينة قرب النافذة يتأمّل اضمحلال نور النهار ، وبعد هنيهة سمع والده يهمس في أذن امه هذه الكلمات : « كم عارضتِني يا سارة عندما كنت أقول لكِ ان ولدنا مختلّ الشعور ،

والآن أراكِ لا تعترضين لأن اعماله قد حققت كلامي ، ورئيس الدير الوقور قد قال لكِ اليوم ما قلته انا منذ سنين . »

وظلّ يوحنا ناظراً نحو المغرب حيث الغيوم المتبدة متلوّنة بأشعة الشمس .

٣

جاء عيد الفصح وتبدّل الانقطاع عن المآكل بالاكثار من المشتهيات ، وكان قد تمّ بناء الهيكل الجديد المتعالي بين المساكن في مدينة بشري كصرح امير قائم بين أكواخ الرعايا . وكان القوم يترقبون قدوم احد الاساقفة ، لتكريسه وتقديس مذابحه ، ولما شعروا بدنوه خرجوا صفوفاً صفوفاً على الطريق وأدخلوه المدينة بين تهاليل الفتيان وتسابيح الكهنة وأصوات الصنوج وطنين الأجراس والنواقيس ، ولما ترجّل عن فرسه المزدانة بالسرج المزركش واللجام الفضي ، قابله الأئمة والزعماء بمستطاب الكلام ، مترحبين به بالقصائد والأناشيد المصدّرة بالمديح والمذيلة بالتبجيل ، حتى اذا ما بلغ الهيكل الجديد ارتدى الملابس الحبريّة الموشّاة بالذهب ولبس التاج المرصّع بالجواهر ، وتقلّد عصا الرعايا المنمّقة بالنقوش البديعة والحجارة الكريمة وطاف حول الهيكل منغّماً مع الكهنة الصلوات والتقاسيم ، وقد تصاعدت حوله روائح البخور الطيّبة ، وشعشعت الشموع الكثيرة ، وكان يوحنا في تلك الساعة واقفاً بين الرعاة والزارعين على رواق مرتفع يتأمل بعينيه الحزينتين هذا المشهد ، ويتنهّد بمرارة ويتأوّه

بغصّات موجعة اذ يرى من الجهـة الواحدة ملابس حريريـة مطرّزة وأواني ذهبيّة مرصّعة ، ومباخر ومشاعل فضيّة ثمينة ، ومن الأخرى جماعة من الفقراء والمساكين الذين اتوا من القرى والمزارع الصغيرة يشاهدون بهجة هذا الفصح والاحتفال بتكريس الكنيسة . من الجهة الواحدة عظمة ترتدي القطيفة والاطالس ، ومن الاخرى تعاسة تلتف بالأطمار البالية . ههنـا فئة قويّة غنيّة تمثّل الدين بالتنغيم والتعزيم ، وهناك شعب ضعيف محتقر يفرح سرّاً بقيامة يسوع من بين الأموات ويصلّي بسكينة هامساً في مسامع الأثير تنهدات حـارة صادرة من أعماق القلوب الكسيرة . ههنا رؤساء وزعماء لهم من سلطتهم حيـاة أشبه شيء بأشجـار السرو ذات الاخضرار الأبـدي ، وهنـاك بؤساء وزارعون لهـم من خضوعهم حيـاة تشابه سفينة ، ربّانها الموت وقـد كسرت الأمواج دفّتها ، ومزّقت الرياح شراعها ، فأمست في هبوط وصعود ، بين غضب اللجة وهول العاصفة . ههنـا الاستبداد القاسي ، وهناك الخضوع الأعمى . فأيهما كان مولداً للآخر ؟ هـل الاستبداد شجرة قويّة لا تنبت في غـير التربة المنخفضة ، ام هو الخضوع حقـل مهجور لا تعيش فيه غير الاشواك ؟

بهذه التأملات الاليمة وهذه الافكار المعذّبة كان يوحنـا مشغولاً وقد بكتّل زنديه على صدره كـأنّ حنجرته قـد ضاقت عن أنفـاسه فخاف ان يتمزّق صدره حناجر ومنافـذ . حتى اذا مـا انتهت حفلة التكريس وهمّ الشعب بالانصراف والتفرّق ، شعر بأنّ في الهواء روحاً تندبه واعظاً عنها ، وفي المجموع قوّة تحرّك روحه وتوقفه خطيباً

امام السمـاء والأرض. أسر ارادته فتقدّم الى طرف الرواق ورفع عينيه وأشار بيده نحو العلاء، وبصوت عظيم يستدعي المسامع ويستوقف النواظر صرخ قائلاً :

« انظر يا يسوع الناصري الجالس في قلب دائرة النور الأعـلى . أنظر من وراء القبّة الزرقـاء الى هذه الأرض التي لبست بالأمس من عناصرها رداء . أنظر ايهـا الحارث الامين، فقد خنقت اشواك الوعر أعناق الزهور التي انعشت بذورها بعرق جبينك . أنظر ايهـا الراعي الصالح، فقد نهشت مخالب الوحوش ضلوع الحمل الضعيف الذي حملته على منكبيك . أنظر فدماؤك الزكيّة قـد غارت في بطن الارض ، ودموعك السخينة قد جفّت في قلوب البشر ، وأنفاسك الحارة قـد تضعضعت امام رياح الصحراء، وأصبح هذا الحقل الذي قدّسته قدماك ساحة قتال تسحق فيهـا حوافر الاقوياء ضلوع المنطرحين ، وتنـتزع أكفّ الظالمين أرواح الضعفاء . . . ان صراخ البائسين المتصاعد من جوانب هذه الظلمة لا يسمعه الجالسون باسمك على العروش ، ونواح المحزونين لا تعيه آذان المتكلمين بتعاليمك فوق المنـابر ، فالخراف التي بعثتها من اجل كلمة الحياة قد انقلبت كواسر تمزّق بأنيابها أجنحة الخراف التي ضممتها بذراعيك ، وكلمة الحياة التي انزلتها من صدر الله قد توارت في بطون الكتب وقام مقامها ضجيج مخيف ترتعد من هوله النفوس . لقد أقاموا يا يسوع لمجـد أسمائهم كنائس ومعابد كسوها بالحرير المنسوج والذهب المذوّب ، وتركوا أجساد مختاريـك الفقراء عارية في الأزقـة البـاردة ، وملأوا الفضـاء بدخان البخـور ولهيب

الشموع ، وتركوا بطون المؤمنين بألوهيتك خالية من الخبز، وأفعموا الهواء بالتراتيل والتسابيح، فلم يسمعوا نداء اليتامى وتنهيدات الارامل. تعالَ ثانية يا يسوع الحي واطرد باعة الدين من هياكلك ، فقد جعلوها مغاور تتلوّى فيها أفاعي روغهم واحتيالهم . تعالَ وحاسب هؤلاء القياصرة، فقدا غتصبوا من الضعفاء ما لهم وما لله. تعالَ وانظر الكرمة التي غرستها يمينك، فقد أكلت جذوعها الديدان ، وسحقت عناقيدها أقدام ابن السبيل. تعالَ وانظر الذين ائتمنتهم على السلام، فقد انقسموا على ذواتهم وتخاصموا وتحاربوا ، ولم تكن أشلاء حروبهم غير نفوسنا المحزونة وقلوبنا المضنكة . . . في أعيادهم واحتفالاتهم يرفعون أصواتهم بجسارة قائلين : المجد لله في العلى وعلى الارض السلام وبالناس المسرّة . فهل يتمجّد ابوك السماوي بأن تلفظ اسمه الشفاه الاثيمة والالسنة الكاذبة ؟ وهل على الارض سلام وأبناء الشقاء في الحقول يفنون قواهم امام وجه الشمس ليطعموا فم القوي ويملأوا جوف الظالم ؟ وهل بالناس مسرّة والبؤساء ينظرون بأعين كسيرة الى الموت نظرة المغلوب الى المنقذ . ما هو السلام يا يسوع الحلو ؟ هل هو في أعين الاطفال المتكئين على صدور الامهات الجائعات في المنازل المظلمة الباردة ؟ ام في أجساد المعوزين النائمين على أسرّة حجرية يتمنون القوت الذي يرمي به قسس الدير الى خنازيرهم المسمّنة ولا يحصلون عليه؟ ما هي المسرّة يا يسوع الجميل أبأن يشتري الامير بفضلات الفضة قوى الرجال وشرف النساء ، وبأن نسكت ونبقى عبيداً بالنفس والجسد لمن يدهشون أعيننا بلمعان ذهب اوسمتهم

وبريق حجارتهم وأطالس ملابسهم ، أم بـأن نصرخ متظلّمين مندّدين فيبعثوا الينـا بأتباعهم حاملين علينا بسيوفهم وسنابك خيولهم فتنسحق أجساد نسائنا وصغارنا وتسكر الارض من مجاري دمائنا ؟ . أمدد يدك يا يسوع القوي وارحمنا لأن يد الظلوم قويّة علينا ، أو أرسل الموت ليقودنا الى القبور حيث ننـام براحة مخفورين بظل صليبك الى ساعة مجيئك الثاني لأن الحياة ليست حياة عندنا ، بل هي ظلمة تتسابق فيها الأشباح الشرّيرة ، ووادٍ تدبُّ في جوانبه الثعابين المخيفة . ولا الايام أيام عندنا ، بل هي أسياف سنينة يخفيها الليل بين لحف مضاجعنا ويشهرها الصباح فوق رؤوسنا عندمـا تقودنا محبة البقاء الى الحقول . ترأف يا يسوع على هذه الجموع المنضمّة باسمك في يوم قيامتـك من بين الاموات وارحم ذلهم وضعفهم . »

كان يوحنـا يناجي السمـاء والشعب حوله بـين مستحسن راضٍ ومستقبح غاضب . فهذا يصرخ : لم يقل غير الحق فهو يتكلّم عنّـا أمـام السماء لأننـا مظلومون . وذا يقول : هو مسكون يتكلّم بلسان روحٍ شرّيرة . وذاك يقول : لم نسمع قـط مثل هذا الهذيان من آبائنا وجدودنا ولا نريـد ان نسمعه الآن . وآخر يهمس في أذن قريبه : أحسست بقشعريرة سحريّة تهزّ قلبي في داخلي عندمـا سمعت صوته، فهو يتكلّم بقوّة غريبة . وغيره يجيب : نعم ولكن الرؤساء أعرَف منّا باحتياجاتنا فمن الخطإ أن نشك بهم .

وبينما هذه الاصوات تتصاعد من كل ناحية وتتآلف كهدير الامواج ثم تضيع في الهواء، جاء أحد الكهنة وقبض على يوحنا وأسلمه للشرطة

فقادوه الى دار الحاكم ، ولمّا استنطقوه لم يجب بكلمة لأنه تذكّر ان يسوع كان سكوتاً امام مضطهديه ، فأنزلوه الى سجن مظلم حيث نام بسكينة متّكئاً على الحائط الحجري .

وفي صباح النهار التالي جاء والد يوحنا وشهد امام الحاكم بجنون وحيده قائلاً : « طالما سمعته يهذي في وحدته يا سيدي ، ويتكلّم عن أشياء غريبة لا حقيقة لها، فكم سهر الليالي مناجياً السكون بألفاظ مجهولة ، منادياً خيالات الظلمة بأصوات مخيفة تقارن تعازيم العرّافين المشعوذين . سل فتيان الحي يا سيدي فقد جالسوه وعرفوا انجذاب عاقلته الى عالم بعيد ، فكانوا يخاطبونه فلا يجيب ، وان تكلّم جاءت أقواله ملتبسة لا علاقة لها بأحاديثهم . سل أمه فهي أدرى الناس بانسلاخ نفسه عن المدارك الحسيّة ، فقد شاهدته مرّات ناظراً الى الأفق بعينين زجاجيتين جامدتين وسمعته متكلّماً بشغف عن الأشجار والجداول والزهور والنجوم ، مثلما تتكلّم الأطفال عن صغائر الأمور . سل رهبان الدير فقد خاصمهم بالأمس محتقراً تنسّكهم وتعبّدهم ، كافراً بقداسة معيشتهم . وهو مجنون يا سيدي ، ولكنه شفوق عليّ وعلى أمه ، فهو يعولنا في أيام الشيخوخة ويذرف عرق جبينه من أجل الحصول على حاجتنا ، فترأف به برأفتك بنا ، واغتفر جنونه باعتبارك حنو الوالدين . »

أفرج عن يوحنا ، وشاع في تلك النواحي جنونه ، فكان الفتيان يذكرونه ساخرين بأقواله ، والصبايا ينظرن اليه بأعين آسفة قائلات: للسماء شؤون غريبة في الانسان ، فهي قد جمعت في هذا الفتى بين

جمال الوجه واختلال الشعور ، وقارنت بين أشعــة عينيه اللطيفة وظلمة نفسه المريضة .

***

بين تلــك المروج والروابي الموشّاة بالأعشاب والزهور ، كان يوحنا يجلس بقرب عجوله المنصرفة عن متاعب ابن آدم بطيب المرعى، وينظر بعينين دامعتين نحو القرى والمزارع المنتثرة على كتفي الوادي مردّداً هذه الكلمات بتنهيدات عميقة — انتم كثار وأنا وحدي ، فقولوا عنّي ما شئتم ، وافعلوا بي ما أردتم ، فالذئاب تفترس النعجة في ظلمة الليل ، ولكن آثار دمائها تبقى على حصباء الوادي حتى يجيء الفجر وتطلع الشمس .

الأرواحُ المتمرِّدة

الى الروح التي عانقت روحي . الى القلب الذي سكب اسراره في قلبي . الى اليد التي اوقدت شعلة عواطفي أرفع هذا الكتاب .

جبران

وردة الهاني

١

ما أتعس الرجل الذي يحب صبيّة من بين الصبايا ويتّخذها رفيقة لحياته ، ويهرق على قدميها عرق جبينه ودم قلبه ، ويضع بين كفّيها ثمار أتعابه وغلّة اجتهاده ، ثم ينتبه فجأة فيجد قلبها الذي حاول ابتياعه بمجاهدة الايام وسهر الليالي قد أعطي مجاناً لرجل آخر ليتمتع بمكنوناته ويسعد بسرائر محبّته .

وما أتعس المرأة التي تستيقظ من غفلة الشبيبة فتجد ذاتها في منزل رجل يغمرها بأمواله وعطاياه ، ويسربلها بالتكريم والمؤانسة ، لكنه لا يقدر أن يلامس قلبها بشعلة الحب المحيية ، ولا يستطيع ان يشبع روحها من الخمرة السماويّة التي يسكبها الله من عيني الرجل في قلب المرأة .

***

عرفت رشيد بك نعمان منذ حداثتي . وهو رجل لبناني الأصل ، بيروتي المولد والدار ، متحدّر من أسرة قديمة غنيّة موصوفة بالمحافظة على ذكر الامجاد الغابرة ، فكان مولعاً بسرد الحوادث التي تبيّن نبالة

آبائه وجدوده ، متبعاً بمعيشته عقائدهم وتقاليدهم منصرفاً الى تقليدهم في العادات والازياء الغربية المرفرفة كأسراب الطيور في فضاء الشرق .

وكان رشيد بك طيّب القلب كريم الاخلاق ، لكنه كالكثيرين من سكان سوريا ، لا ينظر الى ما وراء الاشياء ، بل الى الظاهر منها. ولا يصغي الى نغمة نفسه بل يشغل عواطفه باستماع الاصوات التي يحدثها محيطه . ويلهي أمياله ببهرجة المرئيات التي تعمي البصيرة عن اسرار الحياة وتحول النفس عن ادراك خفايا الكيان الى ملاحظة الملذات الوقتية . وكان من أولئك الرجال الذين يتسرّعون بإظهار محبّتهم أو مقتهم للناس وللأشياء ، ثم يندمون على تسرعهم بعد فوات الوقت ، عندما تصير الندامة مجلبة للسخرية والاستهزاء بدلاً من العفو والغفران .

هذه هي الصفات والاخلاق التي جعلت رشيد بك نعمان يقترن بالسيدة وردة الهاني قبل أن تضم نفسها نفسه في ظل المحبة الحقيقية التي تجعل الحياة الزوجية نعيماً .

***

غبت عن بيروت بضعة أعوام ، ولما رجعت اليها ، ذهبت لزيارة رشيد فوجدته ضعيف الجسد ، مكمد اللون ، تتمايل على سحنته المنقبضة أشباح الاحزان وتنبعث من عينيه الحزينتين نظرات موجعة تتكلم بالسكينة عن انسحاق قلبه وظلمة صدره . وبعيد ان بحثت في محيطه ولم أجد أسباب نحوله وانقباضه سألته قائلاً : ما أصابك ايها

الرجل واين تلك البشاشة التي كانت تنبعث كالشعاع من وجهك ؟ وأين ذهب ذاك السرور الذي كان ملاصقاً شبيبتك ؟ هل فصل الموت بينك وبين صديق عزيز ، ام سلبتك الليالي السوداء مالاً جمعته في الايام البيضاء ؟ قل لي بحق الصداقة ما هذه الكآبة المعانقة نفسك ، وهذا النحول المالك جسدك ؟

فنظر اليّ نظرة متأسف أرته الذكرى رسوم ايام جميلة ثم حجبتها . وبصوت تتموّج في مقاطعه معاني اليأس والقنوط قال : اذا فقد المرء صديقاً عزيزاً والتفت حوله يجد الاصدقاء الكثيرين فيتصبّر ويتعزّى ، واذا خسر الانسان مالاً وفكّر قليلاً رأى النشاط الذي أتى بالمال سيأتي بمثله فينسى ويسلو . ولكن اذا أضاع الرجل راحة قلبه فأين يجدها وبمَ يستعيض عنها ؟ يمدّ الموت يده ويصفعك بشدّة فتتوجّع ولكن لا يمرّ يوم وليلة حتى تشعر بملامس أصابع الحياة فتبتسم وتفرح . يجيئك الدهر على حين غفلة ، ويحدّق بك بأعين مستديرة مخيفة ويقبض على عنقك بأظفار محدّدة ويطرحك بقساوة على التراب ويدوسك بأقدامه الحديديّة ويذهب ضاحكاً ، ثم لا يلبث ان يعود اليك نادماً مستغفراً فينتشلك بأكفه الحريرية ويغنّي لك نشيد الامل فيطربك . مصائب كثيرة ومتاعب أليمة تأتيك مع خيالات الليل تضمحلّ أمامك بمجيء الصباح ، وأنت شاعر بعزيمتك متمسّك بآمالك . ولكن اذا كان نصيبك من الوجود طائراً تحبّه وتطعمه حبّات قلبك وتسقيه نور احداقك ، وتجعل ضلوعك له قفصاً ومهجتك عشّاً ، وبينا انت تنظر الى طائرك وتغمر ريشه بشعاع نفسك ، اذا به قد فرّ من

بين يديك وطار حتى حلّق فوق السحاب ، ثم هبط نحو قفص آخر وما من سبيل الى رجوعه فماذا تفعل اذ ذاك ايها الرجل ؟ قل لي ماذا تفعل وأين تجد الصبر والسلوان ، وكيف تحيي الآمال والأماني ؟

لفظ رشيد بك الكلمات الاخيرة بصوت مخنوق متوجّع ووقف على قدميه مرتجفاً كقصبة في مهبّ الريح ، ومدّ يديه الى الامام كأنه يريد ان يقبض بأصابعه المعوجّة على شيء ليمزّقه إرباً إرباً ، وقد تصاعد الدم الى وجهه وصبغ بشرته المتجعّدة بلون قاتم ، وكبرت عيناه وجمدت أجفانه وحدق دقيقة كأنه رأى أمامه عفريتاً قد انبثق من العدم وجاء ليميته ، ثم نظر اليّ وقد تغيّرت ملامحه بسرعة وتحوّل الغضب والحنق في جسده المهزول الى التوجّع والالم وقال باكياً : هي المرأة – المرأة التي انقذتها من عبوديّة الفقر ، وفتحت أمامها خزائني وجعلتها محسودة بين النساء على الملابس الجميلة والحلى الثمينة ، والمركبات الفخمة والخيول المطهّمة – المرأة التي أحبّها قلبي وسكب على قدميها عواطفه ، ومالت اليها نفسي فغمرتها بالمواهب والعطايا – المرأة التي كنت لها صديقاً ودوداً ورفيقاً مخلصاً وزوجاً أميناً قد خانتني وغادرتني ، وذهبت الى بيت رجل آخر لتعيش معه في ظلال الفقر ، وتشاركه بأكل الخبز المعجون بالعار ، وشرب الماء الممزوج بالذلّ والعيب – المرأة التي أحببتها – الطائر الجميل الذي أطعمته حبّات قلبي وسقيته نور حدقتيّ ، وجعلت ضلوعي له قفصاً ومهجتي عشّاً ، قد فرّ من بين يديّ وطار الى قفص آخر محبوك من قضبان العوسج ليأكل فيه الحسك والديدان ، ويشرب من جوانبه السمّ

والعلقم – الملاك الطاهر الذي أسكنته فردوس محبّتي وانعطافي ، قد انقلب شيطاناً مخيفاً وهبط الى الظلمة ليتعذّب بآثامه ويعذبني بجريمته .

وسكت الرجل وقد حجب وجهه بكفّيه كأنه يريد ان يحمي نفسه من نفسه ثم تنهّد قائلاً : هذا كل ما أقدر ان أقوله فلا تسألني أكثر من ذلك ، ولا تجعل لمصيبتي صوتاً صارخاً ، بل دعها مصيبة خرساء لعلها تنمو بالسكينة فتميتني وتريحني. فقمت من مكاني والدموع تراود أجفاني والشفقة تسحق قلبي . ثم ودعته ساكتاً لأنني لم أجد في الكلام معنى يعزّي قلبه الجريح ، ولا في الحكمة شعلة تنير نفسه المظلمة .

٢

بعد أيام التقيت لأول مرّة بالسيدة وردة الهاني في بيت حقير محاط بالزهور والاشجار . وكانت قد سمعت لفظ اسمي في منزل رشيد بك نعمان، ذلك الرجل الذي داست قلبه وتركته ميتاً بين حوافر الحياة. ولمّا رأيت عينيها المنيرتين وسمعت نغمة صوتها الرخيمة ، قلت في ذاتي : أتقدر هذه المرأة ان تكون شريرة ؟ وهل بإمكان هذا الوجه الشفاف ان يستر نفساً شنيعة وقلباً مجرماً ؟ أهذه هي الزوجة الخائنة؟ أهذه هي المرأة التي جنيتُ عليها مرّات عديدة بتصويرها لفكري كثعبان مخيف مختبىء في جسم طائر بديع الشكل ؟ ولكني رجعت وهمست في سرّي قائلاً : اذن أي شيء جعل ذلك الرجل تعساً اذا لم يكن هذا الوجه الجميل ؟ أولم نسمع ونرَ ان المحاسن الظاهرة كانت سبباً لمصائب خفيّة هائلة وأحزان عميقة أليمة ؟ أوَليس القمر الذي يسكب في قرائح الشعراء شعاعاً هو القمر الذي يهيج سكينة البحار بالمدّ والجزر ؟

جلستُ وجلستِ السيدة وردة وكأنها قد سمعتني مفكراً فلم ترد ان يطول الصراع بين حيرتي وظنوني ، فأسندت رأسها الجميل بيدها البيضاء ، وبصوت يحاكي نغمة الناي رقّة قالت : لم ألتقِ بك قبل الآن ايها الرجل ، ولكني سمعت صدى أفكارك وأحلامك من أفواه الناس فعرفتك شفوقاً على المرأة المظلومة ، رؤوفاً بضعفها ، خبيراً

بعواطفها وميولها . من أجل ذلك أريد ان ابسط لك قلبي وافتح امامك صدري ، لترى مخبآته وتخبر الناس ان شئت بأن وردة الهاني لم تكن قط امرأة خائنة شريرة . . .

كنت في الثامنة عشرة من عمري عندما قادني القدر الى رشيد بك نعمان ، وكان هو اذ ذاك قريباً من الاربعين ، فشغف بي ومال اليّ ميلاً شريفاً كما يقول الناس ، ثم جعلني زوجة له وسيدة في منزله الفخم بين خدامه الكثيرين ، فألبسني الحرير وزيّن رأسي وعنقي ومعصميّ بالجواهر والحجارة الكريمة ، وكان يعرضني كتحفة غريبة في منازل أصدقائه ومعارفه ، ويبتسم ابتسامة الفوز والانتصار عندما يرى عيون أترابه ناظرة اليّ بإعجاب واستحسان ، ويرفع رأسه تيهاً وافتخاراً اذ يسمع نساء أصحابه يتكلّمن عنّي بالاطراء والمودّة . ولكنه لم يكن يسمع قول السائل : أهذه زوجة رشيد بك أم هي صبيّة تبنّاها ؟ وقول الآخر : لو تزوّج رشيد بك في زمن الشباب لكان بكره أكبر سنّاً من وردة الهاني .

جرى كل ذلك قبل ان تستيقظ حياتي من سبات الحداثة العميق ، وقبل ان توقد الآلهة شعلة المحبّة في قلبي ، وقبل ان تنبت بذور العواطف والأميال في صدري . نعم جرى كل ذلك عندما كنت أحسب منتهى السعادة في ثوب جميل يزيّن قامتي ، ومركبة فخمة تجرني ، ورياش ثمينة تحيط بي . ولكن عندما استيقظت – عندما استيقظت وفتح النور أجفاني ، وشعرت بألسنة النار المقدّسة تلسع اضلعي وتحرقها ، وبالمجاعة الروحية تقبض على نفسي فتوجعها –

عندما استيقظت ورأيت أجنحتي تتحرّك يميناً وشمالاً وتريد النهوض بي الى سماء المحبّة ، ثم ترتجف وتنحني عجزاً بجانب سلاسل الشريعة التي قيّدت جسدي قبل ان أعرف كنـــه تلك القيود ومفاد تلك الشريعة – عندما استيقظت وشعرت بهذه الأشياء ، عرفت أن سعادة المرأة ليست بمجد الرجل وسؤدده ، ولا بكرمه وحلمه ، بل بالحبّ الذي يضمّ روحها الى روحه ، ويسكب عواطفها في كبده ، ويجعلها ويجعله عضواً واحداً من جسم الحياة وكلمة واحدة على شفتي الله – عندما بانت هذه الحقيقة الجارحة لبصيرتي رأيتني في منزل رشيد نعمان مثل لصّ سارق يأكل خبزه ثم يستتر بظلام الليل . وعرفت ان كل يوم اصرفه بقربه هو كذبة هائلة يخطّها الرياء بأحرف نارية ظاهرة على جبهتي أمام الأرض والسماء ، لأنني لم أقدر ان أهبه محبّة قلبي لقاء كرمه ، ولا ان أمنحه انعطاف نفسي ثمناً لاخلاصه وصلاحه . وقد حاولت وباطلاً حاولت ان أتعلّم محبته فلم أتعلّم ، لأن المحبّة هي قوّة تبتدع قلوبنا ، وقلوبنا لا تقدر ان تبتدعها . ثم صلّيت وتضرّعت وباطلاً تضرّعت وصلّيت في سكينة الليالي امام السماء لتولّد في أعماقي عاطفة روحيّة تقرّبني من الرجل الذي اختارته رفيقاً لي فلم تفعل السماء ، لأن المحبّة تهبط على أرواحنا بإيعاز من الله لا بطلب من البشر ، وهكذا بقيت عامين كاملين في منزل ذلك الرجل أحسد عصافير الحقل على حرّيتها ، وبنات جنسي يحسدنني على سجني . وكالثكلى الفاقدة وحيدها كنت أندب قلبي الذي ولد بالمعرفة واعتلّ بالشريعة ، وكان يموت في كل يوم جوعاً وعطشاً .

ففي يوم من تلـك الأيام السوداء نظرت من وراء الظلمة فرأيت شعاعاً لطيفـاً ينسكب من عيني فتى يسير وحده على سبل الحيـاة ، ويعيش منفرداً بـين أوراقه وكتبه في هـذا البيت الحقير . فأغمضت عينيّ كيلا أرى ذلك الشعاع وقلت لنفسي : نصيبك يا نفس ظلمة القبر، فلا تطمعي بالنور. ثم أصغيت فسمعت نغمة علويّة تهزّ جوارحي بعذوبتها وتمتلك كلّيتي بطهرها فأغلقت أذنيّ وقلت : نصيبك يا نفس صراخ الهاوية فـلا تطمعي بالأغاني . . . أغمضت أجفاني كيلا أرى ، وأغلقت أذنيّ كيلا أسمع . لكن عينيّ ظلتا تريان ذلك الشعاع وهما منطبقتان ، واذنيّ تسمعان تلك النغمة وهمـا مغلقتان ، فخفت لأول وهلة خوف فقير وجد جوهرة بقرب قصر الامير فلم يجسر ان يلتقطها لخوفه ، ولم يقدر ان يتركها لفاقته . وبكيت بـكاء ظامىء رأى الينبوع العذب محاطـاً بكواسر الغاب فارتمى على الأرض مترقـبـاً جازعاً .

وسكتت السيدة وردة دقيقة ، وقـد أغمضت عينيـهـا الكبيرتين كأنّ ذلك الماضي قـد انتصب أمامهـا فلم تجسر ان تحدّق بي وجهـاً لوجـه . ثم عادت وقالت : هـؤلاء البشر الذين يجيئون من الابدية ويعودون اليهـا قبل ان يذوقوا طعم الحيـاة الحقيقية لا يمكنهم ان يدركوا كنه أوجاع المرأة عندما تقف نفسهـا بين رجل تحبّه بإرادة السماء ، ورجل تلتصق به بشريعة الأرض . هي مأساة أليمة مكتوبة بدماء الانثى ودموعها يقرأها الرجـل ضاحكاً لأنه لا يفهمهـا ، وان فهمها انقلب ضحكه فجوراً وقساوة وأنزل على رأس المرأة من غضبه

ناراً و كبريتاً ، وملأ أذنيها لعناً وتجديفاً .

هي رواية موجعة تمثلها الليالي السوداء بين ضلوع كل امرأة تجد جسدها مقيّداً بمضجع رجل عرفته زوجاً قبل ان تعرف ما هي الزيجة. وترى روحها مرفرفة حول آخر تحبّه بكل ما في الروح من المحبّة وبكل ما في المحبّة من الطهر والجمال . هو نزاع مخيف قد ابتدأ منذ ظهور الضعف في المرأة والقوّة في الرجل ، ولا ينتهي حتى تنقضي ايام عبودية الضعف للقوّة . هي حرب هائلة بين شرائع الناس الفاسدة وعواطف القلب المقدّسة . قد طُرحتُ بالأمس في ساحتها و كدت أموت جزعاً وأذوب دموعاً ، لكنني وقفت ونزعت عنّي جبانة بنات جنسي وحللت جناحي من رُبط الضعف والاستسلام وطرت في فضاء الحبّ والحريّة ، وأنا سعيدة الآن بقرب الرجل الذي خرج وخرجتُ شعلة واحدة من يد الله قبيل ابتداء الدهور ، ولا توجد قوّة في هذا العالم تستطيع ان تسلبني سعادتي لأنها منبثقة من عناق روحين يضمهما التفاهم ويظللهما الحبّ .

ونظرت اليّ السيدة وردة نظرة معنويّة كأنها تريد ان تخترق صدري بعينيها لترى تأثير كلامها في عواطفي وتسمع صدى صوتها من بين ضلوعي . لكنني بقيت صامتاً كيلا أوقفها عن الكلام . فقالت وقد قارن صوتها بين مرارة الذكرى وحلاوة الخلاص والحريّة :

يقول لك الناس ان وردة الهاني امرأة خائنة جحود قد اتبعت شهوة قلبها وهجرت الرجل الذي رفعها اليه وجعلها سيدة في منزله . ويقولون لك هي زانية عاهرة قد اتلفت بمقابضها القذرة اكليل الزواج

المقدّس الذي ضفرته الديانة ، واتخذت عوضاً عنه اكليلاً وسخاً محبوكاً من أشواك الجحيم ، وألقت عن جسدها ثوب الفضيلة وارتدت لباس الاثم والعار . ويقولون لك اكثر من ذلك لأن أشباح جدودهم ما زالت حيّة في أجسادهم . فهم مثل كهوف الأودية الخالية يرجّعون صدى أصوات ولا يفهمون معناها . هم لا يعرفون شريعة الله في مخلوقاته ، ولا يفقهون مفاد الدين الحقيقي ، ولا يعلمون متى يكون الانسان خاطئاً او باراً ، بل ينظرون بأعينهم الضئيلة الى ظواهر الأعمال ولا يرون اسرارها ، فيقضون بالجهل ويدينون بالعماوة ، ويستوي أمامهم المجرم والبريء والصالح والشرّير .

فويل لمن يقضي وويل لمن يدين . . . انا كنت زانية وخائنة في منزل رشيد نعمان لأنه جعلني رفيقة مضجعه بحكم العادات والتقاليد قبل ان تصيّرني السماء قرينة له بشريعة الروح والعواطف . وكنت دنسة ودنيئة امام نفسي وامام الله عندما كنت اشبع جوفي من خيراته ليشبع أمياله من جسدي . أمّا الآن فصرت طاهرة نقيّة لأن ناموس الحب قد حرّرني . وصرت شريفة وأمينة لأنني ابطلت بيع جسدي بالخبز وأيامي بالملابس . نعم كنت زانية ومجرمة عندما كان الناس يحسبونني زوجة فاضلة ، واليوم صرت طاهرة وشريفة وهم يحسبونني عاهرة دنسة لأنهم يحكمون على النفوس من مآتي الاجساد ، ويقيسون الروح بمقاييس المادة .

والتفتت السيدة وردة نحو النافذة وأشارت بيمينها نحو المدينة ورفعت صوتها عن ذي قبل وقالت بلهجة الاحتقار والاشمئزاز كأنها

رأت بين الازقّة وعلى السطوح وفي الاروقة اشباح المفاسد وخيالات الانحطاط : أنظر الى هذه المنازل الجميلة والقصور الفخمة العالية حيث يسكن الاغنياء والاقوياء من البشر ، فبين جدرانها المكسوّة بالحرير المنسوج تقطن الخيانة بجانب الرياء ، وتحت سقوفها المطليّة بالذهب المذوّب يقيم الكذب بقرب التصنّع . أنظر وتأمّل جيداً بهذه البنايات التي تمثّل لك المجد والسؤدد والسعادة، فهي ليست سوى مغاور يختبىء فيها الذلّ والشقاء والتعاسة . هي قبور مكلّسة يتوارى فيها مكر المرأة الضعيفة وراء كحل العيون واحمرار الشفاه ، وتنحجب في زواياها أنانية الرجل وحيوانيته بلمعان الفضّة والذهب . هي قصور تتشامخ جدرانها تيهاً وافتخاراً نحو العلاء ، ولو كانت تشعر بأنفاس المكاره والغش السائلة عليها لتشقّقت وتبعثرت وهبطت الى الحضيض . هي منازل ينظر اليها القروي الفقير بعينين دامعتين، ولو علم أنه لا يوجد في قلوب سكانها ذرة من تلك المحبّة العذبة التي تملأ صدر رفيقته لابتسم مستهزئاً وعاد الى حقله مشفقاً .

وأمسكت السيدة وردة بيدي وقادتني الى جانب النافذة التي كانت تنظر منها نحو تلك المنازل والقصور وقالت : تعالَ فأريك خفايا هؤلاء الناس الذين لم ارضَ ان أكون مثلهم . أنظر الى ذلك القصر ذي الاعمدة الرخامية والجوانح النحاسية والنوافذ البلّورية ، ففيه يسكن رجل غنيّ ورث ماله عن والده البخيل واكتسب اخلاقه من جوانب الازقّة المفعمة بالمفاسد . وقد تزوّج منذ عامين بامرأة لم يعرف عنها شيئاً سوى ان لوالدها شرفاً موروثاً ومنزلة رفيعة بين

نبلاء البلاد. ولم ينقضِ شهر العسل حتى ملّها متضجّراً وعاد الى مسامرة بنات الهوى ، وتركها في هذا القصر مثلما يترك السكّير جرّة خمر فارغة ، فبكت وتوجّعت لأوّل وهلة ، ثم تصبّرت وسلت سلو من عرف خطأه ، وعلمت أن دموعها هي أثمن من ان تهرق على خسارة رجل مثل زوجها . وهي الآن مشغولة عن كل شيء بعشق فتى جميل الوجه حلو الحديث ، تسكب في راحتيه عواطف قلبها وتملأ جيوبه من ذهب بعلها الذي يغضّ الطرف عنها لأنها تغضّ الطرف عنه . . .
ثم انظر الى ذلك البيت المحاط بالحديقة الغنّاء ، فهو مسكن رجل ينتمي الى اسرة شريفة حكمت البلاد مدة طويلة ، وقد انخفض مقامها اليوم بتوزيع ثروتها وانصراف ابنائها الى التواني والكسل . وقد اقترن هذا الرجل منذ اعوام بفتاة قبيحة الصورة لكنها غنيّة جداً ، وبعد استيلائه على ثروتها الطائلة نسي وجودها واتخذ له خليلة حسناء وغادرها تنهش أصابعها ندماً وتذوب شوقاً وحنيناً . وهي الآن تصرف الساعات بتجعيد شعرها ، وتكحيل عينيها ، وتلوين وجهها بالمساحيق والعقاقير ، وتزيين قامتها بالاطالس والحرير ، لعلّها تحظى بنظرة من أحد زائريها ، لكنها لا تحصل الاّ على نظرات شبحها في المرآة . . . ثم انظر الى ذاك المنزل الكبير المزيّن بالنقوش والتماثيل ، فهو منزل امرأة جميلة الوجه ، خبيثة النفس ، قد مات زوجها الأول فاستأثرت بأمواله وأملاكه ثم اختارت من بين الرجال رجلاً ضعيف الجسم والارادة واتخذته بعلاً لتحتمي باسمه من ألسنة الناس وتدافع بوجوده عن منكراتها . وهي الآن بين مريديها كالنحلة تمتصّ من

الزهور ما كان حلواً ولذيذاً . وانظر الى تلك الدار ذات الاروقة الوسيعة والقناطر البديعة ، فهي مسكن رجل مادّي الاميال ، كثير المشاغل والمطامع ، وله زوجة كل ما في جسدها جميل وحسن ، وكل ما في روحها حلو واطيف ، وقد تمازجت في شخصها عناصر النفس بدقائق الجسد مثلما تتآلف في الشعر نغمة الوزن برقّة المعاني ، فهي قد كوّنت لتعيش بالحبّ وتموت به . لكنها كالكثيرات من بنات جنسها قد جنى عليها والدها قبل بلوغها الثامنة عشرة من عمرها ووضع عنقها تحت نير الزيجة الفاسدة ، وهي الآن سقيمة الجسم تذوب كالشمع بحرارة عواطفها المقيّدة ، وتضمحلّ على مهل كالرائحة الزكيّة أمام العاصفة ، وتفنى حبّاً بشيء جميل تشعر به ولا تراه ، وتصبو حنيناً الى معانقة الموت لتتخلّص من حياتها الجامدة وتتحرّر من عبوديّة رجل يصرف الايام بجمع الدنانير والليالي بعدّها ويصرّ أسنانه مجدّفاً على الساعة التي تزوّج فيها بامرأة عاقر لا تلد له ابناً ليحيي اسمه ويرث ماله وخيراته . . . ثم انظر الى ذلك البيت المنفرد بين البساتين ، فهو مسكن شاعر خيالي سامي الافكار ، روحي المذهب ، له زوجة غليظة العقل ، خشنة الطباع ، تسخر بأشعاره لأنها لا تفهمها ، وتستهزىء بأعماله لأنها غريبة ، وهو الآن مشغول عنها بمحبّة امرأة أخرى متزوّجة تتوقّد ذكاءً وتسيل رقّة وتولّد في قلبه النور بانعطافها وتوحي اليه الأقوال الخالدة بابتساماتها ونظراتها .

وسكتت السيدة وردة هنيهة وقد جلست على مقعد بجانب النافذة كأنّ نفسها قد تعبت من التجوّل في مخادع تلك المنازل الخفيّة ، ثم

عادت تقول بهدوء : هذه هي القصور التي لم ارضَ ان أكون من سكانها . هذه هي القبور التي لم أرد ان أدفن حيّة طيّ لحودها . هؤلاء هم الناس الذين تخلّصت من عوائدهم وخلعت عنّي نير جامعتهم. هؤلاء هم المتزوجون الذين يقترنون بالاجساد ويتنافرون بالروح ، ولا شفيع بهم امام الله سوى جهلهم ناموس الله . انا لا أدينهم الآن بل أشفق عليهم ، ولا اكرههم بل اكره استسلامهم عفواً الى الرياء والكذب والخيانة . ولم اكشف امامك خفايا قلوبهم واسرار معيشتهم لأنني أحب الاغتياب والنميمة ، بل فعلت ذلك لأريك حقيقة قوم كنت بالامس مثلهم فنجوت ، وأبيّن لك معيشة بشر يقولون عنّي كل كلمة شرّيرة ، لأنني خسرت صداقتهم لأربح نفسي ، وخرجت عن سبل خداعهم المظلمة وحوّلت عينيّ نحو النور حيث الاخلاص والحق والعدل . وقد نفوني الآن من جامعتهم وانا راضية ، لأن البشر لا ينفون الا من تمرّدت روحه الكبيرة على الظلم والجور . ومن لا يؤثر النفي على الاستعباد لا يكون حرّاً بما في الحريّة من الحق والواجب . انا كنت بالأمس مثل مائدة شهيّة ، وكان رشيد بك يقترب منّي عندما يشعر بحاجة الى الطعام ، امّا نفسانا فتظلاّن بعيدتين كخادمين ذليلين . ولمّا رأيت المعرفة كرهتُ الاستخدام وقد حاولت الخضوع لما يدعونه نصيباً فلم أقدر ، لأن روحي أبت ان اصرف العمر كلّه راكعة امام صنم مخيف اقامته الاجيال المظلمة ودعته الشريعة . فكسرت قيودي لكنني لم ألقها عنّي حتى سمعت الحب منادياً ورأيت النفس متأهّبة للمسير .

فخرجت من منزل رشيد نعمان خروج الاسير من سجنه تاركة خلفي الحلى والحلل والخدم والمركبات وجئت بيت حبيبي الخالي من الرياش المملوء من الروح، وانا عالمة بأنني لم أفعل غير الحق والواجب، لأن مشيئة السماء ليست بأن أقطع جناحي بيدي وارتمي على الرماد حاجبة رأسي بساعدي، ساكبة حشاشتي من أجفاني قائلة هذا نصيبي من الحياة . ان السماء لا تريد ان اصرف العمر صارخة متوجّعة في الليالي قائلة متى يجيء الفجر، وعندما يجيء الفجر أقول متى ينقضي هذا النهار . ان السماء لا تريد ان يكون الانسان تعساً لأنها وضعت في أعماقه الميل الى السعادة، لأنه بسعادة الانسان يتمجّد الله . . .

هذه هي حكايتي ايها الرجل وهذا احتجاجي امام السماء والارض، وانا اردّده وأترنّم به والناس يغلقون آذانهم ولا يسمعون لأنهم يخشون ثورة أرواحهم، ويخافون ان تتزعزع اسس جامعتهم وتهبط على رؤوسهم. هذه هي العقبة التي سرت عليها حتى بلغت قمّة سعادتي، ولو جاء الموت واختطفني الآن لوقفت روحي أمام العرش الاعلى بلا خوف ولا وجل، بل بفرح وأمل، وانحلّت لفائف ضميري أمام الديّان الاعظم وبانت نقيّة كالثلج، لأنني لم أفعل غير مشيئة النفس التي فصلها الله عن ذاته، ولم اتبع غير نداء القلب وصدى أغاني الملائكة.

هذه هي روايتي التي يحسبها سكّان بيروت لعنة في فم الحياة وعلّة في جسم الهيئة الاجتماعية . ولكنّهم سوف يندمون عندما تنبّه الايام محبّة المحبّة في قلوبهم المظلمة، مثلما تستنبت الشمس الزهور من بطن الارض المملوء من بقايا الاموات فيقف اذ ذاك عابر

الطريق بجانب قبري ويلقي عليه السلام قائـلاً : ههنـا رقدت وردة الهاني التي حرَّرت عواطفها من عبوديّة الشرائع البشريّة الفاسدة لتحيا بناموس المحبّـة الشريفة . وحوَّلت وجههـا نحو الشمس كيلا ترى ظل جسدها بين الجماجم والاشواك .

ولم تنتهِ السيدة وردة من كلامها حتى فُتح الباب ودخل علينا فتى نحيل القوام ، جميل الوجه ، تنسكب من عينيه اشعة سحريّة وتسيل على شفتيه ابتسامة لطيفـة . فوقفت السيدة وردة وأمسكت بذراعه بانعطاف كلّي وقدَّمته اليّ بعـد ان لفظت اسمي مذيّلاً بكلمة لطيفة واسمه مشفوعاً بنظرة معنويّـة ، فعرفت أنـــه ذلك الشاب الذي انكرت العالم وخالفت الشرائع والتقاليد من أجله .

ثم جلسنا جميعاً صامتين لانشغال كل منّا بمعرفة رأي الآخر فيه . حتى اذا مرّت دقيقـة مملوءة من السكينة التي تستميـل النفوس الى الملأِ الاعـلى ، نظرت اليهما وقـد جلسا أحدهما بجانب الآخر فرأيت ما لم أرَه قـط ، وعرفت بلحظة معنى حكاية السيدة وردة وأدركت سر احتجاجهـا على الهيئـة الاجتماعية التي تضطهد الافراد المتمرّدين على شرائعها قبـــل ان تستفحص دواعي تمرُّدهم . رأيت روحاً واحـدة سماويّة متمثّلة امامي بجسدين يجملهما الشباب ويسربلهما الاتحاد وقد وقف بينهما اله الحبّ باسطاً جناحيه ليحميهما من لوم الناس وتعنيفهم . وجدت التفاهم الكلّي منبعثاً من وجهين شفّافين ينيرهمـا الاخلاص ويحيط بهمـا الطهر . وجدت لأول مرّة في حيـــاتي طيف السعـادة منتصباً بين رجل وامرأة يرذلهما الدين وتنبذهما الشريعة .

وبعد هنيهة وقفت وودّعتهما مظهراً بغير الكلام تأثيرات نفسي وخرجت من ذلك المنزل الحقير الذي جعلته العواطف هيكلاً للحبّ والوفاق ، وسرت بين تلك القصور والمنازل التي أظهرت لي خفاياها السيدة وردة مفكّراً بحديثها وبكل ما ينطوي تحته من المبادىء والنتائج ، لكنني لم ابلغ أطراف ذلك الحيّ حتى تذكّرت رشيد بك نعمان ، فتمثّلت لبصيرتي لوعة قنوطه وشقائه فقلت في ذاتي : هو تعس مظلوم ولكن هل تسمعه السماء اذا وقف امامها متظلّماً شاكياً وردة الهاني ؟ هل جنت عليه تلك المرأة عندما تركته واتبعت حرّية نفسها ، ام هو الذي جنى عليها عندما أخضع جسدها بالزواج قبل ان يستميل روحها بالمحبّة ؟ فمن هو الظالم من الاثنين ومن هو المظلوم ؟ ومن هو المجرم ومن هو البريء يا ترى ؟ ثم عدت قائلاً لذاتي مستفتياً اخبار الايام مستقصياً حوادثها : كثيراً ما اباح الغرور للنساء ان يتركن رجالهنّ الفقراء ويتعلقن بالرجال الاغنياء، لأن شغف المرأة ببهرجة الملابس ونعومة العيش يعمي بصيرتها ويقودها الى العار والانحطاط . فهل كانت وردة الهاني مغرورة وطامعة عندما خرجت من قصر رجل غنيّ مفعم بالحلى والحلل والرياش والخدم وذهبت الى كوخ رجل فقير لا يوجد فيه سوى صفّ من الكتب القديمة؟ وكثيراً ما يميت الجهل شرف المرأة ويحيي شهواتها فتترك بعلها مللاً وتضجّراً وتطلب ملذّات جسدها بقرب رجل آخر أكثر منها انحطاطاً وأقلّ شرفاً . فهل كانت وردة الهاني جاهلة راغبة بالملذّات الجسديّة عندما اعلنت استقلالها على رؤوس الاشهاد وانضمّت الى فتى روحيّ الاميال،

وقد كان بإمكانها ان تشبع حواسها سرّاً في منزل زوجها من هيام الفتيان الذين يستميتون ليكونوا عبيد جمالها وشهداء غرامها ؟ وردة الهاني كانت امرأة تعسة فطلبت السعادة فوجدتها وعانقتها، وهذه هي الحقيقة التي تحتقرها الجامعة الانسانيّة وتنفيها الشريعة .

همست تلك الكلمات في مسامع الاثير ثم قلت مستدركاً: ولكن أيسوغ للمرأة ان تشتري سعادتها بتعاسة بعلها ؟ فأجابتني نفسي قائلة : وهل يجوز للرجل ان يستعبد عواطف زوجته ليبقى سعيداً ؟

***

وظللت سائراً وصوت السيدة وردة يتموّج في مسامعي حتى بلغت اطراف المدينة والشمس قد مالت الى الغروب وابتدأت الحقول والبساتين تتّشح بنقاب السكينة والراحة ، والطيور تنشد صلاة المساء . فوقفت متأمّلاً ثم تنهّدت قائلاً : امام عرش الحريّة تفرح هذه الاشجار بمداعبة النسيم وامام هيبتها تبتهج بشعاع الشمس والقمر . على مسامع الحريّة تتناجى هذه العصافير وحول اذيالها ترفرف بقرب السواقي . في فضاء الحريّة تسكب هذه الزهور عطر أنفاسها وأمام عينيها تبتسم لمجيء الصباح . كل ما في الارض يحيا بناموس طبيعته ومن طبيعة ناموسه يستمدّ مجد الحريّة وافراحها . امّا البشر فمحرومون من هذه النعمة لأنهم وضعوا لأرواحهم الالهية شريعة عالميّة محدودة ، وسنّوا لأجسادهم ونفوسهم قانوناً واحداً قاسياً، واقاموا لميولهم وعواطفهم سجناً ضيّقاً مخيفاً ، وحفروا لقلوبهم

وعقوهم قبراً عميقاً مظلماً . فإذا ما قام واحد من بينهم وانفرد عن جامعتهم وشرائعهم قالوا هـذا متمرّد شرّير خليق بالنفي ، وساقـط دنس يستحق الموت . . . ولكن هـل يظل الانسان عبـداً لشرائعه الفاسدة الى انقضـاء الدهر ام تحرّره الايام ليحيـا بالروح وللروح ؟ أيبقى الانسان محدّقاً بالتراب ام يحوّل عينيه نحو الشمس كيـلا يرى ظلّ جسده بين الاشواك والجماجم ؟

صراخ القبور

١

تربّع الامير على منصّة القضاء فجلس عقلاء بلاده عن يمينه وشماله وعلى وجوههم المتجعّدة تنعكس اوجه الكتب والاسفار . وانتصب الجند حوله ممتشقين السيوف رافعين الرماح . ووقف الناس امامه بين متفرّج اتى به حبّ الاستطلاع ، ومترقّب ينتظر الحكم في جريمة قريبه، وجميعهم قد أحنوا رقابهم وخشعوا ببصائرهم وأمسكوا أنفاسهم كأنّ في عيني الامير قوّة توعز الخوف وتوحي الرعب الى نفوسهم وقلوبهم . حتى اذا ما اكتمل المجلس وأزفت ساعة الدينونة ، رفع الامير يده وصرخ قائلاً : أحضروا المجرمين امامي واحداً واحداً واخبروني بذنوبهم ومعاصيهم .

ففتح باب السجن وبانت جدرانه المظلمة مثلما تظهر حنجرة الوحش الكاسر عندما يفتح فكّيه متثائباً. وتصاعدت من جوانبه قلقلة القيود والسلاسل متآلفة مع أنين الحبساء ونحيبهم . فحوّل الحاضرون اعينهم وتطاولت اعناقهم كأنهم يريدون مسابقة الشريعة بنواظرهم ليروا فريسة الموت خارجة من أعماق ذلك القبر .

وبعد هنيهة خرج من السجن جنديان يقودان فتى مكتوف

الساعدين يتكلّم وجهه العابس وملامحه المنقبضة عن عزّة في النفس وقوّة في القلب . واوقفاه وسط المحكمة وتراجعا قليلاً الى الوراء . فحدق به الامير دقيقه ثم سأل قائلاً : ما جريمة هذا الرجل المنتصب امامنا برأس مرفوع كأنه في موقف الفخر لا في قبضة الدينونة ؟

فأجاب رجل من اعوانه قائلاً :

هو قاتل شرّير قد اعترض بالامس قائداً من قوّاد الامير وجندله صريعاً اذ كان ذاهباً بمهمّة بين القرى ، وقد قبض عليه والسيف المغمد بدماء القتيل ما زال مشهوراً في يده .

فتحرّك الامير غضباً فوق عرشه وتطايرت سهام الحنق من عينيه وصرخ بأعلى صوته قائلاً : ارجعوه الى الظلمة واثقلوا جسده بالقيود، وعندما يجيء فجر الغد اضربوا عنقه بحدّ سيفه ثم اطرحوا جثّته في البريّة لتجردها العقبان والضواري وتحمل الرياح رائحة نتانتها الى انوف اعله ومحبّيه .

أرجعوا الشاب الى السجن والناس يتبعونه بنظرات الاسف والتنهيدات العميقة لأنه كان فتى في ربيع العمر حسن المظاهر قويّ البنية .

وخرج الجنديان ثانية من السجن يقودان صبيّة جميلة الوجه ضعيفة الجسد قد وشّح معانيها اصفرار اليأس والقنوط ، وغمرت عينيها العبرات وألوت عنقها الندامة والحسرة .

فنظر اليها الامير قائلاً : وما فعلت هذه المرأة المهزولة الواقفة

امامنا وقوف الظل بجانب الحقيقة ؟

فأجابه أحد الجنود قائلاً : هي امرأة عاهرة قد فاجأها بعلها ليلاً فوجدها بين ذراعي خليلها فأسلمها للشرطة بعد ان فرّ أليفها هارباً .

فحدق الامير بها وهي مطرقة خجلاً ثم قال بشدّة وقساوة : ارجعوها الى الظلمة ومددوها على فراش من الشوك لعلها تذكر المضجع الذي دنسته بعيبها ، واسقوها الخل ممزوجاً بنقيع العلقم عساها تذكر طعم القبل المحرّمة ، وعند مجيء الفجر جروها عارية الى خارج المدينة وارجموها بالحجارة واتركوا جسدها هناك لكي تتنعم بلحمانه الذئاب وتنخر عظامه الديدان والحشرات .

توارت الصبيّة بظلمة السجن والحاضرون ينظرون اليها بين معجب بعدل الامير ، ومتأسف على جمال وجهها الكئيب ورقّة نظراتها المحزنة .

وظهر الجنديان ثالثة يقودان كهلاً ضعيفاً يسحب ركبتيه المرتعشتين كأنهما خرقتان من أطراف ثوبه البالي ، ويلتفت جزعاً الى كل ناحية ، ومن نظراته الموجعة تنبعث خيالات البؤس والفقر والتعاسة .

فالتفت الامير نحوه وقال بلهجة الاشمئزاز : وما ذنب هذا القذر الواقف كالميت بين الاحياء ؟

فأجابه أحد الجنود قائلاً: هو لص سارق قد دخل الدير ليلاً فقبض عليه الرهبان الاتقياء ووجدوا طيّ اثوابه آنية مذابحهم المقدسة .

فنظر اليه الامير نظرة النسر الجائع الى عصفور مكسور الجناحين وصرخ قائلاً : انزلوه الى اعماق الظلمة وكبلوه بالحديد ، وعند مجيء

الفجر جروه الى شجرة عالية واشنقوه بحبل من الكتان واتركوا جسده معلقاً بين الارض والسماء ، فتنثر العناصر اصابعه الاثيمة نثراً وتذري الرياح اعضاءه نتفاً .

ارجعوا اللص الى السجن والناس يهمسون بعضهم في آذان بعض قائلين : كيف تجرأ هذا الضعيف الكافر على اختلاس آنية الدير المقدسة؟

ونزل الامير عن كرسي القضاء فاتبعه العقلاء والمتشرعون وسار الجند خلفه وامامه وتبدّد شمل المتفرجين ، وخلا ذلك المكان الا من عويل المسجونين وزفرات القانطين المتمايلة كالخيالات على الجدران .

جرى كل ذلك وانا واقف هناك وقوف المرآة امام الاشباح السائرة ، مفكراً بالشرائع التي وضعها البشر للبشر ، متأملاً بما يحسبه الناس عدلاً ، متعمقاً بأسرار الحياة ، باحثاً عن معنى الكيان . حتى اذا ما تضعضعت افكاري مثلما تتوارى خطوط الشفق بالضباب خرجت من ذاك المكان قائلاً لذاتي : الاعشاب تمتصّ عناصر التراب . والخروف يلتهم الاعشاب . والذئب يفترس الخروف . ووحيد القرن يقتل الذئب . والاسد يصيد وحيد القرن . والموت يفني الاسد . فهل توجد قوّة تتغلب على الموت فتجعل سلسلة هذه المظالم عدلاً سرمدياً !.. اتوجد قوّة تحوّل جميع هذه الاسباب الكريهة الى نتائج جميلة ؟ اتوجد قوّة تقبض بكفّها على جميع عناصر الحياة وتضمّها الى ذاتها مبتسمة مثلما يُرجع البحر جميع السواقي الى اعماقه مترنماً ؟ اتوجد قوّة توقف القاتل والمقتول ، والزانية وخليلها ، والسارق والمسروق منه امام محكمة اسمى واعلى من محكمة الامير ؟

٢

وفي اليوم الثاني خرجت من المدينة وسرت بين الحقول حيث تبيح السكينة للنفس ما تسره النفس ، وبميت طهر الفضاء جراثيم اليأس والقنوط التي تولدها الشوارع الضيقة والمنازل المظلمة . ولما بلغت طرف الوادي التفت فاذا بأجواق كثيرة من العقبان والغربان والنسور تتطاير تارة وتهبط طوراً ، وقد ملأت الفضاء بنعابها وصفيرها وحفيف أجنحتها . فتقدّمت قليلاً مستطلعاً فرأيت أمامي جثة رجل معلّقة على شجرة عالية ، وجثة امرأة عارية مطروحة بين الحجارة التي رُجمت بها ، وجثة فتى غارقة بالدماء المجبولة بالتراب وقد فصل رأسها عنها .

وقفت وهول المشهد يغشي بصيرتي بنقاب كثيف مظلم، ونظرت فلم أرَ سوى خيال الموت المريع منتصباً بين الجثث الملطّخة بالدماء . واصغيت فلم أسمع غير عويل العدم ممزوجاً بنعاب الغربان الحائمة حول فريسة شرائع البشر .

ثلاثة من ابناء آدم كانوا بالامس على أحضان الحياة فأصبحوا اليوم في قبضة الموت .

ثلاثة أساؤوا بعرف البشر الى الناموس فمدّت الشريعة العمياء يدها وسحقتهم بقساوة .

ثلاثة جعلهم الجهل مجرمين لأنهم ضعفاء فجعلتهم الشريعة امواتاً

لأنها قويّة .

رجل فتك برجل آخر فقال الناس هذا قاتل ظالم ، وعندما فتك به الامير قال الناس : هذا امير عادل .

ورجل حاول ان يساب الدير فقال الناس هذا لصّ شرير ، وعندما سلبه الامير حياته قالوا : هذا امير فاضل .

وامرأة خانت بعلها فقال الناس هي زانية عاهرة . ولكن عندما سيّرها الامير عارية ورجمها على رؤوس الاشهاد قالوا : هذا امير شريف .

سفك الدماء محرّمٌ ، ولكن من حلله للأمير ؟

سلب الاموال جريمة ، ولكن من جعل سلب الارواح فضيلة ؟

خيانة النساء قبيحة ، ولكن من صيّر رجم الاجساد جميلاً ؟

أنقابل الشر بشر أعظم ونقول هذه هي الشريعة . ونقاتل الفساد بفساد اعمّ ونهتف هذا هو الناموس . ونغالب الجريمة بجريمة أكبر ونصرخ هذا هو العدل ؟

أما صرع الامير عدوّاً في غابر حياته ؟ أما سلب مالاً او عقاراً من احد تابعيه الضعفاء ؟ أما راود امرأة جميلة عن نفسها ؟ هل كان معصوماً عن هذه المحرّمات فجاز له اعدام القاتل وشنق السارق ورجم الزانية ؟

ومن هم الذين رفعوا هذا اللص على الشجرة ! أملائكة نزلوا من السماء ام رجال يغتصبون ويسرقون كل ما تصل اليه أيديهم ؟

ومن قطع رأس هذا القاتل ! أأنبياء هبطوا من العلاء ام جنود

يقتلون ويسفكون الدماء أينما حلوا ؟

ومن رجم هذه الزانيـة ! أنساك طاهرون أتوا من صوامعهم أم بشر يأتون المنكرات ويفعلون الرذائل مختبئين بستائر الظلام ؟

الشريعة — ومـا هي الشريعة ؟ من رآها نازلة مع نور الشمس من أعماق السمـاء ؟ وأي بشري رأى قلب الله فعلم مشيئته في البشر ؟ وفي أي جيل من الأجيال سار الملائكة بـين الناس قائلين : احرموا الضعفاء نور الحياة ، وافنوا الساقطين بحدّ السيف ، ودوسوا الخطـاة بأقدام من حديد ؟

وظلّت هـذه الافكار تتزاحم على فكرتي وتتساهم عواطفي حتى سمعت وطء أقدام قريبة مني ، فنظرت وإذا بصبيّة قد ظهرت من بين الاشجار واقتربت من الجثث الثلاث متحذّرة متلفّتة بخوف الى كل ناحية . حتى اذا ما رأت رأس الفتى المقطوع صرخت جزعـاً وركعت بجانبه وطوّقته بزنديها المرتجفتين ، وأخذت تستفرغ الدموع من عينيها ، وتلامس شعره الجعدي بأطراف أصابعها وتنتحب بصوت عميق جارح خارج من صميم الكبد ، ولما نهكها البكاء وغلبتها الحسرات ، أسرعت تحفر التراب بيديها ، حتى اذا ما حفرت قبراً وسيعاً جرّت اليه الفتى المصروع ومدّدته على مهل ووضعت رأسه المضرّج بالدماء بين كتفيه ، وبعد أن غمرتـه بالتراب غرست نصـل السيف الذي قطـع عنقه على قبره ، واذ همّت بالانصراف ، تقدمت نحوهـا فأجفلت وارتعشت خوفاً ثم أطرقت والدمـع السخين يتساقط كالمطر من مقلتيهـا وقالت متنهدة : اشكني الى الامير ان شئت فخير لي أن أموت وألحق بمن

خلّصني من قبضة العـار من أن أترك جسده طعامـــاً لقشاعم الطير والوحوش الكواسر . فأجبتهـا قائلاً : لا تخافي مني أيتها المسكينة ، فأنا قد ندبت حظ فتاكِ قبلك ، بـل خبريني كيف أنقذك من قبضة العار .

فقالت والغصص تقطع صوتها: جاء قائد الأمير الى حقولنا ليتقاضى الضرائب ويجمع الجزية ، ولما رآني نظر اليّ نظرة استحسان مخيفة ، ثم فرض ضريبـة باهظة على حقـل والدي الفقير يعجز الغني عن دفعهـا ، فقبض عليّ ليقادني قهراً الى صرح الامير بدلاً من الذهب، فاسترحمته بدموعي فلم يحفل ، واستحلفته بشيخوخة والدي فلم يرحم ، فصرخت مستغيثة برجال القرية فجاء هذا الشاب وهو خطيبي وخلصني من بـين يديه القاسيتين، فاستشاط غضباً وهمّ أن يفتك به فسبقه الشاب وامتشق سيفاً قديماً معلقاً على الحائط وصرعه به مدافعاً عن حياته وعن عرضي، ولكبر نفسه لم يفرّ هاربـاً كالقتلة المجرمين ، بـل لبث واقفاً بقرب جثة القائد الظلوم حتى جاء الجند وساقوه الى السجن مكبّلاً بالقيود .

قالت هـذا ، ونظرت اليّ نظرة تذيب الفؤاد وتثـير الشجون وولـّت مسرعة ورنات صوتها الموجعة تولد بين تموُّجات الاثير اهتزازاً وارتعاشاً .

وبعد هنيهة نظرت فرأيت فتى في ربيع العمر يتقدَّم ساتراً وجهه بأثوابه ، حتى اذا ما بلغ جثة المرأة الزانية وقف بقربها وخلع عباءته وستر بها أعضاءها العارية ، وأخذ يحفر الارض بخنجر كان معه ثم حملها بهدوء وواراها التراب ساكباً مع كل حفنة قطرة من أجفانه . ولما

انتهى من عمله جنى بعض الزهور النابتة هناك ووضعها على القبر منحني الرأس منخفض الطرف . وإذ همّ بالذهاب أوقفته قائلاً : ما نسبة هذه المرأة الساقطة إليك حتى سعيت مخالفاً ارادة الامير ومخاطراً بحياتك لكي تحمي جسدها المرضوض من طيور السماء الجوارح ؟

فنظر اليّ وأجفانه المقرحة من البكاء والسهر تتكلم عن شدّة حزنه ولوعته ، وبصوت مخنوق ترافقه التنهيدات الاليمة قال : أنا هو ذلك الرجل التعس الذي رُجمت من اجله – أحببتها وأحبتني مذ كنّا صغيرين نلعب بين المنازل . نمونا ونما الحب معنا حتى صار سيداً قوياً نخدمه بعواطف قلبينا فيستميلنا اليه ونهابه بسرائر روحينا فيضمنا الى صدره .

ففي يوم وقد كنت غائباً عن المدينة زوّجها والدها كرهاً من رجل تكرهه ، ولما رجعت وسمعت بالخبر تحوّلت أيامي الى ليل طويل حالك ، وصارت حياتي نزاعاً مرّاً متواصلاً . وبقيت أصارع عواطفي واغالب ميول نفسي حتى تغلّبت عليّ وقادتني مثلما يقود البصير ضريراً أعمى . فذهبت الى حبيبتي سرّاً ، وأقصى مرامي أن أرى نور عينيها وأسمع نغمة صوتها ، فوجدتها منفردة تندب حظها وترثي أيامها . فجلست والسكينة حديثنا والعفاف ثالثنا . ولم تمرّ ساعة حتى دخل زوجها فجأة ، ولما رآني أوعزت اليه نياته القذرة فقبض على عنقها الأملس بكفيه القاسيتين وصرخ بأعلى صوته : تعالوا وانظروا الزانية وعشيقها . فهرول الجيران ثم جاء الجند مستطلعين الخبر فاسلمها الى أيديهم الخشنة فاقتادوها محلولة الشعر ممزقة الاثواب . أما أنا فلم يمسني

أحد بضرر لأن الشريعة العمياء والتقاليد الفاسدة تعاقب المرأة اذا سقطت ، أما الرجل فتسامحه .

وعاد الشاب نحو المدينة ساتراً وجهه بأثوابه ولبثت أنا ناظراً متأملاً متنهداً ، وجثة اللص المشنوق ترتجف قليلاً كلما هزّ الهواء أغصان الشجرة كأنها تسترحم بحراكها أرواح الفضاء لتهبط وتمددها على صدر الارض بجانب قتيل المروءة وشهيدة الحب .

وبعد ساعة ظهرت امرأة ضعيفة الجسم ترتدي خرقاً بالية ووقفت بقرب المشنوق تقرع صدرها باكية ، ثم تسلقت الشجرة وقضمت حبل الكتان بأسنانها فسقط الميت على الارض سقوط الثوب البليل . فنزلت المرأة وحفرت قبراً بجانب القبرين ووضعته فيه . وبعد أن غمرته بالتراب أخذت قطعتين من الخشب وصنعت منهما صليباً وغرسته فوق رأسه . ولما تحوّلت نحو الوجهة التي جاءت منها اوقفتها قائلاً : ما غرّكِ ايتها المرأة فجئت تدفنين لصاً سارقاً ؟

فنظرت اليّ بعينين غارقتين مكحولتين بأشباح الكآبة والشقاء وقالت : هو زوجي الصالح ورفيقي الحنون ووالد أطفالي . خمسة أطفال يتضوّرون جوعاً أكبرهم في الثامنة وأصغرهم رضيع لم يفطم ... لم يكن زوجي لصاً بل كان زارعاً يفلح أرض الدير ويستغلها ولا يحصل من الرهبان الاّ على رغيف نتقاسمه عند المساء ولا تبقى منه لقمة الى الصباح . . .

مذ كان فتى وهو يسقي بعرق جبينه حقول الدير ويزرع عزم ساعديه في بساتينه . ولما ضعف وانتهبت أعوام العمل قواه وراودت

الامراض جسده أبعدوه قائلين : لم يعد الدير محتاجاً اليك فاذهب الآن وعندما يشبّ أبناؤك ابعثهم الينا لكي يأخذوا مكانك في الحقل. فبكى وأبكاني واسترحمهم باسم يسوع واستحلفهم بالملائكة والقديسين فلم يرحموه ولم يشفقوا عليه وعليّ وعلى صغارنا العراة الجائعين . فذهب يطلب عملاً في المدينة وعاد مطروداً لأن سكان تلك القصور لا يستخدمون الا ّ الفتيان الاقوياء. ثم جلس على قارعة الطريق مستعطياً فلم يحسن الناس اليه بل كانوا يمرون به قائلين : الصدقة لا تجوز على مغلوب التواني والكسل .

ففي ليلة ، وقد برح العوز بنا حتى صار أطفالنا يتلوون جوعاً على التراب ، والرضيع بينهم يمص ّ ثدييّ ولا يجد لبناً ، تغيّرت ملامح زوجي وذهب مستتراً بالظلام ودخل قبواً من أقبية الدير حيث يخزن الرهبان غلّة الحقول وخمر الكروم ، وحمل زنبيلاً من الدقيق على ظهره وهمّ بالرجوع الينا . لكنه لم يسر بضع خطوات حتى استيقظ القسس من رقادهم وقبضوا عليه وأوسعوه ضرباً وشتماً ، وعندما جاء الصباح أسلموه الى الجند قائلين : هو لص ّ شرّير جاء لكي يسرق آنية الدير الذهبية. فاقتاده الجند الى السجن ثم الى المشنقة ليملأوا أجواف العقبان من جسده لأنه حاول ان يملأ أجواف صغاره الجياع من فضلات الغلة التي جناها بأتعابه اذ كان خادماً للدير .

وذهبت المرأة الفقيرة ولكلامها المقطّع أشباح محزنة تتصاعد وتتسارع الى كل ناحية كأنها أعمدة من الدخان يتلاعب بها الهواء .

***

وقفت بين القبور الثلاثة وقفة مؤبّن ارتج عليه وانعقد لسانه لوعة ، فانسكب دمعه متكلماً عن عواطفه. وحاولت التفكر والتأمل فمصتني نفسي ، لأن النفس كالزهرة تضمّ أوراقها أمام الظلمة ، ولا تعطي أنفاسها لخيالات الليل .

وقفت ومن دقائق تراب تلك القبور ينبثق صراخ التظلّم انبثاق الضباب من خلايا الاودية، ويتموّج حول مسامعي ليوحي اليّ الكلام.

وقفت ساكتاً ، ولو فهم الناس ما تقوله السكينة لكانوا أقرب الى الآلهة منهم الى كواسر الغاب .

وقفت متنهداً ، ولو لامست شعلات تنهيداتي أشجار ذلك الحقل لتحرّكت وتركت أماكنها وزحفت كتائب وحاربت بقضبانها الأمير وجنوده ، وهدمت بجذوعها جدران الدير على رؤوس رهبانه .

وقفت ناظراً ، ومع نظراتي تنسكب حلاوة الشفقة ومرارة الحزن على جوانب تلك القبور الجديدة - قبر فتى دافع بحياته عن شرف عذراء ضعيفة وأنقذها من بين أظفار ذئب كاسر ، فقطعوا عنقه جزاء شجاعته ، وقد أغمدت تلك الصبيّة سيفه بتراب قبره ليبقى هناك رمزاً يتكلم أمام وجه الشمس عن مصير الرجولة في دولة الحيف والغباوة .

وقبر صبيّة لامس الحب نفسها قبل أن تغتصب المطامع جسدها ، فرجمت لأن قلبها ابى الا أن يكون أميناً حتى الموت . وقد وضع حبيبها باقة من زهور الحقل فوق جسدها الهامد لتتكلم بذبولها وفنائها

البطيء عن مصير النفوس التي يقدسها الحب بين قوم أعمتهم المادة وأخرسهم الجهل .

وقبر فقير بائس أوهت ساعديه حقول الدير فطرده الرهبان ليستعيضوا عنها بسواعد غيره . فطلب الخبز لصغاره بالعمل فلم يجده ، ثم رجاه بالتسول فلم ينله ، وعندما دفعه اليأس الى استرجاع قليل من الغلّة التي جمعها بأتعابه وعرق جبينه قبضوا عليه وفتكوا به . وقد وضعت أرملته صليباً على قبره ليستشهد في سكينة الليل نجوم السماء على ظلم رهبان يحوّلون تعاليم الناصري الى سيوف يقطعون بها الرقاب ويمزقون بحدودها السنينة أجساد المساكين والضعفاء .

وتوارت الشمس اذ ذاك وراء الشفق كأنها ملّت متاعب البشر وكرهت ظلمهم . وابتدأ المساء يحوك من خيوط الظل والسكون نقاباً دقيقاً ليلقيه على جسد الطبيعة ، فرفعت عينيّ الى العلاء وبسطت يديّ نحو القبور وما عليها من الرموز وصرخت بأعلى صوتي : هذا هو سيفك ايتها الشجاعة فقد أغمد بالتراب . وهذه هي زهورك ايها الحب فقد لفحتها النيران . وهذا هو صليبك يا يسوع الناصري فقد غمرته ظلمة الليل .

مضجع العروس

خرج العريس والعروس من الهيكل يتبعهما المهنئون الفارحون وتتقدمهما الشموع والمصابيح. ويسير حولهما الفتيان المترنمون بالاهازيج والصبايا المنشدات أغاني السرور .

بلغ الموكب منزل العريس المزدان بالرياش الثمينة والاواني المتلمعة والرياحين العطرة فاعتلى العروسان مقعداً مرتفعاً وجلس المدعوون على الطنافس الحريرية والكراسي المخملية ، حتى غصت تلك القاعة الوسيعة بأشكال الناس . وسعى الخدام بآنية الشراب فتصاعدت رنات الكؤوس متآلفة مع هتاف الغبطة ، ثم جاء الموسيقيون وجلسوا يسكرون النفوس بأنفاسهم السحرية ويبطنون الصدور بألحانهم المنسوجة مع همس أوتار العود وتنهيدات الناس وحفيف الدفوف .

ثم قامت الصبايا يرقصن ويتمايلن بقامات تلاحق مقاطع اللحن مثلما تتابع الاغصان اللينة مجاري هبوب النسيم وتنثني طيات اثوابهن الناعمة كأنها سحب بيضاء يداعبها شعاع القمر . فشخصت اليهن الابصار وسجدت لهن الرؤوس وعانقتهن أرواح الفتيان وتفطرت لجمالهن مرائر

---

* هذه حادثة جرت في شمال لبنان في النصف الاخير من الجيل التاسع عشر وقد اخبرتني بها سيدة فاضلة من تلك النواحي تنتسب الى احد اشخاص الحكاية .

الشيوخ . ثم مال الجميع يستزيدون من الشراب ويغمرون أميالهم بالخمور. فنمت الحركة وعلت الاصوات وسادت الحرية وتوارت الرزانة وتضعضعت الادمغة وتلهبت النفوس واضطربت القلوب واصبح ذلك المنزل بكل ما فيه كقيثارة مقطعة الاوتار في يد جنية غير منظورة تضرب عليها بعنف وتولد منها انغاماً جامعة بين التناسق والالتباس : فهنا فتى يبوح بسرائر حبه لفتاة أولاها الجمال تيها ودلالاً . وهناك شاب يستعد لمحادثة حسناء مستحضراً الى حافظتـه أعذب الالفاظ وأرق المعاني . وهنالك كهل يجرع الكأس وراء الكأس ويطلب بلجاجة الى المنشدين إعادة اغنية ذكّرته بأيام صبابته . في هذه القرنة امرأة تغامز بأطراف اجفانها رجلاً ينظر بمودة الى سواها . وفي تلك الزاوية سيدة قد بيض الشيب مفرقها تنظر مبتسمة نحو الصبايا لتنتقي منهن عروسة لوحيدها . وبجانب تلك النافذة زوجة قد اتخذت سكر حليلها فرصة فاقتربت من خليلها وجميعهم غارقون في بحر من الخمر والغزل مستسلمون الى تيار الغبطة والسرور متناسون حوادث الامس منصرفون عن مآتي الغد منعكفون على استثمار دقائق الحاضر .

كان يجري كل ذلك والعروس الجميلة تنظر بعينين كئيبتين الى هذا المشهد مثلما ينظر الاسير اليائس الى جدران سجنه السوداء . وتتلفت بين الآونة والاخرى نحو زاوية من زوايا تلك القاعة حيث جلس فتى في العشرين من عمره منفرداً عن الناس المغتبطين انفراد الطائر الجريح عن سربه ، مبكلاً زنديه على صدره كأنه يحول بهما بين قلبه والفرار، محدقاً بشيء غير منظور في فضاء تلك القاعة كأن ذاته المعنوية

قد انفصلت عن ذاته الحسية وسبحت في الخلاء متبعة اشباح الدجى .

انتصف الليل وتعاظمت غبطة الجماعة حتى صارت ثورة ، واختمرت ادمغتهم حتى تلجلجت ألسنتهم ، فقام العريس من مكانه وهو كهل خشن المظاهر وقد تغلب السكر على حواسه وطاف يتكلف اللطف والرقة بين الناس .

في تلك الدقيقة اومأت العروس الى صبية ان تقترب منها، فاقتربت وجلست بجانبها . وبعد ان تلفتت العروس الى كل ناحية تلفت جازع يريد ان يفشي سراً خفياً هائلاً لزّت الى الصبية وهمست في اذنها هذه الكلمات بصوت مرتعش: استحلفك يا رفيقتي بالعواطف التي ضمت نفسينا مذ كنا صغيرتين . استحلفك بكل ما هو عزيز لديك في هذه الحياة . استحلفك بمخبآت صدرك . استحلفك بالحب الذي يلامس ارواحنا ويجعلها شعاعاً . استحلفك بافراح قلبك واوجاع قلبي ان تذهبي الآن الى سليم وتطلبي اليه ان ينزل خفية الى الحديقة وينتظرني هناك بين اشجار الصفصاف. تضرعي عني يا سوسان حتى يجيب طلبي . ذكريه بالايام الغابرة ، توسلي اليه باسم الحب ، قولي له هي تعسة عمياء ، قولي له هي مائتة تريد أن تفتح قلبها امامك قبل ان يكتنفها الظلام ، قولي له هي هالكة شقية تريد ان ترى نور عينيك قبل ان تختطفها نار الجحيم ، قولي له هي خاطئة تريد ان تعترف بذنوبها وتلتمس عفوك ، اسرعي اليه وابتهلي عني امامه ولا تخافي مراقبة هؤلاء الخنازير لان الخمور قد سدت آذانهم وأعمت بصائرهم .

فقامت سوسان من جانب العروس وجلست بقرب سليم الكئيب

المنفرد وحده واخذت تستعطفه هامسة في أذنه كلمات رفيقتها ودلائل الودّ والاخلاص بادية على ملامحها وهو منحني الرأس يسمع ولا يجيب ببنت شفة . حتى اذا ما انتهت من كلامها نظر اليها نظرة ظامىء يرى الكأس في قبة الفلك، وبصوت منخفض تخاله آتياً من اعماق الارض اجابها قائلاً : سأنتظرها في الحديقة بين اشجار الصفصاف .

قال هذه الكلمات وقام من مكانه وخرج الى الحديقة .

ولم تمض بضع دقائق حتى قامت العروس واتبعته مختلسة خطواتها بين رجال فتنتهم ابنة الكروم ونساء اشغلت قلوبهن صبابة الفتيان . ولما بلغت الحديقة الموشاة باثواب الليل اسرعت ملتفتة الى الوراء . ومثل غزال جازع هارب الى كناسه من الذئاب الخاطفة تقدمت نحو اشجار الصفصاف حيث وقف ذاك الفتى . ولما رأت نفسها بجانبه ترامت عليه وطوّقت عنقه بزنديها وحدقت بعينيه ثم قالت والالفاظ تتسارع من شفتيها بسرعة الدموع من اجفانها: اسمعني يا حبيبي . اسمعني جيداً. ها قد ندمت على جهالتي وتسرعي. قد ندمت يا سليم حتى سحقت الندامة كبدي . انا احبك ولا احب سواك وسوف احبك الى منتهى العمر . قد اخبروني بأنك سلوتني وهجرتني وتعلقت بهوى غيري. اخبروني بكل ذلك يا سليم وسمموا قلبي بألسنتهم ومزقوا صدري باظافرهم وملأوا نفسي بكذبهم . قد اخبرتني نجيبة بأنك سلوتني وكرهتني وانشغفت بحبها . قد ظلمتني تلك الخبيثة واحتالت على عواطفي لكي ارضى بنسيبها عريساً، فرضيته يا سليم ولا عريس لي سواك .

والآن ، والآن قد رفع الغشاء عن عيني فجئت اليك . قد خرجت

من هذا المنزل ولن اعود اليه. قد جئت لكي اضمك بذراعي ولا توجد قوة في هذا العالم ترجعني الى ذراعي الرجل الذي زففت اليه كرهاً ويأساً . قد تركت العريس الذي اختاره لي الكذب بعلاً ، وتركت الوالد الذي اقامه القدر ولياً ، وتركت الزهور التي ضفرها الكاهن اكليلاً ، وتركت الشرائع التي حبكتها التقاليد قيوداً . قد تركت كل شيء في هذا المنزل المملوء بالسكر والخلاعة واتيت لاتبعك الى ارض بعيدة ، الى اقاصي العالم ، الى مكامن الجن ، الى قبضة الموت . تعال نسرع يا سليم من هذا المكان متسترين بوشاح الليل. هلم نسير الى الساحل ونركب سفينة تحملنـــا الى بلاد بعيدة مجهولة . تعـال نمشي الآن فـلا يجيء الفجـر الا ونحن في مـأمن من ايدي العـدو . انظر ، انظر هذه الحلى الذهبية وهذه القلائد والخواتم الثمينة ، وهذه الجواهر النفيسة ، فهي تكفل مستقبلنا وتكفي لنعيش بأثمانها كالامراء ... لماذا لا تتكلم يا سليم؟ لماذا لا تنظر اليّ؟ لماذا لا تقبّلني؟ أسامع انت صراخ قلبي وعويل نفسي؟ الا تصدق أني هجرت عريسي وأبي وامي وجئت بأثواب العرس لكي اهرب معك ؟ تكلم او هلمّ نسرع فهذه الدقائق اثمن من حبات الالماس وأغلى من تيجان الملوك .

كانت العروس تتكلم وفي صوتها نغمة اعذب من همس الحياة وامر من عويل الموت والطف من حفيف الاجنحة واعمق من انين الامواج – نغمة تتموج نبضاتها بين اليأس والامل ، واللذة والالم ، والفرح والشقاء ، وكل ما في صدر المرأة من الميول والعواطف .

اما الشاب فكان يسمع وفي داخل نفسه يتصارع الحب والشرف : ذلك الحب الذي يجعل الوعر سهلاً ، والظلام نوراً ، وذلك الشرف الذي يقف امام النفس ، ويثنيها عن رغائبها ومنازعها . ذلك الحب الذي ينزله الله على القلب ، وذلك الشرف الذي تسكبه تقاليد البشر في الدماغ .

وبعد أحيان خرساء هائلة شبيهة بالاجيال المظلمة التي تتمايل فيها الامم بين النهوض والاضمحلال ، رفع الشاب رأسه وقد تغلب شرف نفسه على ميلها وحوّل عينيه عن الصبية الخائفة المترقبة وقال بهدوء : ارجعي ايتها المرأة الى ذراعي عريسك فقد قضي الأمر ومحت اليقظة ما صورته الاحلام — اسرعي الى أحضان المسرات قبل ان تراك أعين الرقباء فيقول الناس قد خانت عريسها في ليلة العرس مثلما خانت حبيبها أيام البعاد .

فارتعشت العروس لهذه الكلمات وتململت كزهرة ذابلة أمام الريح ثم قالت متوجعة : لا أعود الى هذا المنزل وبي رمق من الحياة . قد خرجت منه الى الأبد . قد تركته وكل من فيه مثلما يترك الاسير أرض المنفى . فلا تبعدني عنك ولا تقل انني خائنة ، لان يد الحب التي مزجت روحي بروحك هي أقوى من يد الكاهن التي أسلمت جسدي الى مشيئة العريس . ها قد طوّقت ذراعيَّ حول عنقك فلا تحلهما القوات وقرّبت نفسي الى نفسك فلا يفرقهما الموت .

فقال الشاب محاولاً الخلاص من ذراعيها متكلفاً اظهار المقت والاشمئزاز : ابتعدي عني أيتها المرأة فقد سلوتك ، نعم سلوتك و كرهتك

وتعلقت بهوى غيرك ، فلم يقل الناس غير الصحيح . هل سمعت ماذا اقول؟ قد سلوتك حتى نسيت وجودك وكرهتك حتى أبت نفسي مرآك، فابتعدي عني ودعيني أذهب في سبيلي ، وعودي الى عريسك وكوني له زوجة أمينة .

فقالت الصبية متفجعة : لا ، لا أصدّق كلامك ، فأنت تحبني وقد قرأت معنى الحب في عينيك وشعرت بملامسه عندما لمست جسدك . انت تحبني وتحبني وتحبني مثلما احبك ، فأنا لا أترك هذا المكان الا بجانبك ولن أدخل هـذا المنزل وفي نفسي بقية من الارادة . قد جئت لكي أتبعك الى آخر الأرض، فسر امامي وارفع يدك واهرق دمي.

فقال الشاب وقد رفع صوته عن ذي قبل : أتركيني أيتها المرأة والا صرخت بأعلى صوتي وجمعت في هذه الحديقة اولئك الناس المدعوين الى أفراح عرسك وأريتهم عارك وجعلتك مضغة مرّة في أحناكهم ومثلاً قبيحاً على السنتهم وأوقفت نجيبة التي احبها قلبي تسخر بـك وتبتسم فارحة بانتصارها مستهزئة بانغلابك .

قال هذا وأمسك بذراعها ليبعدها عنه فتغيرت ملامحها وأبرقت عيناها وتحولت بكليتها من الاستعطاف والرجاء والتوجع الى الغضب والقساوة وصارت كلبوة فقدت اشبالها او كبحر أثارت أعماقه الزوابع ثم صرخت : من هي التي تتمتع بحبك بعدي وأي قلب يسكر بقبل شفتيك غير قلبي !

لفظت هذه الكلمات وانتشلت من بين اثوابها خنجراً سنيناً واغمدته بصدره بسرعة البرق ، فهوى وسقط على الارض كغصن قصفته العاصفة

فانحنت فوقه والخنجر في يدها يقطر دماً ، ففتح عينيه المغمورتين بظل الموت وارتعشت شفتاه وخرجت هذه الكلمات مع انفاسه الضعيفة : اقتربي الآن يا حبيبتي . اقتربي يا ليلى ولا تتركيني . الحياة اضعف من الموت والموت اضعف من الحب . اسمعي اسمعي قهقهة الفارحين بعرسك . اسمعي رنين كؤوسهم يا حبيبتي . لقد انقذتني يا ليلى من قساوة هذه القهقهة ومرارة تلك الكؤوس ، فدعيني اقبّل اليد التي كسرت قيودي . قبّلي شفتيّ . قبّلي شفتيّ اللتين تكلفتا الكذب واخفتا اسرار قلبي . أغمضي أجفاني الذابلة باصابعك المغموسة بدمي . وعندما تطير روحي في الفضاء ضعي الخنجر في يميني وقولي لهم قد انتحر يأساً وحسداً . قد أحببتك يا ليلى ولم احب سواك ولكنني رأيت تضحية قلبي وسعادتي وحياتي أفضل من الهرب بك في ليلة عرسك. قبليني يا حبيبة نفسي قبل ان يرى الناس جثتي . . . قبليني ، قبليني يا ليلى .

ووضع المصروع يده فوق قلبه المطعون ولوى عنقه وفاضت روحه !

فرفعت العروس رأسها والتفتت نحو المنزل وصرخت بصوت هائل : تعالوا ، تعالوا أيها الناس ، فهنا العرس وهذا العريس . هلموا لنريكم مضجعنا الناعم . استيقظوا أيها النيام وانتبهوا أيها السكارى واسرعوا لنريكم أسرار الحب والموت والحياة .

تموّج صراخ العروس في زوايا ذلك المنزل حاملاً كلماتها الى آذان المحتفلين المغتبطين ، فارتعشت أرواحهم ، وأصغوا هنيهة كأن الصحو قد باغت نشوتهم ، ثم تراكضوا مسرعين من أبواب المنزل ومخارجه ، وساروا متلفتين يميناً وشمالاً ، حتى اذا ما رأوا جثة المصروع والعروس

الجاثية بقربها تراجعوا مذعورين الى الوراء ولا أحد منهم يجسر على استقصاء الخبر ، كأن منظر الدماء المنبعثة من صدر القتيل ولمعان الخنجر في يد العروس قد عقد ألسنتهم وأجمد الحياة في أجسادهم .

فالتفتت العروس اليهم وقد اتشحت ملامحها بهيبة محزنة وصرخت قائلة : اقتربوا أيها الجبناء ، ولا تخافوا خيال الموت ، فهو عظيم لا يدنو من صغارتكم . اقتربوا ولا ترتجفوا جزعاً من هذا الخنجر ، فهو آلة مقدسة لا تلامس أجسادكم القذرة وصدوركم المظلمة . أنظروا هذا الفتى الجميل المتسربل بحلّة العرس – هو حبيبي وقد قتلته لأنه حبيبي – هو عريسي وأنا عروسته ، وقد بحثنا فلم نجد مضجعاً يليق بعناقنا في هذا العالم الذي جعلتموه ضيّقاً بتقاليدكم ومظلماً بجهالكم وفاسداً بلهاثكم ، ففضّلنا الذهاب الى ما وراء الغيوم . اقتربوا ايها الضعفاء الخائفون وانظروا لعلّكم ترون وجه الله منعكساً على وجهينا ، وتسمعون صوته العذب منبثقاً من قلبينا – أين هي تلك المرأة الخبيثة الحسود التي وشت اليّ بحبيبي ، وقالت انه شغف بها وسلاني وتعلق بحبها لينساني؟ قد توهّمت تلك الشريرة أنها ظفرت عندما رفع الكاهن يده فوق رأسي ورأس نسيبها . أين نجيبة المحتالة ؟ أين تلك الأفعى الجهنمية ؟ دعوها تقترب الآن وترى أنها قد جمعتكم لتفرحوا بعرس حبيبي وليس بعرس الرجل الذي اختارته لي . . .

أنتم لا تفهمون كلامي ، لأن اللّجة لا تعي أغاني الكواكب . لكنكم سوف تخبرون أبناءكم عن المرأة التي قتلت حبيبها ليلة عرسها . سوف تذكروني وتلعنونني بشفاهكم الاثيمة ، أما حفدتكم فسوف

بيار كوني لأن الغد سيكون للحق والروح .

وأنت ايها الرجل الغبي الذي استخدم الحيلة والمال والجبانة ليصيّرني له زوجة – أنت رمز هذه الأمة التعسة التي تبحث عن النور في الظلمة، وتترقب خروج الماء من الصخرة، وظهور الورد من القطرب – أنت رمز هذه البلاد المستسلمة لغباوتها استسلام الأعمى الى قائده الأعمى – أنت ممثل الرجولة الكاذبة التي تقطع الأعناق والمعاصم توصلاً الى العقود والأساور . أنا أغتفر لك صغارتك ، لأن النفس الفارحة بذهابها من هذا العالم تغتفر جميع زلاّت هذا العالم .

حينئذ رفعت العروس خنجرها نحو العلاء ، ونظير ظامىء يقرب حافة الكأس الى شفتيه أغمدته بعزم في صدرها وهبطت بجانب حبيبها نظير زنبقة قطع عنقها حدّ المنجل. فتململت النساء وصرخن صراخ الخوف والألم وأغمي على بعضهن ، وتصاعد ضجيج الرجال من كل ناحية واقتربوا من المصروعَين بوجل وهيبة .

فنظرت اليهم العروس المنازعة وقالت ونجيع الدماء ينهلُ بغزارة من صدرها البلوري : لا تقتربوا أيها العاذلون ولا تفصلوا بين جسدينا، وان حاولتم فالروح الحائمة فوق رؤوسكم تقبض على أعناقكم وتخنقكم بعنف وقساوة. دعوا هذه الارض الجائعة تلوك جسدينا لقمة واحدة ، دعوها تخفينا وتحمينا في صدرها مثلما تحمي البذور من ثلوج الشتاء حتى يجيء الربيع .

ولزّت العروس الى حبيبها وألقت شفتيها على شفتيه الباردتين وخرجت هذه الكلمات المتقطّعة مع أنفاسها الأخيرة: أنظر يا حبيبي–

أنظر يا عريس نفسي كيف وقف الحساد حول مضجعنا – أنظر عيونهم المحدّقة بنا ، واسمع صرير أسنانهم وتكسّر ضلوعهم . قد انتظرتني طويلاً يا سليم فها أنذا . قد كسرت القيود وفككت السلاسل ، فلنسرعنّ نحو الشمس فقد طال وقوفنا في الظل . ها قد امحت الرسوم واحتجبت الأشياء فلم أعد أرى سواك يا حبيبي – ها شفتاي فاقتبل أنفاسي الأخيرة . هلمّ نذهب يا سليم ، فقد رفع الحب أجنحته وسبح أمامنا نحو دائرة النور .

وألقت العروس صدرها على صدر حبيبها فامتزجت دماؤها بدمائه وأحنت رأسها على عنقه وظلّت عيناها محدّقتين بعينيه .

ولبث الناس صامتين هنيهة وقد اصفرّت وجوههم وتراخت رُكبهم ، كأن هيبة الموت قد سلبتهم القوّة والحراك .

فتقدّم اذ ذاك الكاهن الذي ضفر بتعاليمه أكاليل ذلك العرس وأشار بيمينه نحو القتيلين ونظر نحو القوم المذهولين وخاطبهم بصوت خشن قائلاً : ملعونة هي الأيدي التي تمدّ الى هذين الجسدين الملطخين بدماء الجريمة والعار . وملعونة هي الأعين التي تذرف دموع الحزن على هالكَين قد حملت الابالسة روحيهما الى الجحيم . لتبقَ جثة ابن سادوم وجثة ابنة عمورة مطروحتين على هذا التراب الدنس المجبول بدمائهما حتى تتقاسم لحمانهما الكلاب وتذري عظامهما الرياح . اذهبوا الى مساكنكم أيها الناس واهربوا من الرائحة المنتنة المتصاعدة من داخل قلبين جبلتهما الخطيئة وسحقتهما الرذيلة . تفرّقوا أيها الواقفون بقرب هاتين الجيفتين ، وانصرفوا مسرعين قبل أن تلسعكم ألسنة النار

الجهنمية ، ومن يبقَ منكم ههنا يكن محروماً ومرذولاً فلا يدخل الهيكل الذي يركع فيه المؤمنون ، ولا يشترك بالصلاة التي يقدمها المسيحيون !

فتقدّمت سوسان ، تلك الصبيّة التي بعثتها العروس رسولاً الى حبيبها ، ووقفت أمام الكاهن ونظرت اليه بعينين مغرورقتين بالدموع وقالت بشجاعة : أنا أبقى هنا أيها الكافر الأعمى ، وأنا أحرسهما حتى يجيء الفجر ، وأنا أحفر لهما قبراً تحت هذه الأغصان المتدلية . فإن منعتم عني محفراً مزّقت صدر الأرض بأصابعي ، وان ربطتم ساعدي حفرته بأسناني . اسرعوا من هذا المكان المملوء برائحة البخور واللبان ، فالخنازير تأبى استنشاق العطور الزكية ، واللصوص الخاطفة تهاب رب البيت وتخشى قدوم الصباح . اسرعوا الى مضاجعكم المظلمة لأن أغاني الملائكة المتموّجة فوق شهيدي الحب لا تدخل آذانكم المسدودة بالتراب .

وتفرّق الناس من أمام وجه الكاهن العبوس ولبثت تلك الصبيّة واقفة بقرب الجثتين الهامدتين كأنها أم رقوب تحرس طفليها في سكينة الليل .

ولما توارى الجمع وخلا ذلك المكان استسلمت للبكاء والنحيب .

خليل الكافر

١

كان الشيخ عباس بين سكان تلك القرية المنزوية في شمال لبنان كالأمير بين الرعيـة . وكان منزله القائم بين أكواخهم الحقيرة يشابه الجبّار الواقف بين الأقزام . وكانت معيشته ممتازة عن معيشتهم بميزة السعة عن العـوز ، وأخلاقه مختلفة عن أخلاقهم باختلاف القـوّة عن الضعف .

إن تكلم الشيخ عبـاس بين أولئك الفلاحين أحنـوا رؤوسهم ايجاباً ، كأنّ القوى العقلية قد انتدبته ممثلاً لها واتخذت لسانه ترجماناً عنها . وان غضب ارتجفوا جزعاً وتبددوا من أمـام وجهه ، مثلما تتراكض أوراق الخريف أمام الأرياح . وان صفع خدّ رجـل منهم ظلّ ذلك الرجل جامداً صامتاً كأنّ الضربة قد أتت من السماء ، فمن الكفر أن يتجاسر ويرفع عينيه ليرى من أنزلها . وان تبسم لرجل آخر قال الجميع ما أسعده فتى رضي عنه الشيخ عباس !

ولم يكن استسلام أولئـك المساكين الى الشيخ عبـاس وخوفهم قساوته صادرين عن ضعفهم وقوته فقط ، بـل كانا ناتجـين عن فقرهم واحتياجهم اليـه . لأن الحقول التي كانوا يحرثونهـا والأكواخ التي

يسكنونها كانت ملكه وقد ورثها عن أبيه وجده مثلما ورثوا الفقر والتعاسة عن آبائهم وجدودهم .

فكانوا يفلحون الارض ويزرعونها ويحصدونها تحت مراقبته ، ولا يحصلون لقاء أتعابهم وجهادهم الا على جزء من الغلة لا يكاد ينقذهم من أظافر الجوع. قد كان أكثرهم يحتاج الى الخبز قبل انقضاء أيام الشتاء الطويلة، فيذهب اليه الواحد بعد الآخر ويتضرّع أمامه باكياً مستعطفاً لكي يقرضه ديناراً أو مكيالاً من الحنطة ، فكان الشيخ عباس يجيب سؤلهم مسروراً لعلمه بأنه سيستوفي الدينار دينارين ، ومكيال الحنطة مكيالين عندما تجيء أيام البيادر والموسم .

وهكذا كان يبقى هؤلاء التعساء مثقلين بديون الشيخ عباس مكبلين بحاجتهم اليه خائفين غضبه طالبين رضاه .

٢

قدم الشتاء بثلوجه وعواصفه ، وخلت الحقول والأودية ، الا من الغربان الناعبة والاشجار العارية ، فلزم سكان تلك القرية أكواخهم بعد أن أشبعوا أهراء الشيخ عباس من الغلة وملأوا آنيته من عصير الكروم وأصبحوا ولا عمل لهم ، يفنون الحياة بجانب المواقد متذكرين مآتي الأجيال الغابرة مرددين على مسامع بعضهم حكايات الأيام والليالي.

انقضى كانون الأول ، وقضى العام العجوز متنهداً أنفاسه الأخيرة في الفضاء الرمادي ، وجاءت الليلة التي يتوّج فيها الدهر رأس عام الطفل ويجلسه على عرش الوجود .

توارى النور الضئيل ، وغمرت الظلمة البطاح والاودية ، وابتدأت الثلوج تنهمر بغزارة ، والعواصف تصفر وتتسارع ملعلعة من أعالي الجبال نحو المنخفضات ، حاملة الثلوج لتخزنها في الوهاد ، فترتعش لهولها الاشجار وتتململ أمامها الارض ، فمزجت الأرياح بين ما تساقط من الثلج في ذلك النهار والساقط منه في تلك الليلة ، حتى أصبحت الحقول والطلول والممرات كصفحة واحدة بيضاء يكتب عليها الموت سطوراً مبهمة ثم يمحوها ، وفصل الضباب بين القرى المنثورة على كتفي الوادي وتوارت الانوار الضئيلة التي كانت تشعشع في نوافذ البيوت والأكواخ الحقيرة . وقبض الرعب على نفوس الفلاحين ، وانزوت البهائم بقرب المعالف ، واختبأت الكلاب في القراني ، ولم يبقَ سوى

الريح تخطب وتضجّ على مسامع الكهوف والمغاور ، فيتصاعد صوتها الرهيب من أعماق الوادي تارة، وطوراً ينقضّ من أعالي قمم الجبال. فكأنّ الطبيعة قد غضبت لموت العام العجوز ، فقامت تأخذ بثأره من الحياة المختبئة في الأكواخ وتحاربها بالبرد القارس والزمهرير الشديد .

ففي هذه الليلة الهائلة ، وتحت هذا الجو الثائر ، كان فتى في الثانية والعشرين من عمره يسير على الطريق المتصاعدة بتدرُّج من دير قزحيا[1] الى قرية الشيخ عباس ، وقد أيبس البرد مفاصله ، وانتزع الجوع والخوف قواه ، وأخفت الثلوج ثوبه الأسود كأنها تريد أن تكفنه قبل أن تميته ، فكان يخطو الى الأمام والارياح تصده وترجعه الى الوراء ، كأنها أبت أن تراه في منازل الاحياء ، وتتشبث الطريق الوعرة بقدميه فيسقط ثم ينهض ثم يصرخ بأعلى صوته مستغيثاً ، ثم يخرسه البرد فيقف صامتاً مرتجفاً فكأنه العناصر المتحاربة كالأمل الضعيف بين اليأس الشديد والحزن العميق . أو كعصفور مكسور الجناحين سقط في النهر فحمله التيار الغضوب الى الاعماق .

وظلّ الشاب سائراً والموت يتبعه حتى خارت قواه وانحطت عزيمته وتجمّدت الدماء في عروقه فارتمى على الثلوج .

وصرخ صوتاً هائلاً هو بقية الحياة في جسده . صوت خائف قد رأى خيال الموت وجهاً لوجه . صوت منازع قانط أتلفته الظلمة وقبضت عليه العاصفة لترمي به الى الهاوية . صوت محبة الكيان في فضاء العدم .

---

[1] هو أغنى وأشهر دير في لبنان ، تقدر حاصلاته بألوف الدنانير ، ويسكنه عشرات من الرهبان المعروفين بالبلديين . وقزحيا لفظة سريانية معناها « فردوس الحياة » .

٣

في الجهة الشمالية من تلك القرية ، كوخ صغير منفرد بين الحقول تسكنه امرأة تدعى راحيل مع ابنتها مريم غير المتجاوزة الثامنة عشرة من سنيها . هذه المرأة هي أرملة سمعان الرامي الذي وجد قتيلاً في البرية منذ خمسة أعوام ولم يعرف قاتله بعد .

كانت راحيل مثل جميع الارامل الفقيرات تعيش بالاجتهاد والعمل مخافة الموت والفناء. فكانت تخرج أيام الحصاد وتلتقط السنابل المتروكة في الحقل ، وفي أيام الخريف كانت تجمع فضلات الاثمار المنسية في البساتين، وفي الشتاء كانت تغزل الصوف وتخيط الاثواب لقاء دريهمات قليلة أو مكيال من الذرة . وكانت جميع أعمالها مقرونة بالثبات والصبر والاعتناء . أما ابنتها مريم فكانت صبية جميلة هادئة تشاطر والدتها الأتعاب وتساهمها أعمال البيت .

ففي تلك الليلة المخيفة التي وصفناها كانت راحيل وابنتها جالستين بقرب موقد قد تغلب البرد على حرارته واكتنف الرماد جمره ، وفوق رأسيهما سراج ضعيف يبعث أشعته الصفراء الضئيلة الى قلب الظلمة مثلما تبعث الصلاة أشباح التعزية الى كبد الفقير الحزين .

انتصف الليل والمرأتان جالستان تسمعان ولولة الأرياح خارجاً ، ومن وقت الى آخر كانت الصبيّة تقف وتفتح الكوّة الصغيرة وتنظر نحو الفضاء المظلم ثم تعود الى مكانها مضطربة مرتعبة من غضب العناصر .

في تلك الدقيقة تحركت الصبيّة فجأة كأنها استيقظت من سبات نوم عميق والتفتت بوجل نحو أمها وقالت بسرعة: هل سمعت يا أماه؟ هل سمعت صوت صارخ مستغيث ؟

فرفعت الوالدة رأسها وأصغت هنيهة ثم أجابت : لا، لم أسمع سوى عويل الأرياح يا ابنتي .

فقالت الصبية : أنا قد سمعت صوتاً أعمق من هزيم الريح وأمرّ من عويل العاصفة .

قالت هذه الكلمات وانتصبت واقفة وفتحت الكوّة وأصغت دقيقة ثم قالت : قد سمعت الصراخ ثانية يا أماه . فاجابت الأم وقد أسرعت مرتاعة نحو النافذة : وأنا قد سمعت أيضاً . . . تعالي نفتح الباب وننظر . أوصدي النافذة كيلا تطفىء الريح السراج .

قالت هذا والتفّت برداء طويل وفتحت الباب وخرجت بقدم ثابتة وبقيت مريم واقفة في الباب والهواء يتلاعب بجدائل شعرها .

مشت راحيل بضع خطوات فالحة الثلج بقدميها ثم وقفت ونادت: من الصارخ ؟ أين المستغيث ؟ فلم يجبها أحد، ثم ردّدت كلماتها هذه ثانية وثالثة ، واذ لم تسمع غير صراخ الزوبعة تقدمت الى الأمام بشجاعة ملتفتة الى كل ناحية حاجبة وجهها من تموجات الريح العنيفة . ولم تسر رمية سهم حتى رأت أثر أقدام غارقة في الثلج قد أوشكت الأرياح أن تمحوها، فاتبعتها بسرعة جازع مترقب ، وبعد هنيهة نظرت فرأت أمامها جسداً مطروحاً على الثلج كرقعة سوداء على ثوب ناصع

البياض . فتقدمت وذرت الثلج عنه وأسندت رأسه على ركبتيها ووضعت يدها على صدره ، واذ شعرت بنبضات قلبه المتهاونة التفتت نحو الكوخ وصرخت قائلة : هلمّي يا مريم ، هلمّي الى معونتي فقد وجدته .

فخرجت مريم من البيت متبعة أثر أقدام والدتها مرتعشة من البرد والخوف ، حتى اذا ما بلغت المكان ورأت الشاب الملقى بلا حراك على الثلج تأوهت وصرخت بلهفة وتوجع ، فقالت الأم وقد وضعت يديها تحت ابطيه : هو حي فلا تخافي بل امسكي بأطراف أثوابه وتعالي نحمله الى البيت .

حملت المرأتان الفتى والأرياح الشديدة تصدهما والثلوج تتمسك بأقدامهما ، حتى اذا ما بلغتا به الكوخ ألقتاه بجانب الموقد وأخذت الأم تفرك أعضاءه المتجلدة والابنة تجفف بأطراف ثوبها شعره البليل وأصابعه الباردة . فلم تمرّ بضع دقائق حتى عادت اليه الحياة فتحرّك قليلاً وارتعشت أجفانه وتنهد تنهيدة عميقة بعثت الأمل بنجاته في قلبي المرأتين الشفوقين . فقالت مريم بعد أن حلت سيور حذائه المهشم وخلعت عباءته البليلة : أنظري يا أماه ، أنظري ملابسه فهي شبيهة بأثواب الرهبان . فالتفتت راحيل وقد وضعت في الموقد غمراً من القضبان اليابسة وقالت مستغربة : ان الرهبان لا يخرجون من الدير في مثل هذه الليلة المخيفة ، فأي شيء يا ترى جعل هذا المسكين يخاطر بحياته ؟

فقالت الصبية مستدركة : ولكن هو أمرد يا أماه وللرهبان لحى

كثيفة . فنظرت اليه الوالدة وقد انسكبت الرأفة الوالدية من عينيها وقالت متنهدة : جففي قدميه جيداً يا ابنتي راهباً كان أم مجرماً .

وفتحت راحيل الخزانة الخشبية وأخرجت منها جرّة صغيرة مملوءة خمراً وسكبت منها في اناء من الفخار ثم قالت لابنتها : أسندي رأسه يا مريم لنجرعه قليلاً من الخمر فينتعش وتعود الحرارة الى جسده .

قرّبت راحيل حافة الطاس الى شفتي الشاب وجرعته قليلاً ففتح عينيه الكبيرتين ونظر الى منقذتيه لأول مرّة نظرة لطيفة محزنة قد انبعثت مع دموع الشكر ومعرفة الجميل — نظرة مَن شعر بملامس الحياة بعد أن كان بين مخالب الموت — نظرة الأمل بعد اليأس . ثم ألوى عنقه وخرجت هذه الكلمات من بين شفتيه المرتعشتين : ليباركـكما الله .

فقالت راحيل وقد وضعت يدها على كتفه : لا تزعج نفسك بالكلام يا أخي ، بل ابقَ صامتاً حتى تعود اليك القوّة .

وقالت مريم : اتكىء يا أخي على هذا المسند واقترب قليلاً من الموقد .

فاتكأ الشاب متنهداً . وبعد دقيقة ملأت راحيل الطاس خمراً وسقته ثانية ، ثم التفتت نحو ابنتها وقالت : ضعي جبته بقرب النار لتجفّ . ففعلت مريم ثم جلست تنظر اليه بحنو وشفقة كأنها تريد أن تبث بنظراتها الحرارة والقوّة في جسده النحيل .

وأحضرت راحيل اذ ذاك رغيفين من الخبز وقصعة مملوءة دبساً وطبقاً عليه بعض الثمار المجففة وجلست بجانبه تطعمه بيدها لقماً صغيرة مثلما تفعل الأم وطفلها . حتى اذا اكتفى من الطعام وشعر بشيء من النشاط استوى جالساً على البساط فانعكست أشعة النار الوردية على وجهه المصفر وتلمعت عيناه الحزينتان ثم قال هازاً رأسه بهدوء : « الرحمة والقساوة تتصارعان في القلب البشري مثلما تتحارب العناصر في فضاء هذه الليلة المظلمة ، ولكن سوف تتغلب الرحمة على القساوة لأنها الهية، وسوف تمرّ مخاوف هذه الليلة بمجيء النهار . » وسكت الشاب دقيقة ثم زاد بصوت منخفض يكاد لا يسمع : يد بشرية دفعتني الى الهوان ويد بشرية خلّصتني، فما أشد قساوة الانسان وما أكثر رأفته!

فقالت راحيل بصوت تمتزج بمقاطعه عاطفة الأمومة بعذوبة الطمأنينة: كيف تجرأت يا أخي وتركت الدير في هذه الليلة التي تخافها الذئاب فتنزوي بالكهوف ، وتهابها العقبان فتختبىء بين الصخور ؟

فأغمض الشاب عينيه كأنه يريد أن يعيد بأجفانه الدموع الى أعماق قلبه ثم قال : للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار ، وأما ابن الانسان فليس له أن يسند رأسه .

فقالت راحيل : هكذا قال يسوع الناصري عن نفسه عندما طلب اليه أحد الكتبة أن يتبعه الى حيث يذهب .

فأجاب الشاب : وهكذا يقول كل من يريد أن يتبع الروح والحق في هذا الجيل المملوء بالكذب والرياء والفساد .

فسكتت راحيل مفكرة بمعنى كلماتـه ثم قالت بشيء من التردد : ولكن في الدير غرف عديدة رحبة ، وخزائن طافحة بالذهب والفضة ، وأقبية مملوءة بالغلـة والخمور ، وزرائب غاصـة بالعجول والكبوش السمنة ، فأي أمر جعلك تترك جميع هذه الأشياء وتخرج في مثل هذه الليلة ؟

فقال الشاب متنهداً : قـد تركت جميع هذه الأشيـاء وخرجت كرهاً من الدير .

فقالت راحيـل : ان الراهب في الدير نظير الجندي في ساحـة الحرب يزجره رئيسه فينحني صامتاً ويأمره فيطيع مسرعاً . وقد سمعت بأن الرجل لا يصير راهبـاً الا اذا نزع عنه الارادة والفكر والميـل وكل ما يختص بالنفس، ولكن الرئيس الصالح لا يطلب من مرؤوسيه فوق طاقتهم ، فكيف يطلب منك رئيس دير قزحيـا أن تسلم حياتك الى العواصف والثلوج ؟

فأجاب الشاب : ان الرجل لا يصير راهبـاً في عرف رئيسه الا اذا كان مثل آلة عمياء خرساء فاقدة الحس والقوة . أما أنا فقد خرجت من الدير لأنني لست آلة عمياء بل انسان يرى ويسمع .

فحدقت بـه راحيل ومريم كأنهما قـد رأتا في وجهه سراً خفيـاً يريد كتمانه ، وبعد هنيهـة قالت الوالدة مستغربة : أيخـرج الانسان الذي يرى ويسمع في مثل هذه الليلة التي تعمي العيون وتصم الآذان ؟

فتنهد الشاب وأحنى رأسه على صدره وقال بصوت عميق : خرجت مطروداً من الدير .

فقالت راحيل بدهشة : مطروداً ! ؟

وردّدت مريم هذه الكلمة متأوّهة .

فرفع الشاب رأسه وقد ندم على اظهاره الحقيقة للمرأتين ، وخاف أن تتحوّل رأفتهما بـه الى استياء واستهجان ، ولكنه نظر فرأى في عينيهما أشعة الشفقة متموجة مع محبة الاستطلاع فقال بصوت مخنوق : نعم خرجت مطروداً من الدير لأنني لم أستطع أن أحفر قبري بيدي . لأن قلبي قد تعب في داخـلي من متابعـة الكذب والرياء . لأن نفسي أبت أن تتنعم بأمـوال الفقراء والمساكين . لأن روحي قـد امتنعت عن التلذذ بخيرات الشعب المستسلم الى الغباوة . خرجت مطروداً لأن جسدي لم يعد يجد راحة في الغرف الرحبة التي بناها سكان الأكواخ . لأن خـوفي لم يعد يقبـل الخبز المعجون بدموع اليتيم والارملة . لأن لساني لم يعـد يتحرّك بالصلاة التي يبيعهـا الرئيس بأموال المؤمنـين والبسطاء . خرجت مطروداً كالأبرص القذر لأنني ردّدت على مسامع القسس والرهبان آيات الكتاب الذي جعلهم قسساً ورهباناً .

وسكت الشاب وظلت راحيل ومريم ناظرتين اليه مستغربتين كلامه محدقتين بوجهه الجميل الحزين متلفتتين بين الآونة والأخرى الى بعضهما كأنهما تتساءلان بالسكينة عن الأسباب الغريبة التي جاءت به اليهما . حتى اذا ما نمت محبـة الاستقصاء في قلب الوالدة نظرت اليه بانعطاف وسألته قائلة : أين أبوك وأمك يا أخي ، هل هما حيّان ؟

فأجاب الشاب والغصص الموجعة تقطع ألفاظه : ليس لي أب ولا أم ولا أخت ولا مسقط رأس .

فتنهدت راحيل متأثرة وحولت مريم وجهها نحو الحائط لتخفي دمعة محرقة استقطرتها الشفقة من أجفانها . فنظر اليهما الشاب نظرة المغلوب الى منجده وقد انتعشت نفسه برقّة عواطفهما مثلما تنتعش الزهرة النابتة بين الصخور عندما يسكب الصباح قطرات الندى في قلبها . ثم رفع رأسه وقال : مات ابي وأمي قبل أن أبلغ السابعة من عمري ، فأخذني كاهن القرية التي ولدت فيها الى دير قزحيا ، فسرّ الرهبان بي وجعلوني راعياً للبقر ، ولما بلغت الخامسة عشرة ألبسوني هذا الثوب الاسود الخشن وأوقفوني أمام المذبح قائلين : أقسم بالله وقديسيه بأنك قد نذرت الفقر والطاعة والعفة . فرددت كلامهم قبل أن أفهم مفاد كلامهم ، وقبل أن أدرك معاني الفقر والطاعة والعفاف، وقبل أن أرى السبيل الضيقة التي سيّروني عليها . كان اسمي خليلاً فصار الرهبان منذ ذلك الحين يدعونني الأخ مبارك ولكنهم لم يعاملوني قط كأخ لهم . كانوا يتنعمون باللحوم والمآكل الشهية ويطعمونني الخبز اليابس والبقول المجففة ، ويتلذذون بالخمور والمشارب الطيبة ويسقونني الماء ممزوجاً بالدموع ، ويضطجعون على الاسرّة الناعمة وينيمونني على فراش حجري في غرفة مظلمة باردة بجانب زرائب الخنازير ، فكنت أقول في نفسي : متى أصير راهباً يا ترى فأشارك هؤلاء السعداء بغبطتهم ، وأصبح خليقاً بلذاتهم ومسراتهم ، فلا تقطع قلبي رائحة الطعام ، ولا تعذب كبدي ألوان الخمور ، ولا ترتعش روحي لصوت الرئيس ؟ ولكن باطلاً كنت أتمنى وأحلم لأنني بقيت أرعى البقر في البرية وأنقل الحجارة الثقيلة على ظهري ، وأحفر التراب

بساعدي .

بقيت أفعل كل ذلك لبقاء الخبز الدنيء والمأوى الضيق ، لأنني لم أكن أعلم أنه يوجد مكان غير الدير يمكن أن أعيش فيه لأنهم علموني الكفر بكل شيء الا معيشتهم ، وسمموا نفسي بنقيع اليأس والاستسلام ، حتى ظننت أن هذا العالم هو بحر أحزان وشقاء ، وان الدير هو ميناء الخلاص .

واستوى خليل جالساً وانبسطت ملامحه المنقبضة ونظر كأنه رأى شيئاً جميلاً منتصباً أمامه في ذلك الكوخ . أما راحيل ومريم فلبثتا صامتتين محدقتين به ، وبعد هنيهة عاد فقال : ان السماء التي شاءت فأخذت والديّ ونفتني يتيماً الى الدير ، لم تشأ أن اصرف العمر كله كالأعمى السائر في المعابر الخطرة ، ولم ترضَ بأن أكون عبداً تعساً متصاغراً الى نهاية الحياة ، ففتحت عينيّ وأذنيّ وأرتني النور مشعشعاً وأسمعتني الحقيقة متكلمة .

فهزت راحيل رأسها اذ ذاك وقالت : أيوجد نور غير النور الذي تسكبه الشمس على جميع النـاس ؟ وهل بإمكان البشر أن يعرفوا الحقيقة ؟

فأجاب خليل قائلاً : النور الحقيقي هو ذاك الذي ينبثق من داخل الانسان ، ويبيّن سرائر النفس للنفس ، ويجعلها فارحة بالحياة مترنمة باسم الروح . أما الحقيقة فهي كالنجوم لا تبدو الا من وراء ظلمة الليل. الحقيقة هي مثل جميع الأشياء الجميلة في هذا العالم لا تظهر مفاعيلها المستحبة الا لمن شعر بتأثيرات البطل القاسية . الحقيقة هي

تلك العاطفة الخفية التي تعلمنا أن نفرح بأيامنا وتجعلنا نتمنى ذلك الفرح نفسه لجميع الناس .

فقالت راحيل : كثار هم الذين يعيشون حسب العاطفة الخفية الكائنة في قلوبهم ، وكثار هم الذين يعتقدون بأن هذه العاطفة هي ظل الناموس الذي سنه الله للانسان. ولكنهم لا يفرحون البتة بأيامهم بل يظلون تعساء حتى الموت .

فأجابها خليل قائلاً : باطلة هي الاعتقادات والتعاليم التي تجعل الانسان تعساً في حياته . وكذابة هي العواطف التي تقوده الى اليأس والحزن والشقاء . لأن واجب الانسان أن يكون سعيداً على الارض وأن يعلم سبل السعادة ويكرز باسمها أينما كان . ومن لا يشاهد ملكوت السموات في هذه الحياة لن يراه في الحياة الآتية . لأننا لم نجيء هذا العالم كالمنفيين المرذولين ، بل جئنا كالاطفال الاغبياء لكي نتعلم من محاسن الحياة وأسرارها عبادة الروح الكلي الخالد واستطلاع خفايا نفوسنا .

هذه هي الحقيقة التي عرفتها عندما قرأت تعاليم يسوع الناصري ، وهذا هو النور الذي انبثق من داخلي وأبان لي الدير ومن فيه كهوّة مظلمة تنبعث من أعماقها الاشباح المخيفة لتميتني . هذا هو السر الخفي الذي أعلنته البرية الجميلة لنفسي عندما كنت أجلس جائعاً باكياً متأوهاً في ظل الاشجار .

ففي يوم وقد سكرت نفسي من هذه الخمرة السماوية تشجعت

ووقفت بين الرهبان، اذ كانوا جالسين في حديقة الدير مثلما تربض البهائم المتخومة ، وأخذت أبين لهم أفكاري وأتلو على مسامعهم آيات الكتاب التي تبين ضلالهم وكفرهم . قلت لهم : لماذا نصرف الايام في هذه الخلوة متمتعين بخيرات الفقراء والمساكين ، مستطيبين الخبز المعجون بعرق جبينهم ودموع أجفانهم ، متلذذين بغلّة الارض المسلوبة منهم - لماذا نعيش في ظلال التواني والكسل ، مبتعدين عن الشعب المحتاج الى المعرفة حارمين البلاد قوى نفوسنا وعزم سواعدنا ؟ ان يسوع الناصري قد بعثكم كالخراف بين الذئاب ، فأي تعاليم جعلتكم تصيرون كالذئاب بين الخراف؟ لماذا تبتعدون عن البشر وقد خلقكم الله بشراً؟ اذا كنتم أفضل من الناس السائرين في موكب الحياة عليكم أن تذهبوا اليهم وتعلموهم ، وان كانوا أفضل منكم امتزجوا بهم وتعلموا . . . كيف تنذرون الفقر وتعيشون كالامراء ، وتنذرون الطاعة وتتمردون على الانجيل ، وتنذرون العفة وقلوبكم مفعمة بالشهوات ؟ . . أنتم تتظاهرون بقتل أجسادكم ولكنكم لا تقتلون غير نفوسكم. وتتظاهرون بالترفع عن العالميات وأنتم أكثر الناس طمعاً . وتتظاهرون بالتنسك والتقشف وأنتم كالبهائم المشغولة عن المعرفة بطيب المرعى . تعالوا نعيد أراضي الدير الوسيعة الى سكان هذه القرى المحتاجين ، ونرجع الى جيوبهم الأموال التي أخذناها . تعالوا نتفرّق الى كل ناحية مثلما تتفرّق أسراب الطيور ، فنخدم الشعب الضعيف الذي جعلنا أقوياء ، ونصلح البلاد التي نعيش بخيراتها ، ونعلم هذه الأمة التعسة أن تبتسم لنور الشمس وتفرح بمواهب السماء ومجد الحياة والحرية . لأن المتاعب

التي نجدها بين الناس هي أجـل" وأجمل من الراحة التي نستسلم اليهـا في هذا المكان ، والرأفة التي نلامس بهـا قلب القريب هي أسمى من الفضيلة المختبئة في قراني الدير ، وكلمة التعزية التي نقولهـا على مسامع الضعيف والمجرم والساقطة هي أشرف من الصلاة الطويلة التي نرددها في الهيكل .

وسكت خليل دقيقة مسترجعاً أنفاسه ثم رفع عينيه نحو راحيـل ومريم وقال بصوت هادىء :

كنت أتكلم بهذه الأشياء ومـا يشابهها أمام الرهبان وهم سامعون ودلائل الاستغراب بادية على وجوههم ، كأنهم لم يصـدقوا أن فتى مثلي يقف بينهم ويتكلم متجاسراً بمثل هذا الكلام، حتى اذا ما انتهيت اقترب أحدهم وقال صارفاً أسنانه: أتتجرأ أيها الضعيف وتتلفظ أمامنا بمثل هذا الكلام ؟ واقترب آخر وقال ضاحكاً مستهزئاً : هل تعلمت هذه الحكمة من البقر والخنازير التي رافقتها كل أيام حياتك ؟ وجـاء آخر وقال متوعداً : سوف ترى مـا يحل" بك أيـا الخبيث الكافر . ثم تفرقوا عني الى كل ناحية مثلما يبتعد الاصحاء عن الابرص .

وذهب بعضهم وشكـوني الى الرئيس ، فاستدعاني عنـد غروب الشمس ، وبعد أن وبخني بقساوة على مسمع من الرهبان المبتهجين أمر بجلدي فجلدت بسياط من المرس، ثم حكم بسجني شهراً كاملاً ، فاقتادني الرهبان مقهقهين فرحين الى غرفة رطبة مظلمة .

انقضى الشهر وانا مطروح في ذلك القـبر لا أرى النور ولا أشعر

بغير دبيب الحشرات ، ولا ألمس سوى التراب ولا أعرف نهاية الليل من بدء النهار ، ولا أسمع سوى وطء أقدام أحد الرهبان عندما يجيء ويضع بقربي كسرة من الخبز اليابس المطن وطاساً من الماء الممزوج بالخل . ولما خرجت من ذلك السجن ورأى الرهبان نحول جسدي واصفرار وجهي ، توهموا أن أميال نفسي قد ماتت في داخلي ، وانهم بالجوع والعطش والعذاب قد قتلوا العاطفة التي أحياها الله في قلبي ...

مرت الايام إثر الليالي وأنا أجهد النفس مفكراً في ساعات انفرادي بما يجعل أولئك الرهبان يرون النور ويسمعون نغمة الحياة . ولكن باطلاً كنت أفكر وأفكر ، لأن الغشاء الكثيف الذي حاكته الأجيال الطويلة على بصائرهم لا تمزقه الايام القليلة. والطينة التي طلت بها الغباوة آذانهم قد تحجرت ، فلا تزيلها ملامس الاصابع الناعمة .

وبعد سكينة مملوءة بالتنهدات ، رفعت مريم رأسها والتفتت نحو والدتها كأنها تستأذنها بالكلام ، ثم نظرت بكآبة نحو خليل وسألته قائلة : هل عدت وتكلمت ثانية أمام الرهبان فطردوك من الدير في هذه الليلة المخيفة التي تعلّم الانسان ان يكون رؤوفاً ورفيقاً حتى بأعدائه !

فقال الشاب : في هذا المساء عندما تعاظم هول العاصفة وابتدأت العناصر تتحارب في الفضاء ، جلست منفرداً عن الرهبان المستدفئين حول النار والمشغولين بسرد الحوادث والحكايات المضحكة . وفتحت الانجيل متأملاً بتلك الاقوال التي تستميل النفس وتنسيها غضب الطبيعة وقساوة العناصر . ولما رآني الرهبان بعيداً عنهم اتخذوا

انفرادي سبباً للسخرية بي ، فجاء بعضهم ووقفوا بقربي وأخذوا يتغامزون ويضحكون ويشيرون نحوي مستهزئين ، فلم أحفل بهم بل اطبقت الكتاب وبقيت ناظراً من النافذة . فتململوا لذاك غيظاً ونظروا الي شزراً ، لأن سكوتي قد أيبس عواطفهم ، ثم قال أحدهم ساخراً : ماذا تقرأ أيها المصلح العظيم ؟ فلم أرفع عينيّ نحو المتكلم ، بل فتحت الانجيل وقرأت منه بصوت عالٍ هذه الآية : وكان يقول للجموع الذين خرجوا ليعتمدوا منه : يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة ولا تبتدئوا تقولون في نفوسكم ان لنا ابراهيم أباً لأني أقول لكم ان الله قادر على أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لابراهيم . والآن وقد وضعت الفأس على أصل الشجرة ، فكل شجرة لا تعطي ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار . وسأله الجموع قائلين : فماذا نفعل ؟ فأجاب وقال لهم : من له ثوبان فليعطِ من ليس له ، ومن له طعام فليفعل هكذا .

عندما قرأت هذه الكلمات التي قالها يوحنا المعمدان ، سكت الرهبان دقيقة كأن يداً خفية قد قبضت على أرواحهم ، ولكنهم عادوا وقهقهوا ضاحكين ثم قال أحدهم : قد قرأنا هذا الكلام مرات عديدة ولسنا نحتاج لرعاة البقر أن يرددوه على مسامعنا . فقلت : لو كنتم تقرأون هذه الآيات وتفهمونها لما كان سكان هذه القرى المغمورة بالثلوج يتأففون برداً ويتضوّرون جوعاً وأنتم ههنا تتمتعون بخيراتهم وتشربون عصير كرومهم وتأكلون لحوم مواشيهم . . .

لم تخرج هذه الألفاظ من بين شفتيّ حتى صفعني أحد الرهبان على

وجهي كأني لم أتكلم بغير الحماقة، ثم رفسني آخر برجله ، وآخر انتزع الكتاب من يدي ، وآخر نادى الرئيس فجاء مسرعاً ، واذ أخبروه بما جرى تعالت قامته وزوى ما بين عينيه وارتجف غضباً وصرخ بأعلى صوته : اقبضوا على هذا الشرير المتمرد ، وجروه بعيداً عن الدير ، ودعوا العناصر الغضوب تعلمه الطاعة . اخرجوه الى الظلمة الباردة لتفعل به الطبيعة مشيئة الله، ثم اغسلوا أكفكم خوفاً من سموم الكفر المتعلقة بأثوابه، وان عاد متضرعاً متظاهراً بالتوبة لا تفتحوا له الأبواب، لأن الأفعى اذا سجنت في القفص لا تنقلب حمامة ، والعلّيقة اذا غرست في الكرم لا تثمر تيناً .

حينئذٍ قبض الرهبان عليّ وجروني بعنف الى خارج الدير وعادوا ضاحكين ، وقبل أن يوصدوا الأبواب سمعت أحدهم يقول ساخراً : كنت بالأمس ملكاً وكانت رعيتك البقر والخنازير ، وقد خلعناك اليوم أيها المصلح لأنك أسأت السياسة ، فاذهب الآن وكن ملكاً على الذئاب الجائعة والغربان المتطايرة ، وعلمها كيف يجب أن تعيش في كهوفها وأوجرتها .

وتنهد خليل تنهيدة عميقة، ثم حوّل وجهه ونظر الى النار المتأججة في الموقد . وبصوت جارح بحلاوته قال : هكذا طردت من الدير . وهكذا سلمني الرهبان الى يد الموت ، فسرت والضباب يحجب الطريق عن بصري، والرياح الشديدة تمزق أثوابي ، والثلوج المتراكمة تمسك بركبتيّ ، حتى وهنت قواي فسقطت مستغيثاً صارخاً صراخ يائس شعر بأنه لا يوجد من يسمعه سوى الموت المخيف والأودية المظلمة .

ولكن من وراء الثلوج والأرياح ، من وراء الظلمة والغيوم ، من وراء الاثير والكواكب ومن وراء كل شيء قوة هي كل معرفة وكل رحمة قد سمعت صراخي وندائي فلم تشأ أن أموت قبل أن أتعلم ما بقي من سرائر الحياة ، فبعثتكما اليّ لكي تسترجعاني من أعماق الهاوية والعدم .

وسكت الشاب والمرأتان تنظران اليه بانعطاف واعجاب وشفقة كأن نفسيهما قد فهمتا خفايا نفسه واشتركتا معها بالشعور والمعرفة . وبعد هنيهة مدت راحيل يدها قسر ارادتها ولمست يده بلطف وقالت والدموع تتلمع في عينيها : ان من تختاره السماء نصيراً للحق لا تفنيه المظالم ولا تميته الثلوج والعواصف .

وهمست مريم قائلة : ان العواصف والثلوج تفني الزهور ولكنها لا تميت بذورها .

فقال خليل وقد أنارت التعزية وجهه المصفرّ مثلما تنير أشعة الفجر خطوط الافق : ان كنتما لا تحسبانني متمرداً وكافراً كما يحسبني الرهبان يكون الاضطهاد الذي لقيته في الدير رمزاً للشدة التي تعانيها الامة قبل بلوغها المعرفة . وتكون هذه الليلة التي كادت تميتني شبيهة بالثورات التي تتقدم الحرية والمساواة . لأن من قلب المرأة الحساس تنبثق سعادة البشر ، ومن عواطف نفسها الشريفة تتولد عواطف نفوسهم .

قال هذا واتكأ على الوسادة ، فلم تشأ المرأتان متابعة الحديث لانهما عرفتا من نظراته أن النعاس المتولد من الراحة والاستدفاء بعد عناء المسير قد راود عينيه .

ولم تمرّ بضع دقائق حتى أغمض خليل أجفانه ونام كالطفل المستأمن على ذراعي أمه ، فقامت راحيل بهدوء وتبعتها مريم وجلستا على فراشهما تنظران اليه كأن في وجهه الذابل جاذباً يستميل روحيهما ويحيط بقلبيهما . ثم همست الوالدة كأنها تتكلم مع نفسها وقالت : في عينيه المطبقتين قوة غريبة تتكلم بالسكينة وتنبه أميال النفس .

وقالت الابنة : يداه يا أماه مثل يدي صورة يسوع الموجودة في الكنيسة .

فهمست الوالدة : على وجهه الكئيب ظاهرة رقة المرأة وقوة الرجل .

وحملت أجنحة الكرى روحي المرأتين الى عالم الاحلام ، وخمدت النار في الموقد وتحوّلت الى رماد . ثم جفّ زيت السراج فشحّ نوره ببطء ثم انطفأ . وظلت العاصفة الغضوب تضجّ خارجاً والجو القاتم ينثر رقع الثلوج ، والأرياح العنيفة تقذفها يميناً وشمالاً .

٤

مضى اسبوعان على تلك الليلة والفضاء المتلبد بالغيوم يسكن حيناً ثم يثور متهيجاً ، غامراً الأودية بالضباب ، مكفناً الطلول بالثلوج . وقد همّ خليل ثلاث مرات أن يتابع مسيره نحو الساحل فكانت راحيل تصده بلطف وانعطاف قائلة :

لا تسلم حياتك ثانية الى العناصر العمياء ، بل ابقَ ههنا يا أخي ، فالخبز الذي يشبع اثنين يكفي ثلاثة ، والنار في هذا الموقد تظل متقدة بعد ذهابك مثلما كانت قبله . نحن فقراء يا أخي ولكننا نحيا أمام وجه الشمس مثل جميع الناس ، لأن الله يعطينا خبزنا كفاف يومنا .

أما مريم فكانت ترجوه بنظراتها اللطيفة وتستعطفه بتنهداتها الهادئة لكي يمتنع عن الذهاب ، لأنها منذ دخوله بين حي وميت ذلك البيت الحقير ، شعرت بوجود قوّة علوية في نفسه تبعث الحياة والشعاع الى قلبها ، وتنبه عواطف جديدة مستحبة في قدس من أقداس روحها — لأنها شعرت لأول مرّة في حياتها بتلك الحاسة الغريبة التي تجعل قلب الصبية النقي مثل وردة بيضاء تشرب قطرات الندى وتسكب دقائق العطر .

لا يوجد في داخل الانسان عاطفة أنقى وأعذب من تلك العاطفة

الخفية التي تستفيق على حين غفلة في قلب الصبية وتملأ خلايا صدرها بالانغام السحرية ، وتجعل أيامها شبيهة بأحلام الشعراء ولياليها مثل الانبياء . ولا يوجد بين أسرار الطبيعة سرّ أقوى وأجمل من ذلك الميل الذي يحوّل سكينة نفس العذراء الى حراك مستمرّ يميت بعزمه ذكرى الايام الغابرة ، ويحيي بحلاوته الآمال بالايام الآتية .

والصبية اللبنانية تمتاز عن صبايا الامم بقوّة عواطفها ورقة احساسها ، لأن التربية البسيطة التي تحرم عاقلتها من النموّ وتوقف مداركها عن الارتقاء ، تحوّل نفسها الى استفسار ميول نفسها وتشغل قلبها باستطلاع خفايا قلبها . الصبية اللبنانية مثل ينبوع يخرج من قلب الارض بين المنخفضات ، فلا يجد ممراً ليسير به نهراً نحو البحر ، فينقلب بحيرة هادئة تنعكس على وجهها أشعة القمر والنجوم .

وشعر خليل بتموجات روح مريم حول روحه ، وعرف أن الشعلة المقدسة التي أحاطت بقلبه ، قد لامست قلبها . ففرح لأول وهلة فرح طفل ضائع وجد أمه ، ولكنه عاد فلام نفسه على تسرعها وانشغافها ظناً منه بأن هذا التفاهم الروحي سيضمحلّ كالضباب عندما تفصله الايام عن تلك القرية ، فكان يناجي نفسه قائلاً : ما هذه الاسرار الخفية التي تتلاعب بنا ونحن غافلون ؟ وما هذه النواميس التي تسيرنا تارة على سبل وعرة فنسير منقادين ، وتوقفنا طوراً أمام وجه الشمس فنقف فرحين ، وتبلغنا مرة قمة الجبل فنبتسم متهللين ، وتهبط بنا أخرى الى أعماق الوادي فنصرخ متوجعين ؟ ما هذه الحياة التي تعانقنا يوماً كالحبيب ويوماً تصفعنا كالعدو؟ ألم أكن بالأمس مكروهاً مضطهداً

بين رهبان الدير ؟ أوَلم أقبل العذاب والسخرية من أجل هذه الحقيقة التي أيقظتها السماء في صدري ؟ أوَلم أقل للرهبان إن السعادة هي مشيئة الله في الانسان ؟

اذاً ما هذا الخوف ، ولماذا أغمض عينيّ وأحوّل وجهي عن النور المنبعث من عيني هذه الصبية ؟ أنا مطرود وهي فقيرة ، ولكن أبالخبز وحده يحيا الانسان ؟ أوَليست الحياة ديناً ووفاء ؟ أوَلسنا بين العوز واليسر كالأشجار بين الشتاء والصيف ؟ ولكن ماذا تقول راحيل اذا علمت أن روح الفتى المطرود من الدير وروح ابنتها الوحيدة قد تفاهمتا في السكينة واقتربتا من دائرة النور الأعلى ؟ وماذا تفعل يا ترى اذا ما درت بأن الشاب الذي خلصته من مخالب الموت يريد أن يكون رفيقاً لابنتها ؟ وماذا يقول سكان هذه القرية البسطاء اذا ما علموا ان فتى ربي في الدير وخرج منه مطروداً ، جاء قريتهم لكي يعيش بقرب صبية جميلة ؟ أفلا يغلقون آذانهم اذا ما قلت لهم إن الذي يغادر الدير ليعيش بينهم يكون كالطائر الذي يخرج من ظلمة القفص الى النور والحرية ؟ وماذا يقول الشيخ عباس العائش بين هؤلاء الفلاحين المساكين كالأمير بين العبيد ، اذا ما سمع حكايتي ؟ وماذا يفعل كاهن القرية اذا ما رددوا على مسامعه تلك الاقوال التي سببت طردي من الدير ؟

كان خليل يناجي نفسه وهو جالس بقرب الموقد يتأمل بألسنة النار الشبيهة بعواطفه . أما مريم فكانت تختلس النظرات اليه وتقرأ أحلامه في ملامح وجهه ، وتسمع صدى أفكاره خارجاً من صدره ،

وتشعر بخيالات هواجسه متمايلة حول قلبه .

ففي عشية يوم، وقد وقف خليل بقرب الكوّة المطلة نحو الوادي، حيث الأشجار والصخور الملتحفة بالثلوج التحاف الأموات بالأكفان ، جاءت مريم ووقفت بجانبه ونظرت من الكوّة الى الفضاء ، فالتفت نحوها ، واذ التقت عيناه بعينيها تنهد تنهيدة محرقة ثم حوّل وجهه وأغمض أجفانه كأن نفسه قد تركته وسبحت ساعية في أعماق اللانهاية باحثة عن كلمة تقولها .

وبعد هنيهة تشجعت مريم وسألته قائلة : الى أي مكان تذهب عندما تذوب هذه الثلوج وتنفتح الطرقات ؟

فأجابها وقد فتح عينيه الكبيرتين وحدق بالافق البعيد : سوف أتبع الطريق الى حيث لا أعلم .

فارتعشت روح مريم ثم قالت متنهدة : لماذا لا تسكن في هذه القرية وتبقى قريباً منا ؟ أليست الحياة هنا أفضل من الغربة البعيدة ؟

فأجابها وقد اضطربت أحشاؤه لرقة كلماتها ونغمة صوتها : ان سكان هذه القرية لا يقبلون المطرود من الدير جاراً لهم ، ولا يسمحون له أن يتنفس الهواء الذي يحييهم ، لأنهم يحسبون عدو الرهبان كافراً بالله وقديسيه .

فتأوهت مريم ولبثت ساكتة ، لأن الحقيقة الجارحة قد أخرستها . حينئذ أسند خليل رأسه بيده وقال : ان سكان هذه القرى يا مريم قد تعلموا من الرهبان والكهان بغض كل من يفكر لذاته ، فصاروا

يقلدونهم ويبتعدون مثلهم عن جميع الذين يريدون أن يصرفوا حياتهم فاحصين لا تابعين . فاذا بقيت في هذه القرية وقلت لسكانها تعالوا يا اخوتي نعبد ونصلّي حسب مشيئة نفوسنا ، لا مثلما يريد الرهبان والقسس ، لأن الله لا يريد أن يكون معبوداً من الجاهل الذي يقلد غيره ، يقولون هذا ملحد يعاند السلطة التي وضعها الله في أيدي كهانه . وان قلت لهم اصغوا يا اخوتي واسمعوا صوت قلوبكم، واعملوا ارادة الروح الكائنة في أعماقكم، يقولون هذا شرير يريدنا أن نكفر بالوسائط التي أقامها الله بين السماء والأرض .

ونظر خليل اذ ذاك الى عيني مريم ، وبصوت يحاكي رنين الأوتار الفضية قال: ولكن في هذه القرية يا مريم قوة سحرية تمتلكني وتتشبث بنفسي — قوة علوية قد أنستني اضطهاد الرهبان وحببت اليّ قساوتهم. في هذه القرية لقيت الموت وجهاً لوجه، وفيها عانقت روحي روح الله . في هذه القرية زهرة نابتة بين الأشواك ، يستميل جمالها نفسي ويملأ عطرها كبدي . فهل أترك هذه الزهرة وأذهب مبشّراً بالمبادىء التي أبعدتني عن الدير ، أم أبقى بجانبها وأحفر لأفكاري وأحلامي قبراً بين الاشواك المحيطة بها ؟ ماذا أفعل يا مريم ؟

سمعت مريم هذه الكلمات فاهتزّت قامتها مثلما ترتعش الزنبقة أمام نسيم السحر، وفاضت أشعة قلبها من مقلتيها، فقالت والحياء يغالب لسانها: كلانا بين يدي قوة خفية عادلة رحوم ، فلندعها تفعل ما تشاء بنا.

منذ تلك الدقيقة تمازجت عواطف خليل بعواطف مريم ، وصارت نفساهما شعلة واحدة متقدة ينبعث منها النور ويتضوّع حولها البخور.

٥

منذ ابتداء الدهر الى أيامنا هذه ، والفئة المتمسكة بالشرف الموروث تتحالف وتتفق مع الكهان ورؤساء الأديان على الشعب . هي علة مزمنة قابضة بأظفارها على عنق الجامعة البشرية ، ولن تزول الا بزوال الغباوة من هذا العالم عندما يصير عقل كل رجل ملكاً ويصبح قلب كل امرأة كاهناً .

ابن الشرف الموروث يبني قصره من أجساد الفقراء الضعفاء . والكاهن يقيم الهيكل على قبور المؤمنين المستسلمين . الامير يقبض على ذراعي الفلاح المسكين والكاهن يمد يده الى جيبه . الحاكم ينظر الى أبناء الحقول عابساً والمطران يلتفت نحوهم مبتسماً . وبين عبوسة النمر وابتسامة الذئب يفنى القطيع . الحاكم يدعي تمثيل الشريعة والكاهن يدعي تمثيل الدين ، وبين الاثنين تفنى الاجساد وتضمحل الأرواح .

وفي لبنان — ذلك الجبل الغني بنور الشمس الفقير الى نور المعرفة — قد اتحد الشريف والكاهن على الفقير الضعيف الذي يحرث الارض ويستغلها كيما يحمي جسده من سيف الأول ولعنة الثاني .

ابن الشرف الموروث يقف في لبنان بجانب قصره ويصرخ باللبنانيين قائلاً : قد أقامني السلطان ولياً على أجسادكم . والكاهن ينتصب أمام المذبح هاتفاً : قد أقامني الله وصياً على أرواحكم . أما اللبنانيون

فيظلون صامتين لأن القلوب المغلفة بالتراب لا تتكسر ، لأن الاموات لا يبكون .

فالشيخ عباس الذي كان في تلك القرية ولياً وحاكماً وأميراً ، كان محباً لرهبان الدير ، محافظاً على تعاليمهم وتقاليدهم ، لأنهم كانوا يشاركونه بقتل المعرفة واحياء الطاعة في نفوس حارثي حقوله وكرومه .

ففي ذلك المساء – بينما كان خليل ومريم يقتربان من عرش الحب ، وراحيل تنظر اليهما بانعطاف مستطلعة خفايا نفسيهما – ذهب الخوري الياس كاهن القرية وأخبر الشيخ عباس أن الرهبان الاتقياء قد طردوا من الدير فتى متمرداً شريراً ، وان هذا الملحد الكافر قد جاء القرية منذ اسبوعين ، وهو الآن ساكن في بيت راحيل أرملة سمعان الرامي .

ولم يكتفِ الخوري الياس بإبلاغ الشيخ هذا الخبر ، بل زاد قائلاً: ان الشيطان الذي يُطرد من الدير لا ينقلب ملاكاً في هذه القرية ، والتينة التي يقطعها رب الحقل ويلقيها في النار لا تعطي ثماراً جيدة وهي في الموقد . فإن كنا نريد أن تبقى هذه القرية سالمة من جراثيم العلل الخبيثة ، علينا أن نطرد هذا الشاب من منازلنا وحقولنا مثلما طرده الرهبان من الدير .

فسأله الشيخ عباس قائلاً : وكيف عرفت أن هذا الشاب سيكون في هذه القرية كالعلة الخبيثة ؟ أليس أفضل أن نبقيه عندنا ونجعله ناطوراً للكروم أو راعياً للبقر ؟ نحن بحاجة ماسة الى العمال ، فاذا جلبت لنا الطريق فتى قوي الساعدين نسترضيه ولا نتركه .

فابتسم الكاهن تلك الابتسامة الشبيهة بملامس الأفعى ثم قال ممشطاً لحيته الكثيفة بأصابعه : لو كان هذا الشاب صالحاً للعمل لما طرده الرهبان ، لأن أراضي الدير وسيعة وقطعانه لا تحصى . وقد أخبرني مكاري الدير الذي بات عندي ليلة أمس ، أن هذا الشاب كان يردد على مسامع الرهبان آيات الكفر مقرونة بألفاظ ثورية تدل على طيشه وخباثته ، فقد تجاسر مرات عديدة وخطب فيهم قائلاً : أرجعوا حقول الدير وكرومه وأمواله الى سكان هذه القرى الفقراء ، وتفرقوا الى كل ناحية وذاك خير من الصلاة والعبادة . وأخبرني المكاري ايضاً بأن قساوة التوبيخ وأوجاع الجلد بالسياط وظلمة السجن ، لم تُعد لهذا الكافر صوابه ، بل كانت تغذي الشيطان القابض على نفسه مثلما تكثر اوساخ المزابل عدد الحشرات .

فانتصب الشيخ عباس على قدميه ، ونظير نمر يتراجع قليلاً الى الوراء قبيل الوثوب بقي ساكتاً هنيهة يصرّ أسنانه وينتفض غيظاً . ثم مشى نحو باب القاعة ونادى خدامه بصوت عالٍ ، فجاء ثلاثة منهم ووقفوا أمامه مستطلعين أمره ، فخاطبهم قائلاً : في بيت راحيل الأرملة شاب مجرم يرتدي أثواب راهب ، فاذهبوا الآن وقودوه اليّ مكتوفاً ، وان قاومتكم تلك المرأة اقبضوا عليها وجروها على الثلج بجدائل شعرها ، لأن من يساعد الشرير يكون شريراً .

فأحنى الخدام رؤوسهم وخرجوا مسرعين ليتمموا مشيئة سيدهم ، وبقي الشيخ عباس والكاهن يتحدثان عما يجب أن يفعلاه بالشاب المطرود وراحيل الأرملة .

٦

توارى النهار وقدم الليل ناشراً خيالاته بين تلك الأكواخ المكتنفة بالثلوج . وظهرت النجوم في ذلك الفضاء المظلم البارد ظهور الأمل بالخلود من وراء أوجاع النزع والموت . فأوصد الفلاحون الأبواب والنوافذ وأشعلوا السرج ، وجلسوا يصطلون بقرب المواقد غير حافلين بأشباح الليل السائرة حول بيوتهم .

في تلك الساعة بينما كانت راحيل وابنتها مريم وخليل جالسين حول مائدة خشبية يتناولون العشاء ، طرق الباب ودخل عليهم خدام الشيخ عباس ، فالتفتت راحيل مذعورة وشهقت مريم مرتاعة ، أما خليل فلبث هادئاً كأن نفسه الكبيرة قد تنبأت وعلمت بمجيء هؤلاء الرجال قبل مجيئهم .

فاقترب أحد الخدام وألقى يده بعنف على كتف خليل وقال بصوت أجش : ألست أنت الشاب المطرود من الدير ؟ فأجابه خليل ببطء : أنا هو فماذا تريدون ؟

فقال الرجل: نريد أن نسير بك مكتوفاً الى منزل الشيخ عباس ، وان أبديت ممانعة نجرك على الثلج كالخروف المذبوح .

فانتصبت راحيل وقد اصفرّ وجهها وتجعدت جبهتها وقالت بصوت مرتجف : أي ذنب أتاه أمام الشيخ عباس ، ولماذا تريدون جره

مكتوفاً ؟

وقالت مريم ونغمة الرجاء والاستعطاف تمازج صوتها : هو فرد وأنتم ثلاثة ، فمن الجبانة أن تتحالفوا على اذلاله وتعذيبه .

فصرخ الخادم وقد حمي غضبه: أيوجد في هذه القرية امرأة تعارض مشيئة الشيخ عباس ؟ قال هذا وانتشل من وسطه حبلاً متيناً وهمّ ليوثق به كتفي خليل ، فوقف الشاب ولم تتغير ملامحه ، بل ظلّ رأسه مرفوعاً كالبرج أمام الزوبعة ، وسالت على شفتيه ابتسامة محزنة ثم قال: أنا أشفق عليكم أيها الرجال، لأنكم آلة قوية عمياء في يد مبصر ضعيف يظلمكم ويسحق الضعفاء بسواعدكم . أنتم عبيد الغباوة والغباوة هي أشد اسوداداً من بشرة الزنوج، وأكثر استسلاماً للحيف والقساوة. كنت بالامس مثلكم أيها الرجال وغداً تصيرون مثلي ، أما الآن فبيننا هوّة عميقة مظلمة تمتص ندائي وتحجب حقيقتي عنكم فلا تسمعون ولا تبصرون . ها أنذا فشدوا ساعديّ وافعلوا بي ما شئتم .

سمع الرجال هذا الكلام ، فجمدت عيونهم واقشعرّت أبدانهم وبهتوا بالشاب هنيهة كأن عذوبة صوته قد انتزعت الحركة من أجسادهم ، وأيقظت الميول العلوية الهاجعة في أعماق قلوبهم ، ولكنهم عادوا فانتبهوا كأن صدى صوت الشيخ عباس قد تململ في مسامعهم ، وذكّرهم بالمهمة التي بعثهم من أجلها، فتقدموا وأوثقوا ساعدي الشاب وخرجوا به ساكتين شاعرين بشيء من الألم بين تلافيف ضمائرهم . فاتبعتهم راحيل ومريم ، ونظير بنات أورشليم عندما اتبعن يسوع الى الجلجلة ، سارتا خلف خليل نحو منزل الشيخ عباس .

٧

ان الاخبار ، كبيرة كانت أم تافهة ، تنتقل بسرعة الفكر بين الفلاحين في القرى الصغيرة ، لأن بعدهم عن مشاغل الاجتماع المتتابعة يجعلهم ينصرفون بكليتهم الى استقصاء ما يحدث في محيطهم المحدود . وفي أيام الشتاء عندما تكون الحقول والبساتين راقدة تحت لحف الثلوج ، وتنزوي الحياة خائفة مستدفئة حول المواقد يصير القرويون أشد رغبة وأكثر ميلاً الى استطلاع الأخبار لكي يملأوا بتأثيراتها أيامهم الفارغة ، ويصرفوا باستفسارها لياليهم الباردة .

وهكذا لم يقبض خدام الشيخ عباس على خليل في تلك الليلة حتى انتشر الخبر كالعدوى بين سكان تلك القرية ، وأثارت محبة الاستفهام نفوسهم ، فتركوا أكواخهم وتراكضوا مسرعين من كل ناحية كالجنود المتفرقين ، فلم يبلغ الشاب المكتوف منزل الشيخ حتى اجتمع في تلك الدار الوسيعة ، الرجال والنساء والصبيان وكلهم يمدون أعناقهم بتشوق ليحظوا بنظرة من الكافر المطرود من الدير ، ومن راحيل الأرملة وابنتها مريم اللتين شاركتا الأرواح الشريرة في بث السموم والعلل الجهنمية في فضاء قريتهم .

جلس الشيخ عباس على مقعد عالٍ ، وتربع بجانبه الخوري الياس ، ووقف الفلاحون والخدام مترقبين محدقين بالفتى المكتوف الواقف بينهم برأس مرفوع وقوف الطود بين المنخفضات ، أما راحيل ومريم

فكانتا واقفتين خلفه والخوف يراود قلبيهما ، ونظرات القوم القاسية تعذب نفسيهما ، ولكن ماذا يفعل الخوف في عواطف امرأة رأت الحق فاتبعته ؟ وماذا تفعل النظرات القاسية في فؤاد صبية سمعت نداء الحب فاستيقظت ؟

ونظر الشيخ عباس اذ ذاك نحو الشاب ، وبصوت يشابه ضجيج الأمواج سأله قائلا : ما اسمك أيها الرجل ؟

فأجابه : اسمي خليل . فقال الشيخ : من هم اهلك وذووك وأين مسقط رأسك ؟

فالتفت خليل نحو الفلاحين الناظرين اليه بكره واشمئزاز وقال : الفقراء والمساكين المظلومون هم أهلي وعشيرتي . وهذه البلاد الوسيعة هي مسقط رأسي .

فابتسم الشيخ عباس مستهزئاً ثم قال : ان الذين تنتسب اليهم يطلبون معاقبتك ، والبلاد التي تدعيها وطنك تأبى ان تكون من سكانها .

فقال خليل وقد اضطربت أحشاؤه : ان الشعوب الجاهلة تقبض على أشرف أبنائها وتسلمهم الى قساوة العتاة والظالمين . والبلاد المغمورة بالذلّ والهوان تضطهد محبيها ومخلصيها . ولكن أيترك الابن الصالح والدته اذا كانت مريضة ، وينكر الأخ الرؤوف أخاه اذا كان تعساً ؟

ان هؤلاء المساكين الذين أسلموني اليك مكتوفاً اليوم هم الذين

أسلموك رقابهم بالامس . والذين أوقفوني مهاناً أمامك هم الذين يزرعون حبات قلوبهم في حقولك ، ويهرقون دماء أجسادهم على قدميك ، وهذه الارض التي تأبى ان اكون من سكانها هي الارض التي لا تفغر فاها وتبتلع الطغاة والطامعين .

فقهقه الشيخ عباس ضاحكاً كأنه يريد أن يغرق بضحكه القبيح روح الشاب ويوقفها عن المسير الى أرواح السامعين البسطاء، ثم قال: أوَلم تكن راعياً لثيران الدير أيها الشاب الوقح ؟ فلماذا تركت رعيتك وخرجت مطروداً ؟ هل ظننت أن الشعب يكون أكثر رأفة بالمجاذيب الملحدين من الرهبان الأتقياء ؟

فأجابه خليل : كنت راعياً ولم أكن جزاراً . كنت أقود العجول الى المروج الخضراء والمراعي الخصبة ، ولم أسر بها قط الى الطلول الجرداء. كنت أوردها الينابيع العذبة وابعدها عن المستنقعات الفاسدة . كنت أعيدها في المساء الى الحظيرة ولم أتركها في الوادي فريسة للذئاب والضواري الخاطفة .

هكذا كنت أفعل بالبهائم ، ولو فعلت أنت مثلي بهذا القطيع المهزول الرابض الآن حولنا لما كنت تسكن هذا القصر الرفيع وتتركه يبيد جوعاً في الأكواخ المظلمة . ولو كنت ترحم أبناء الله المخلصين مثلما كنت أرحم عجول الدير لما كنت جالساً الآن على هذا المقعد الحريري وهم واقفون أمامك وقوف القضبان العارية أمام ريح الشمال .

فتحرك الشيخ عباس منزعجاً ، وتلمعت على جبهته قطرة عرق

باردة ، وتبدل ضحكه بالغضب ، ولكنه عاد فامتلك نفسه كيلا يظهر الاهتمام والاكتراث أمام رجاله وتابعيه ، ثم قال مشيراً بيده : لم نأت بك مكتوفاً أيها الكافر لنسمع هذيانك ، بل أحضرناك لكي نحاكمك كمجرم شرير ، فاعلم اذاً أنك واقف الآن أمام سيد هذه القرية وممثل ارادة الأمير امين الشهابي أيده الله[1] ، وامام الخوري الياس ممثل الكنيسة المقدسة التي كفرت بها . فدافع اذاً عن نفسك مما اتهمت به ، او فاركع مسترحماً نادماً امامنا وامام هذا الجمع الساخر بك ، فنغفر لك ونجعلك راعياً للبقر مثلما كنت في الدير .

فأجاب الشاب بهدوء : ان المجرم لا يحاكمه المجرمون ، والكافر الشرير لا يدافع عن نفسه أمام الخطاة .

قال هذه الكلمات والتفت نحو الجمع المزدحم في تلك القاعة الوسيعة ، وبصوت جهوري يشابه رنين الاجراس الفضية ناداهم قائلاً : أيها الاخوة ، ان الرجل الذي أقامه خضوعكم واستسلامكم سيداً على حقولكم قد أحضرني مكتوفاً ليحاكمني أمامكم في هذا القصر المبني فوق بقايا آبائكم وجدودكم ، والرجل الذي جعله ايمانكم كاهناً في كنيستكم قد جاءني ليدينني ، ويساعد على تعذيبي واذلالي . أما أنتم فقد تراكضتم مسرعين من كل ناحية لكي تنظروني متألماً وتسمعوني مستغيثاً مسترحماً . قد تركتم جوانب المواقد الدافئة لتشاهدوا ابنكم وأخاكم مكتوفاً مهاناً . قد أسرعتم اتروا الفريسة المتوجعة بين مخالب

---

[1] الأمير أمين شهاب هو ابن الأمير بشير الكبير ، وقد حكم الجبل بعد موت أبيه .

الكواسر . قد جئتم لتنظروا المجرم الكافر واقفاً امام القضاة . أنا هو المجرم . انا هو الكافر الذي طُرد من الدير فحملته العاصفة الى قريتكم . أنا هو ذلك الشرير، فاسمعوا احتجاجي، ولا تكونوا مشفقين بل كونوا عادلين ، لأن الشفقة تجوز على المجرمين الضعفاء، اما العدل فهو كل ما يطلبه الأبرياء .

قد اخترتكم قضاتي لأن ارادة الشعب هي مشيئة الله ، فأيقظوا قلوبكم واسمعوني جيداً ثم احكموا عليّ بما توحيه ضمائركم . قد قيل لكم اني رجل كافر شرير ، ولكنكم لم تعرفوا ما هي جريمتي . وقد رأيتموني مكتوفاً كاللص القاتل ولم تسمعوا بعد بذنوبي ، لأن حقيقة الجرائم والذنوب في هذه البلاد تظل مستترة وراء الضباب، اما العقاب فيظهر للناس ظهور أسياف البرق في ظلمة الليل .

جريمتي أيها الرجال هي ادراكي تعاستكم وشعوري بثقل قيودكم . وآثامي أيتها النساء هي شفقتي عليكنّ وعلى أطفالكنّ الذين يمتصون الحياة من صدوركنّ ممزوجة بلهاث الموت .

انا واحد منكم أيها الجمع ، وقد عاش آبائي وجدودي بين هذه الاودية التي تستفرغ قواكم، وماتوا تحت هذا النير الذي يلوي أعناقكم. انا أؤمن بالله الذي يسمع نداء نفوسكم المتوجعة ويرى صدوركم المقروعة. وأؤمن بالكتاب الذي يجعلني ويجعلكم إخوة متساوين أمام وجه الشمس . وأؤمن بالتعاليم التي تحررني وتحرركم من عبودية البشر ، وتوقفنا جميعاً بغير قيود على الارض موطىء اقدام الله .

كنت في الدير راعياً للبقر ، لكن انفرادي مع البهائم الخرساء

في البرية الساكنة لم يعمني عن المأساة الاليمة التي تمثلونها كرهاً في الحقول. ولم يصمّ اذنيّ عن صراخ اليأس المتصاعد من قراني الاكواخ. قد نظرت فرأيتني في الدير ورأيتكم في الحقول كقطيع من النعاج سائر وراء ذئب خاطف الى وكره ، فوقفت في منتصف الطريق وصرخت مستغيثاً ، فهجم الذئب ونهشني بأنيابه المحددة ، ثم احتال عليّ وابعدني كيلا يثير صراخي روح القطيع فيتمرد ويتفرق مذعوراً الى كل ناحية ويتركه منفرداً جائعاً في ظلام الليل .

قد احتملت السجن والجوع والعطش من أجل الحقيقة الجارحة التي رأيتها مكتوبة بالدماء على وجوهكم ، وقاسيت العذاب والجلد والسخرية لأنني جعلت لسكينة تنهيداتكم صوتاً صارخاً متموجاً في خلايا الدير . ولكنني لم أخف قط ولم يضعف قلبي ، لأن صراخكم الأليم كان يتبع نفسي ويجدد قواي ، ويحبب اليّ الاضطهاد والاحتقار والموت .

أنتم تسألون نفوسكم الآن قائلين : متى صرخنا متظلمين واي فرد منّا يتجاسر ان يفتح شفتيه ؟ وانا اقول لكم ان نفوسكم تصرخ متظلمة في كل يوم وقلوبكم تستغيث متوجعة في كل ليلة ، ولكنكم لا تسمعون نفوسكم وقلوبكم، لأن المنازع لا يسمع حشرجة صدره ، اما الجالسون بجانب مضجعه فيسمعون . والطائر المذبوح يرقص متململاً قسر ارادته ولا يعلم ، اما الناظرون فيعلمون .

في أي ساعة من النهار لا تتأوه ارواحكم متوجعة ؟ أفي الصباح عندما تنهركم محبة البقاء وتمزق نقاب الكرى عن أجفانكم وتقودكم

كالعبيد الى الحقول ؟ أم في الظهيرة عندما تتمنون الجلوس في ظلّ الاشجار لكي تتقوا سهام الشمس المحرقة ولا تستطيعون؟ أم في المساء عندما تعودون جائعين الى اكواخكم ولا تجدون سوى الخبز اليابس والماء العكر ؟ أم في الليل عندما تطرحكم المتاعب على الاسرّة الحجرية فتنامون قلقين ، ولا يكحل النعاس اجفانكم الا وتهبون متوهمين صوت الشيخ يرنّ في آذانكم ؟ وفي اي فصل من السنة لا تندب قلوبكم متحسرة ؟ أفي الربيع عندما ترتدي الطبيعة حلّة جديدة فتخرجون لمشاهدتها بأطمار بالية ممزقة ؟ أم في الصيف عندما تحصدون الزرع وتجمعون الأغمار على البيادر وتملأون اهراء سيدكم الظلوم بالغلة ، ولا تحصلون لقاء اتعابكم على غير التبن والزوان ؟ أم في الخريف عندما تجنون الاثمار وتعصرون العنب ولا يكون نصيبكم منها سوى الخلّ والبلوط ؟ أم في الشتاء عندما يضطهدكم الفضاء ويطردكم البرد والزمهرير الى الاكواخ الملتحفة بالثلوج ، فتجلسون بجانب المواقد متأففين خائفين غضب الزوابع والعواصف ؟

هذه هي حياتكم ايها الفقراء . هذا هو الليل المخيّم على ارواحكم ايها التعساء . هذه هي أشباح ذلكم وشقائكم ايها المساكين . هذا هو الصراخ الاليم المستمرّ الذي سمعته خارجاً من أعماق صدوركم ، فاستيقظت وتمرّدت على الرهبان وكفرت بمعيشتهم ، ووقفت منفرداً متظلماً باسمكم واسم العدالة المتوجعة بأوجاعكم ، فحسبوني كافراً شريراً وطردوني من الدير ، فجئت لكي اشاطركم التعاسة واعيش بقربكم ، وامزج دموعي بدموعكم ، فأسلمتموني مكتوفاً الى عدوكم القوي الذي

يغتصب خيراتكم ويحيا غنياً بأموالكم ، ويملأ جوفه الوسيع من أثمار أتعابكم .

ألا يوجد بينكم شيوخ يعلمون أن الأرض التي تحرثونها وتحرمون غلّتها هي لكم وقد اغتصبها والد الشيخ عباس من آبائكم عندما كانت الشريعة مكتوبة على حد السيف ؟ أما سمعتم بأن الرهبان قد احتالوا على جدودكم وامتلكوا مزارعهم وكرومهم عندما كانت آيات الدين مخطوطة على شفتي الكاهن ؟ ألا تعلمون أن ممثلي الدين وابناء الشرف الموروث يتعاونون على اخضاعكم واذلالكم واستقطار دماء قلوبكم ؟ أي رجل منكم لم يلوِ عنقه كاهن الكنيسة أمام سيد الحقول ؟ وأي امرأة بينكم لم يزجرها سيد الحقول ويستحثها لكي تتبع مشيئة كاهن الكنيسة ؟

قد سمعتم بأن الله قال للانسان الأول : بعرق جبينك تأكل خبزك . فلماذا يأكل الشيخ عباس خبزه مجبولاً بعرق جبينكم ويشرب خمره ممزوجة بدموعكم ؟ هل ميز الله هذا الرجل وجعله سيداً اذ كان في رحم أمه ؟ أم غضب عليكم لذنوب مجهولة وبعثكم عبيداً الى هذه الحياة لكي تجمعوا غلّة الحقول ولا تأكلوا غير أشواك الاودية ، وتقيموا القصور الفخمة ولا تسكنوا غير الاكواخ المتداعية ؟

قد سمعتم بأن يسوع الناصري قد قال لتلاميذه : مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا . لا تقتنوا فضة ولا ذهباً ولا نحاساً في مناطقكم . اذاً اي تعاليم اباحت للرهبان والكهان بيع صلواتهم وتعازيمهم بالفضة والذهب ؟ انتم تصلون في سكينة الليالي قائلين : أعطنا يا رب

خبزنا كفاف يومنا . والرب قد وهبكم هذه الارض لتعطيكم الخبز الكفاف ، فهل وهب رؤساء الاديرة السلطة لانتزاع هذا الخبز من بين ايديكم ؟ انتم تلعنون يهوذا لأنه باع سيده بالفضة، فأي شيء يجعلكم تباركون الذين يبيعونه في كل يوم من حياتهم ؟ ان يهوذا التعس قد ندم على خطيئته فشنق نفسه ، اما هؤلاء فيسيرون امامكم برؤوس مرفوعة واذيال طويلة ناعمة، وقلائد ذهبية وخواتم ثمينة. انتم تعلّمون ابناءكم محبة الناصري، فكيف تعلمونهم الخضوع امام مبغضيه ومخالفي تعاليمه وشرائعه ؟ قد عرفتم أن رسل المسيح قد ماتوا قتلاً ورجماً لكي يحيوا فيكم الروح المقدسة ، فهل تعرفون أن الرهبان والكهان يقتلون ارواحكم لكي يحيوا متمتعين بخيراتكم متلذذين بحرتقة قيودكم ؟ ماذا يغركم ايها المساكين في وجود مفعم بالذل والهوان ويبقيكم راكعين امام صنم مخيف اقامه الكذب والرياء على قبور آبائكم ؟ واي كنز ثمين تحافظون عليه بخضوعكم لتبقوه ارثاً لأبنائكم ؟

نفوسكم في قبضة الكاهن ، واجسادكم بين مخالب الحاكم ، وقلوبكم في ظلمة اليأس والاحزان . فأي شيء في الحياة يمكنكم ان تشيروا اليه قائلين: هذا لنا؟ اتعرفون ايها المستسلمون الضعفاء من هو الكاهن الذي تهابونه وتقيمونه وصيّاً على أقدس اسرار نفوسكم ؟ اسمعوني فأبيّن لكم ما تشعرون انتم به وتخافون اظهاره .

هو خائن يعطيه المسيحيون كتاباً مقدساً فيجعله شبكة يصطاد بها اموالهم ، ومراءٍ يقلده المؤمنون صليباً جميلاً فيمتشقه سيفاً سنيناً ويرفعه فوق رؤوسهم ، وظالم يسلمه الضعفاء أعناقهم فيربطها بالمقاود

وبوثقها باللجم ويقبض عليها بيد من حديد ، ولا يتركها حتى تنسحق كالفخار وتتبدد كالرماد .

هو ذئب كاسر يدخل الحظيرة فيظنه الراعي خروفاً وينام مطمئناً، وعند مجيء الظلام يثب على النعاج ويخنقها نعجة اثر نعجة .

هو نهم يحترم موائد الطعام أكثر من مذابح الهيكل ، وطامع يتبع الدينار الى مغاور الجن ، ويمتص دماء العباد مثلما تمتص رمال الصحراء قطرات المطر، وبخيل يحرص على أنفاسه ويدخر ما لا يحتاجه.

هو محتال يدخل من شقوق الجدران ولا يخرج الا بسقوط البيت. ولص صخري القلب ينتزع الدرهم من الارملة والفلس من اليتيم .

هو مخلوق عجيب له منقار النسر ومقابض النمر ، وأنياب الضبع، وملامس الافعى . خذوا كتابه ومزقوا ثوبه وانتفوا لحيته ، وافعلوا به ما شئتم ، ثم عودوا وضعوا الدينار في كفه فيغفر لكم ويبتسم بمحبة . اصفعوا خده وابصقوا بوجهه ودوسوا عنقه ثم اجلسوه على موائدكم فيتناسى ويتهلل ويحل حزامه لينمو جوفه بمآ كلكم ومشاربكم. جدفوا على اسم ربه واقذفوا بعقائده واسخروا بإيمانه ، ثم ابعثوا اليه بجرّة من الخمر او بسلّة من الفاكهة فيسامحكم ويبرركم امام الله والناس .

يرى المرأة فيحوّل وجهه قائلاً بأعلى صوته : ابتعدي عني يا ابنة بابل . ثم يهمس بسره قائلاً : الزيجة افضل من التحرق . يرى الفتيان والصبايا سائرين في موكب الحب فيرفع عينيه نحو السماء ويهتف قائلاً:

باطلة الاباطيل ، وكل شيء تحت الشمس باطل . ثم يختلي ويتنهد قائلاً: لتفنَ الشرائع وتضمحلّ التقاليد التي ابعدتني عن غبطة الحياة، وحرمتني ملذات العمر . . . يقول للناس مستشهداً : لا تدينوا لئلا تدانوا . ولكنه يدين بقساوة جميع الذين يسخرون بمكارهه ، ويبعث بأرواحهم الى الجحيم قبل ان يبعدهم الموت عن هذه الحياة . يحدثكم رافعاً عينيه بين الآونة والاخرى نحو العلاء ، اما فكرته فتظلّ منسابة كالافاعي حول جيوبكم . يناديكم بقوله لكم: يا اولادي ويا أبنائي. وهو لا يشعر بالعاطفة الابوية، ولا تبتسم شفتاه لرضيع، ولا يحمل طفلاً على منكبيه. يقول لكم هازاً رأسه بتخشع : لنترفعن عن العالميات ، لأن اعمارنا تضمحلّ كالضباب ، وايامنا تزول كالفيء . واذا نظرتم جيداً رأيتموه متمسكاً بأذيال الحياة، متشبثاً بأهداب العمر ، متأسفاً على ذهاب الامس ، خائفاً من سرعة اليوم ، مترقباً مجيء الغد .

يطلب منكم الاحسان وهو اوفر منكم مالاً، فإن اجبتموه يبارككم علناً، وان منعتموه يلعنكم سرّاً. في الهيكل يوصيكم بالفقراء والمحتاجين، وحول منزله يصرخ الجائعون ، وامام عينيه تمدّ ايدي البائسين ، فلا ينظر ولا يسمع . . . يبيع صلاته ، ومن لا يشتري يكون كافراً بالله وانبيائه ، محروماً من الجنة والنعيم .

هذا هو المخلوق الذي يخيفكم ايها المسيحيون . هذا هو الراهب الذي يمتصّ دماءكم ايها الفقراء . هذا هو الكاهن الذي يرسم اشارة الصليب بيمينه ويقبض على قلوبكم بشماله . هذا هو الاسقف الذي تقيمونه خادماً فينقلب سيداً، وتطوبونه قديساً فيصير شيطاناً، وترفعونه

نائباً فيصبح نيراً ثقيلاً . هذا هو الظل الذي يتبع ارواحكم منذ بلوغها هذا العالم حتى رجوعها الى الابدية . هذا هو الرجل الذي جاء في هذه الليلة لكي يدينني ويذلني، لأن روحي تمردت على اعداء يسوع الناصري الذي احبكم ودعاكم اخوة له ثم صلب من اجلكم .

وتهلل وجه الشاب المكتوف ، وقد شعر باليقظة الروحية المتمايلة في صدور سامعيه ، واتضحت له تأثيرات كلامه في وجوه الناظرين اليه ، فرفع صوته وزاد قائلاً : قد سمعتم ايها الاخوة بأن الشيخ عباس قد اقامه الامير امين الشهابي سيداً على هذه القرية . وسمعتم ايضاً بأن الامير قد اقامه المليك حاكماً على هذا الجبل . فهل سمعتم او رأيتم القوة التي اقامت المليك رباً على هذه البلاد ؟ انتم لا ترون تلك القوة متجسدة ولا تسمعونها متكلمة ، ولكنكم تشعرون بوجودها في اعماق ارواحكم ، وتسجدون امامها مصلّين مبتهلين وتنادونها بقولكم : ابانا الذي في السموات .

نعم ان اباكم السماوي هو الذي يقيم الملوك والامراء، وهو القادر على كل شيء . ولكن هل تعتقدون بأن اباكم الذي احبكم وعلمكم سبل الحق بواسطة انبيائه يريد ان تكونوا مظلومين ومرذولين ؟ هل تعتقدون بأن الله الذي ينزل السحاب مطراً، ويستنبت البذور زرعاً، وينمي الزهور اثماراً ، يريد ان تكونوا جياعاً محتقرين لكي يبقى واحد بينكم منتفخاً متلذذاً ؟ هل تعتقدون بأن الروح السرمدي الذي يوحي اليكم محبة الزوجة والرأفة بالبنين والشفقة على القريب يقيم عليكم سيداً قاسياً يظلمكم ويستعبد ايامكم ؟ هل تعتقدون بأن النواميس

الازلية التي تحجب اليكم نور الحياة تبعث اليكم بمن يحجب اليكم ظلمة الموت ؟ هل تعتقدون بأن الطبيعة قد بعثت القوى في اجسادكم لكي تعود وتخضعها امام الضعف ؟

انتم لا تعتقدون بهذه الاشياء ، لأنكم اذا فعلتم تكونون كافرين بالعدل الالهي ، جاحدين نور الحق الذي يضيء على جميع الناس . اذاً اي شيء يجعلكم تساعدون الشرير على نفوسكم ؟ ولماذا تخافون مشيئة الله الذي بعثكم احراراً الى هذا العالم وتصيرون عبيداً للمتمردين على ناموسه ؟ كيف ترفعون اعينكم نحو الله القوي وتدعونه اباً ، ثم تحنون رقابكم امام الانسان الضعيف وتدعونه سيداً ؟ كيف يرضى ابناء الله ان يكونوا عبيداً للبشر ؟ اما دعاكم يسوع اخوة ، فكيف يدعوكم الشيخ عباس خدماً؟ اما جعلكم يسوع احراراً بالروح والحق، فكيف يجعلكم الامير عبداً للحيف والفساد؟ اما رفع يسوع رؤوسكم نحو السماء، فكيف تخفضونها الى التراب؟ اما سكب يسوع النور في قلوبكم ، فكيف تغمرونها بالظلام ؟

ان الله قد بعث ارواحكم في هذه الحياة كشعلات مضيئة تنمو بالمعرفة وتزيد جمالاً باستطلاعها خفايا الايام والليالي ، فكيف تلحقونها بالرماد لتبيد وتنطفيء ؟ ان الله قد وهب نفوسكم اجنحة لتطير بها سابحة في فضاء الحب والحرية ، فلماذا تجزونها بأيديكم وتدبون كالحشرات على اديم الارض ؟ ان الله قد وضع في قلوبكم بذور السعادة ، فكيف تنتزعونها وتطرحونها على الصخر لتلتقطها الغربان وتذريها الارياح ؟ ان الله قد رزقكم البنين والبنات لكي تدربوهم على

سبل الحق وملأوا صدورهم بأغاني الكيان وتركوا لهم غبطة الحياة ارثاً ثميناً ، فكيف تهجعون وتخلفونهم امواتاً بين ايدي الدهر ، غرباء في ارض مولدهم ، تعساء امام وجه الشمس ؟ اوليس الوالد الذي يترك ابنه الحر عبداً ، يكون كالوالد الذي يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً ؟ اما رأيتم عصافير الحقل تدرّب فراخها على الطيران ، فكيف تعلّمون صغاركم جرّ القيود والسلاسل ؟ اما رأيتم زهور الاودية تستودع بذورها حرارة الشمس ، فكيف تسلمون اطفالكم الى الظلمة الباردة ؟

وسكت خليل هنيهة كأن افكاره وعواطفه قد نمت واتسعت فلم تعد ترتدي الالفاظ ثوباً ، ثم قال بصوت منخفض : ان الكلام الذي سمعتموه مني في هذه الليلة هو الكلام الذي طردني الرهبان من اجله ، والروح التي شعرتم بتموجاتها في قلوبكم هي الروح التي اوقفتني مكتوفاً امامكم ، فإذا وثب عليّ سيد حقولكم وكاهن كنيستكم وصرعاني اموت سعيداً فرحاً ، لأني باظهاري لكم حقيقة ما يحسبه الظالمون جرماً هائلاً قد تممت مشيئة بارئي وبارئكم .

كان خليل يتكلم وفي صوته الجهوري نغمة سحرية تضطرب لها قلوب الرجال الناظرين اليه بإعجاب يشابه استغراب الاعمى اذا ما ابصر فجأة ، وتهتز لحلاوتها نفوس النساء المحدقات به بأعين طافحة بالدموع. اما الشيخ عباس والخوري الياس ، فكانا يرتجفان غضباً ويتلويان كالمطروحين على وسائد من الاشواك . وقد حاول كل منهما ان يوقف الشاب عن الكلام فلم يستطع ، لأنه كان يخاطب الجمع بقوة علوية

تشابه العاصفة بعزمها والنسيم برقتها .

ولما انتهى خليل من كلامه ، وقد تراجع قليلاً الى الوراء ووقف بجانب راحيل ومريم ، حدث سكوت عميق كأن روحه المرفرفة في جوانب تلك القاعة الوسيعة قد حوّلت بصائر القرويين نحو مكان قصيّ وانتزعت الفكر والارادة من نفسي الشيخ والكاهن واوقفتهما مرتعشين امام اشباح ضميريهما المزعجة .

حينئذ وقف الشيخ عباس ، وقد تقلّصت ملامحه واصفرّ وجهه ، وانتهر الرجال الواقفين حوله قائلاً بصوت مخنوق : ما اصابكم ايها الكلاب ؟ هل تسممت قلوبكم وجمدت الحياة في داخل اجسادكم ، فلم تعودوا قادرين على تمزيق هذا الكافر المهذار ؟ هل اكتنفت روح هذا الشيطان ارواحكم وكبلت بسحره الجهنمي سواعدكم فلم تستطيعوا ابادته ؟

قال هذه الكلمات وامتشق سيفاً كان بجانبه وهجم على الفتى المكتوف ليوقع به، فتقدم رجل قوي البنية من بين الشعب واعترضه قائلاً بهدوء: أغمد سيفك يا سيدي، لأن من يأخذ بالسيف بالسيف يهلك.

فارتعش الشيخ عباس وسقط السيف من يده وصرخ قائلاً : هل يعترض الخادم الضعيف سيده ووليّ نعمته ؟

فأجابه الرجل : الخادم الامين لا يشارك سيده بالشرور والمظالم . ان هذا الشاب لم يقل غير الحق ، ولم يعلن لهؤلاء السامعين سوى الحقيقة .

وتقدم رجل آخر وقال: لم يقل هذا الفتى شيئاً يستوجب الحكم، فلماذا تضطهده ؟

ورفعت امرأة صوتها وقالت : لم يقذف بالدين ولم يجدّف على اسم الله ، فلماذا تدعوه كافراً ؟

فتشجعت راحيل اذ ذاك وتقدمت الى الامام وقالت : ان هذا الشاب يتكلم بألسنتنا ويتظلّم عنّا ، ومن يريد به شرّاً يكون عدوّاً لنا .

فقال الشيخ عباس صارفاً أسنانه: وانتِ تتمردين ايضاً ايتها الارملة الساقطة ؟ هل نسيتِ ما اصاب زوجك عندما تمرّد عليّ منذ خمس سنوات ؟

فشهقت راحيل عندما سمعت هذه الكلمات وارتعشت متوجعة كمن ادرك سرّاً هائلاً ، والتفتت نحو الجمع وصرخت بأعلى صوتها : هل سمعتم القاتل يعترف بجريمته في ساعة غضبه ؟ الا تذكرون ان زوجي قد وجد قتيلاً في الحقل ، وقد بحثتم عن القاتل فلم تجدوه لأنه كان مختبئاً وراء هذه الجدران ؟ الا تذكرون ان زوجي كان رجلاً شجاعاً ؟ اما سمعتموه متكلماً عن مكاره الشيخ عباس منددأ بأعماله متمرداً على قساوته ؟

ها قد أبانت السماء قاتل جاركم واخيكم واوقفته امامكم ، فانظروا اليه واقرأوا جريمته مكتوبة على وجهه المصفرّ . انظروه متململاً جازعاً . تأملوا كيف قد ستر وجهه بيديه كيلا يرى عيونكم

محدقة به . انظروا السيد القوي مرتجفاً كالقصبة المرضوضة . انظروا الجبار العظيم مرتاعاً امامكم كالعبد الخاطىء . ان الله قد اراكم على حين غفلة خفايا هذا القاتل الذي تخافونه ، وابان لكم النفس الشريرة التي جعلتني ارملة بين نسائكم ، وتركت ابنتي يتيمة بين ابنائكم .

وبينما راحيل تتكلم صارخة وألفاظها تنقض كالصواعق على رأس الشيخ عباس ، وضجيج الرجال وزفرات النساء تتموج كشعلات النار والكبريت حول دماغه ، وقف الكاهن وأخذ بساعده واجلسه على المقعد ، ثم نادى الخدم بصوت مرتجف قائلاً :

اقبضوا على هذه المرأة التي تتهم سيدكم زوراً وجروها مع هذا الشاب الكافر الى غرفة مظلمة ، ومن يعترضكم يكون شريكاً لهما بالجريمة ، محروماً نظيرهما من الكنيسة المقدسة .

فلم يتحرك الخدام من اماكنهم ، ولم يحفلوا بأوامر الكاهن ، بل لبثوا جامدين محدقين بخليل المكتوف وراحيل ومريم الواقفتين عن يمينه وشماله ، كأنهما جناحان قد فتحهما ليطير ويحلق بهما في السحاب .

فقال الكاهن ولحيته تترافص حنقاً : هل تكفرون بنعمة سيدكم ايها الاجلاف ، وتجحدون فضله وتنكرونه من اجل فتى مجرم كافر وامرأة عاهرة كاذبة ؟

فأجابه اكبر الخدام سناً وقال : قد خدمنا الشيخ عباس لقاء الخبز والمأوى ، ولكننا لم نكن له عبيداً قط . قال هذا ونزع عباءته وكوفيته وطرحهما امام الشيخ عباس وزاد قائلاً : لا اريد ان انعم

جسدي بهذه الملابس الحقيرة كيما تبقى نفسي متعذبة في منزل سفاك الدماء .

ففعل الخدام كافة نظيره وانضموا الى الجمع ، وعلى وجوههم سيماء الانعتاق والحرية .

فلما رأى الخوري الياس ما فعلوه، وقد شعر بأن سلطته الكاذبة قد تضعضعت ، خرج من ذلك المنزل مجدفاً على الساعة التي اتت بخليل الى تلك القرية .

حينئذ تقدم رجل من بين الجمع وحلّ وثاق خليل ونظر الى الشيخ عباس المرتمي على كرسيه كجثة هامدة، وبلهجة مملوءة بالعزم والارادة خاطبه قائلاً: ان الشاب الذي احضرته مكتوفاً لكي تحاكمه كمجرم اثيم ، قد انار قلوبنا المظلمة وحوّل بصائرنا نحو سبل الحقّ والمعرفة . والارملة البائسة التي دعوتها عاهرة كاذبة ، قد ابانت لنا السر الهائل الذي ظلّ مكتوماً خمسة اعوام . اما نحن فقد تراكضنا مسرعين الى هذه الدار بدينونة البريء واضطهاد العادل .

والآن وقد انفتحت اعيننا وأرتنا السماء جريمتك المخيفة ومظالمك القاسية نغادرك منفرداً ولا ندينك ، ونهملك ولا نشكوك ، ونبتعد عنك طالبين من السماء ان تفعل مشيئتها بك .

وارتفعت اذ ذاك أصوات الرجال والنساء في تلك القاعة الوسيعة، فكان هذا يقول: هلموا نخرج من هذا المكان المشحون بالآثام والمعاصي ونذهب الى بيوتنا . وذا يصرخ : تعالوا نتبع الشاب الى بيت راحيل

ونسمع حكمته المعزية وأقواله العذبة . وذاك يهتف : لنفعلنّ ارادة خليل، فهو أعلم بحاجاتنا وأدرى منّا بمطالبنا. وغيره يقول : ان كنّا نريد العدل والانصاف فلنذهب غداً الى الامير أمين ونخبره بجرائم الشيخ عباس ونطلب اليه ان يعاقبه . وآخر يصيح : يجب أن نستعطف الأمير ونرجوه أن يقيم خليلاً ممثلاً له في هذه القرية . وغيره يقول : يجب أن نشكو الخوري الياس الى الاسقف لأنه يشارك الشيخ بجميع أعماله .

وبينما هذه الأصوات تتصاعد من كل ناحية ، وتهبط كالسهام الحادة على صدر الشيخ الخفوق ، رفع خليل يده وأسكت الجمع بإشارة ، ثم ناداهم قائلاً : اسمعوا وتبصروا أيها الاخوة ولا تكونوا متسرعين . أنا أطلب اليكم باسم محبتي ألا تذهبوا الى الأمير فهو لا ينصفكم من الشيخ ، لأن الكواسر لا ينهش بعضها البعض . ولا تشكوا الكاهن الى رئيسه ، لأن الرئيس يعلم أن البيت الذي ينقسم على ذاته يخرب ، ولا تطلبوا ان أكون ممثلاً للحاكم في هذه القرية ، لأن الخادم الأمين لا يريد ان يكون عوناً للسيد الشرير . ان كنت خليقاً بحبكم وانعطافكم، دعوني أعيش بينكم وأشاركم بأفراح الحياة واحزانها، وأشاطركم العمل في الحقول والراحة في المنازل ، لأنني ان لم أكن كواحد منكم أكن كالمرائين الذين يكرزون بالفضيلة ولا يفعلون غير الشر .

والآن ، وقد وضعت الفأس على أصل الشجرة ، تعالوا نذهب تاركين الشيخ عباس واقفاً في محكمة ضميره أمام عرش الله الذي

يشرق شمسه على الابرار والاشرار .

قال هذا وخرج من ذلك المكان فتبعه الجمع كأن في شخصه قوّة تتحول نحوها الأبصار كيفما تحوّلت . وبقي الشيخ منفرداً كالبرج المهدوم ، متوجعاً كالقائد المغلوب . ولما بلغ الجمع ساحة الكنيسة وكان القمر قد طلع من وراء الشفق وسكب أشعته الفضية في السماء التفت خليل ورأى أوجه الرجال والنساء متجهة نحوه كالخراف الناظرة الى راعيها، فتحركت روحه في داخله كأنه وجد في أولئك القرويين المساكين رمز الشعوب المظلومة ، وشاهد في تلك الأكواخ الحقيرة المكتنفة بالثلوج المتجلدة رمز البلاد المغمورة بالذلّ والهوان . فوقف وقفة نبي يسمع صراخ الأجيال ، وتغيرت ملامحه واتسعت عيناه كأن نفسه قد أبصرت جميع أمم المشرق سائرة تجرّ قيود العبودية في تلك الأودية، فرفع كفيه نحو العلاء، وبصوت يشابه ضجيج الأمواج صرخ قائلاً :

من أعماق هذه الأعماق نناديكِ أيتها الحرية فاسمعينا. من جوانب هذه الظلمة نرفع أكفنا نحوكِ فانظرينا . وعلى هذه الثلوج نسجد أمامك فارحمينا . أمام عرشك الرهيب نقف الآن ناشرين على أجسادنا أثواب آبائنا الملطخة بدمائهم ، عافرين شعورنا بتراب القبور الممزوج ببقاياهم ، حاملين السيوف التي اغمدت بأكبادهم ، رافعين الرماح التي خرقت صدورهم، ساحبين القيود التي أبادت أقدامهم، صارخين الصراخ الذي جرح حناجرهم ، نائحين النواح الذي ملأ ظلمة سجونهم ، مصلين الصلاة التي انبثقت من أوجاع قلوبهم ، فاصغي ايتها الحرية واسمعينا.

من منبع النيل الى مصب الفرات يتصاعد نحوك عويل النفوس متموجاً مع صراخ الهاوية ، ومن أطراف الجزيرة الى جبهة لبنان تمتد اليك الايدي مرتعشة بنزاع الموت ، ومن شاطىء الخليج الى أذيال الصحراء ترتفع نحوك الأعين مغمورة بذوبان الأفئدة . فالتفتي ايتها الحرية وانظرينا . في زوايا الأكواخ القائمة في ظلال الفقر والهوان تقرع أمامك الصدور ، وفي خلايا البيوت الجالسة في ظلمة الجهل والغباوة تطرح لديك القلوب ، وفي قراني المنازل المحجوبة بضباب الجور والاستبداد تحن اليك الأرواح ، فانظري أيتها الحرية وارحمينا . في المدارس والمكاتب تناجيك الشبيبة اليائسة ، وفي الكنائس والجوامع يستميلك الكتاب المتروك ، وفي المحاكم والمجالس تستغيث بك الشريعة المهملة ، فاشفقي أيتها الحرية وخلصينا . في شوارعنا الضيقة يبيع التاجر أيامه ليعطي أثمانها للصوص المغرب ، ولا من ينصحه ، وفي حقولنا المجدبة يحفر الفلاح الأرض بأظافره ، ويزرعها حبات قلبه ، ويسقيها دموعه ، ولا يستغلّ غير الأشواك ولا من يعلمه . وفي سهولنا الجرداء يسير البدوي عارياً حافياً جائعاً ولا من يترأف به . فكلمي أيتها الحرية وعلمينا .

نعاجنا ترعى الأشواك والحسك بدلاً من الزهور والأعشاب ، وعجولنا تقضم أصول الأشجار بدلاً من الذرة ، وخيولنا تلتهم الهشيم بدلاً من الشعير . فهلمي أيتها الحرية وانقذينا .

منذ البدء وظلام الليل يخيم على أرواحنا ، فمتى يجيء الفجر ؟ من الحبوس الى الحبوس تنتقل أجسادنا والاجيال تمرّ بنا ساخرة ،فإلى متى نحتمل

سخرية الأجيال ؟ ومن نير ثقيل الى نير أثقل تذهب أعناقنا وامم الأرض تنظر من بعيد ضاحكة منّا ، فإلامَ نصبر على ضحك الامم ؟ ومن القيود الى القيود تسير ركابنا ، فلا القيود تفنى ولا نحن ننقرض، فإلى متى نحيا ؟

من عبودية المصريين الى سبي بابل الى قساوة الفرس الى خدمة الاغريقيين الى استبداد الروم الى مظالم المغول الى مطامع الافرنج ، فإلى أين نحن سائرون الآن ، ومتى نبلغ جبهة العقبة ؟

من مقابض فرعون الى مخالب نبوخذنصر الى أظافر الاسكندر الى أسياف هيرودس الى براثن نيرون الى أنياب الشيطان ، فإلى يد من نحن ذاهبون الآن ، ومتى نبلغ قبضة الموت فنرتاح من سكينة العدم ؟

بعزم سواعدنا قد رفعوا أعمدة الهياكل والمعابد لمجد آلهتهم، وعلى ظهورنا قد نقلوا الطين والحجارة لبناء الأسوار والبروج لتعزيز حماهم، وبقوى أجسادنا قد أقاموا الأهرام لتخليد أسمائهم ، فحتى متى نبني القصور والصروح ، ولا نسكن غير الأكواخ والكهوف ، ونملأ الأهراء والخزائن ، ولا نأكل غير الثوم والكراث ، ونحوك الحرير والصوف ، ولا نلبس غير المسوح والأطمار ؟

بخبثهم واحتيالهم قد فرقوا بين العشيرة والعشيرة، وأبعدوا الطائفة عن الطائفة ، وبغضوا القبيلة بالقبيلة ، فحتى متى نتبدد كالرماد أمام هذه الزوبعة القاسية ، ونتصارع كالأشبال الجائعة بقرب هذه الجيفة المنتنة ؟

لحفظ عروشهم وطمأنينة قلوبهم قد سلحوا الدرزي لمقاتلة العربي ، وحمّسوا الشيعي لمصارعة السني ، ونشطوا الكردي لذبح البدوي ، وشجعوا الأحمدي لمنازعة المسيحي . فحتى متى يصرع الأخ أخاه على صدر الأم ، والى متى يتوعد الجار جاره بجانب قبر الحبيبة ، وإلامَ يتباعد الصليب عن الهلال أمام عين الله ؟

اصغي أيتها الحرية واسمعينا، التفتي يا أم ساكني الأرض وانظرينا، فنحن لسنا أبناء ضرّتك . تكلمي بلسان فرد واحد منّا ، فمن شرارة واحدة يشتعل القش اليابس . أيقظي بحفيف أجنحتك روح رجل من رجالنا ، فمن سحابة واحدة ينبثق البرق ، وينير بلحظة خلايا الاودية وقمم الجبال . بددي بعزمك هذه الغيوم السوداء وانزلي كالصاعقة واهدمي كالمنجنيق قوائم العروش المرفوعة على العظام والجماجم المصفحة بذهب الجزية والرشوة ، المغمورة بالدماء والدموع .

اسمعينا أيتها الحرية، ارحمينا يا ابنة اثينا، انقذينا يا اخت رومة، خلصينا يا رفيقة موسى، اسعفينا يا حبيبة محمد، علمينا يا عروسة يسوع، قوّي قلوبنا لنحيا ، أو شددي سواعد أعدائنا علينا فنفنى وننقرض ونرتاح .

كان خليل يناجي السماء وعيون الفلاحين محدقة به ، وعواطفهم تنسكب مع نغمة صوته ، ونفوسهم تتطاير مع أنفاسه ، وصدورهم تخفق بنبضات قلبه ، فكأنه أصبح منهم في تلك الساعة بمنزلة الروح من الجسد . ولما انتهى من مناجاته التفت نحوهم وقال بهدوء : قد جمعنا هذا الليل في منزل الشيخ عباس لكي نرى نور النهار، وأوقفتنا

المظالم أمام هذا الفضاء البارد لكي نتفاهم وننضمّ كالفراخ تحت جناحي الروح الخالدة . فليذهب الآن كل منّا الى فراشه لينام مترقباً لقاء أخيه في الصباح .

قال هذا ومشى متبعاً خطوات راحيل ومريم الى كوخهما . فتفرّق اذ ذاك الجمع وذهب كل الى بيته مفكراً بما سمعه ورآه ، شاعراً بملامس حياة جديدة في داخل نفسه .

ولم تمرّ ساعة حتى انطفأت السرج في الأكواخ وألقت السكينة وشاحها على تلك القرية ، وحملت الاحلام أرواح الفلاحين تاركة روح الشيخ عباس ساهرة مع أشباح الليل ، مرتعدة أمام ذنوبه ، متعذبة بين أنياب هواجسه .

٨

مرّ شهران وخليل يسكب سرائر روحه في قلوب أولئك القرويين، محدثاً اياهم في كل يوم عن غوامض حقوقهم وواجباتهم ، مصوّراً لبصائرهم حياة الرهبان الطامعين ، مردداً على مسامعهم أخبار الحكام القساة ، جاعلاً بين عواطفه وعواطفهم صلة قوية شبيهة بالنواميس الأزلية التي تقيد الأجرام بعضها ببعض ، فكانوا يصغون اليه بفرح يضارع بهجة الحقول الظمآنة بانهطال الأمطار . ويرددون كلامه في خلوتهم ملبسين نسمات مقاصده أجساداً من محبتهم ، غير حافلين بالخوري الياس الذي أصبح يتزلف اليهم منذ ظهور جريمة حليفه الشيخ، ويقترب منهم ليناً كالشمع بعد أن كان صلباً كالرخام .

أما الشيخ عباس فقد أصيب بعلّة في نفسه شبيهة بالجنون ، فكان يسير ذهاباً واياباً في رواق منزله كالنمر المسجون ، وينادي خدامه بأعلى صوته فلا يجيبه غير الجدران ، ويصرخ مستنجداً برجاله فلا يأتي لمعونته غير زوجته المسكينة التي عانت من خشونة طباعه ما قاساه الفلاحون من مظالمه واستبداده . ولما جاءت أيام الصوم ، وأعلنت السماء قدوم الربيع ، انقضت أيام الشيخ بانقضاء زوابع الشتاء، فمات بعد نزاع موجع مخيف ، وذهبت روحه محمولة على بساط أعماله لتقف عارية أمام ذلك العرش الذي نشعر بوجوده ولا نراه . وقد اختلفت آراء الفلاحين في سبب موته ، فكان بعضهم يقول قد اختلّ شعوره

فقضى مجنوناً، وبعضهم يقول قد سمم اليأس حياته عندما زالت سطوته فمات منتحراً . أما النساء اللواتي ذهبن لتعزية زوجته فأخبرن رجالهن بأنه مات خائفاً مرتاعاً ، لأن شبح سمعان الرامي كان يظهر له مرتدياً اثواباً ملطخة بالدماء ، ويقوده كرهاً عندما ينتصف الليل الى المكان الذي وُجد فيه مصروعاً منذ خمسة أعوام .

***

وأعلنت أيام نيسان لسكان تلك القرية سرائر الحب الخفيـة الكائنة بين روح خليل وروح مريم ابنة راحيل ، فتهللت وجوههم فرحاً ، ورقصت قلوبهم ابتهاجاً، ولم يعودوا يخشون ذهاب الشاب الذي أيقظ قلوبهم الى محيط أوسع وأرقى من وسطهم، فطافوا يبشرون بعضهم بعضاً بصيرورته جاراً قريباً وصهراً محبوباً لكل واحد منهم .

ولما جاءت أيام الحصاد خرج الفلاحون الى الحقول وجمعوا الأغمار على البيادر ، ولم يكن الشيخ عباس هنـاك ليغتصب الغلّة ويحملها الى أهرائه ومخازنه ، بـل كان كل من الفلاحين يستغلّ الحقل الذي فلحه وزرعـه ، فامتلأت تلـك الأكواخ من القمـح والذرة والخمر والزيت .

أما خليل فكان يشاطرهم الأتعاب والمسرات ويساعدهم بجمع الغلة وعصر العنب واجتنـاء الاثمار . ولم يكن يميز نفسه عن الواحد منهم إلا بمحبته ونشاطه .

منذ تلك السنة الى أيامنا هذه أصبح كل فلاح في تلك القرية يستغل بالفرح الحقل الذي زرعه بالاتعاب ، ويجمع بالمسرّة ثمار البستان الذي غرسه بالمشقة ، فصارت الأرض ملكاً لمن يفلحها ، والكروم نصيباً لمن ينقبها ويحرثها .

والآن ، وقد انقضى نصف قرن على هذه الحادثة، وراودت اليقظة أجفان اللبنانيين ، يمرّ المسافر على طريقه الى غابة الأرز ويقف متأملاً بمحاسن تلك القرية الجالسة كالعروس على كتف الوادي ، فيرى أكواخها قد صارت بيوتاً جميلة مكتنفة بالحقول الخصبة والحدائق الناضرة ، وان سأل أحد سكانها عن تاريخ الشيخ عباس يجبه مشيراً نحو حجارة متقوّضة وجدران مهدومة مرتمية قائلاً : هذا قصر الشيخ عباس وهذا هو تاريخ حياته . وان سأله عن خليل يرفع يده الى العلاء قائلاً : هناك يسكن خليلنا الصالح ، أما تاريخ حياته فقد كتبه آباؤنا بأحرف من شعاع على صفحات قلوبنا ، فلن تمحوه الأيام والليالي . . .

فهرست

الموسيقى

عرائس المروج

الأرواح المتمردة

مطبعة المناهل : ٨ – ١٩٤٩

